

جوزيه لويس دي فيلالونغا

هيجان

محاكمة وقتل «لوركا»

رواية

ترجمة: منصور أبو الحسن



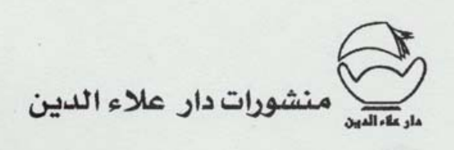
جوزيه لويس دي فيلالونغا



محاكمة !! وقتل «لوركا»

ترجمة

منصور أبو الحسن




هيجان
محاكمة!! وقتل «لوركا»

- **هيجــــــان**

محاكمة !! وقتل " لوركا "

- تاليف: جوزيه لويس دي فيلالونغا.
- ترجمة: منصور أبو الحسن
- الطبعة الأولى ٢٠٠٢.
- عدد النسخ ١٠٠٠ نسخة.

- التدقيق اللغوي: صالح جاد الله شقير
- الغلاف: المهندس محمد طـه.
- الإخراج الفني: أسامة رحمـة.
- يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار علاء الدين

للنشر والتوزيع والترجمة

سورية، دمشق، ص.ب: ٣٠٥٩٨

هاتف: ٥٦١٧٠٧١، فاكس: ٥٦١٣٢٤١

معظم التفاصيل التاريخية في هذه الرواية قدمت إليّ سابقاً من قبل شهود عيان للأحداث، وقد أتيحت لي فرصة التأكد من دقتها وصحتها عن طريق مقارنتها مع عدة مصادر موثوقة، من بينها (ولادة وموت غارسيا لوركا) بقلم مارسيل أوكلاير الذي أخصه هنا بالشكر والاحترام.

- المؤلف -

مقدّمة

طردت الأحداث العنيفة من أفريقيا هذه الراهبة الإسبانية ذات الاسم المعبر عن أكثر من معنى: (نور)... و(الحب الجميل)... والتي تستنطقها رئيسة جمعيتها حول ماضيها، وحول زهدها بهذا العالم والانقطاع عنه: أهو مجرد رغبة ذاتية أم هرب؟

في جذور تاريخها الخاص رواية، هي الأخرى، ملأى بالهيجان وبالضجيج... الرواية التي عاشها والدها (فونيسيكا) وهو (بطل) تافه ومأساوي من (أبطال) الحرب الأهلية... طاردته فكرة الموت - موته هو - ولازمته أكثر من ظله، تتقدمه حينا، وتتعقبه أحياناً، فحولته إلى كائن ينشد الحرب أو السكر، وهما الحالتان الوحيدتان اللتان ينسى فيهما السر الوحشي الرهيب الذي يلاحقه، وله اسم شاعر كبير: (لوركا):

عنف وهيجان الحروب: عالم (رجال الأهواء) و (رجال الدماء) هو العالم الذي أرادت أن تنجو منه وإلى الأبد الأخت التي كان النور، وكان الحب الجميل، بعض معاني اسمها. ورغم أرادتها المطلقة تلك، قبلت أن تتحمل مع الجنين المتحرك في أحشائها قدرها الحقيقي كامرأة..

❖ روما، آب ١٩٥٣.

❖ رجل يرتدي بدلة عمل برتقالية فتح ذراعيه على شكل صليب: طائرة نفاثة زرقاء فضية هبطت بعيداً عن الأبنية الرسمية، وتوقفت وهي تترنح فوق الأرض الإسمنتية، فتنفس (بيل هولدان) الصعداء وهو يطفئ المحرك... بينما كان مساعده المقدم (بورت تالور) يرقد ميتاً، ممزق الصدر، فوق مقعده... وما إن انطفأ ضجيج محركي الطائرة، حتى أعلنت مكبرات الصوت في مركز مراقبة مطار(ليونارد دي فينشي) وصول طائرة أمريكية، تعرضت لكارثة وهي قادمة من (ماسلاوا)، إحدى مستعمرات التاج البريطاني القديمة.

تواقد الناس من كل المنافذ المؤدية إلى المطار حتى سدوا الطريق على سيارات النجدة والإطفاء... وبينما كان عدد من المصورين يتدافعون بالمناكب على قدمي السلّم المعدني المثبت إلى مركز القيادة المخرق بالرصاص، كان (إيفريت تومبسون) مفوض البوليس يشق طريقاً لنفسه ولعدد من رجاله. ورغم ضباب الصباح الباكر، كانت شمس روما تنذر بجحيم من الحرارة، ودفق من النور المعتادين في شهر آب.

استطاع (إيفريت تومبسون) أن يصعد السلم المعدني بقفزات حاول أن يجعلها سريعة لولا حالة العرج التي تجبره أن يسحب إحدى رجليه سحباً... وهو رجل نحيل بارد الملامح، يلبس دائماً نظارتيه السوداوين.

كان الباب لا يزال مغلقاً، فراح الضابط يدفعه بقبضته، وهو يسمع محاولات عنيفة لفتحة من الداخل، مصحوبة بصرخات حانقة وشتائم بالإنكليزية عرف المفوض مصدرها: إنها المضيفة (ميتزي بيل) التي ظهرت، بعد فتح الباب، وكان وجهها قد فقد شكله الإنساني رغم خصلة الشعر الشقراء النافرة فوق جبهتها، والتي بدت وكأنها تخص كائناً آخر..

لم تنتظر (ميتزي بيل) الأسئلة كيما تجيب: (لا يوجد شيء.. طلقات.. لا شيء سوى طلقات..!).

انزلق تومبسون إلى داخل الطائرة، فصدمته الرائحة حتى كاد أن يترنح: رائحة الموت بكل مقدماتها.. الخوف.. العرق.. الفضلات.. البول.. جميع المسافرين - دون استثناء - كانوا ما يزالون مسمرين في مقاعدهم: رجال أكثرهم مسنون.. كثرة من النساء.. بعض الأطفال.. أحزمة ملوثة بالدماء.. نظرات انطفأ نورها.. ووراء تومبسون ورجاله، وقفت ممرضات من الصليب الأحمر الإيطالي مبهوتات، جامدات، متحفزات.. وبدأت العمل:

- انهضي يا سيدتي، ما بالك؟ - أيها الأب استند على ذراعي - تعال يا صغيري، لا تخف، تعال!..

ثم.. انطلق طفل في بكاء حاد غير طبيعي.. وكانت بادرة إنقاذ، بل إيقاظ: لقد ساد الهرج والصراخ والشهيق.

قطع تومبسون ممر الطائرة الضيق بعد خطوات، وفتح باب غرفة

القيادة، فالتقت عيناه بعيني (بيل هولدن):

- هيا يا (بيل) كيف الحال؟

لقد تعود تومبسون استعمال مثل هذا الأسلوب المبتذل، إنه وقائد الطائرة صديقان منذ زمن طويل، ولهما ذكريات ومغامرات مشتركة في روما وفي هونغ كونغ...

- بالنسبة لي.. لا بأس..

ونظرا معاً إلى الجثة المسجاة للمقدم تايلور، وبدأ تومبسون وكأنه فوجئ:

- أهو ميت!

- تماماً.. سبعة عشر ثقباً في قفصه الصدري.. لقد عددتها.. حتى تلك البقرة الهرمة لا أمل لها بالحياة إذا ما أصابها مثل هذا...

- لكن.. أين؟

- بعد مغادرة (فكتوريا هيلز) أجبرت على الطيران المنخفض فوق المدينة و...

- لنخرج حالاً من هنا..

كان قائد الطائرة مديد القامة، له رأس صغير أشقر كرأس طفل فوق جسم شبيه بجسم الحطاب. وبحركة غير منتظرة وضع تومبسون يده على كتف القائد، وهزه قائلاً:

- لا بد أنكم قد مررتم بحالة رهيبة..

التفت إليه (بيل هولدن) وكأنه يريد أن يصفعه:

- رهيبة؟ لا! ليس إلى هذا الحد.. الزنوج -كما هو معروف عنهم- أطفال كبار لا يؤذون أحداً.. أعطني سيجارة! - وأضاف:

- خذني لأشرب جرعة..

وجلسا في البار الصغير لصالة الشرف: سجادة دكناء من الصوف

الجيد تغطي الأرضية.. جلالات هافانية تكسو الجدران.. إنارة مكيفة تتوافق مع أذواق الشخصيات الهامة من رجال المال والأعمال.. حتى المضيفة (جيانا) بعينيها الخضراوين المزينتين بخط أسود يشكل امتداداً كالظل للأهداب السفلية، كانت تبدو صورة فنية تتصدر قطعة نقدية!

ارتمى (بيل هولدن) متداعياً في مقعد، واضعا إحدى قدميه فوق الطاولة الواطئة النحاسية الوجه، مما أتاح للمفوض - مرة جديدة - أن يلحظ كم كانتا كبيرتين قدما قائد الطائرة: طويلتان، عريضتان، متنافرتا التقاسيم!

تقدمت (جيانا) بسلسلتها الجميلة المنتهية بجسم ملاك بين نهديها، فطلب بيل هولدن:

- اثنان (بول - شوت) لا.. بل أربعة، من فضلك، وهاتها كلها دفعة واحدة..

ثم توجه نحو تومبسون شارحاً الموضوع:

- ثلاثة منها من أجلي أنا.

سأل المفوض قائد الطائرة، وهو يجفف عرق جبينه بمحرمة من الحرير الهندي:

- هل ستبقى الليلة في روما؟

- كان (بيل هولدن) يقطع بأسنانه عقب سيجار فيرجيني صغير وأجاب:

- تعرف جيداً - قالها بصوت تهكمي - إنني لا أشرب إلا أثناء الوظيفة.. هذا المساء سأنام في مدريد.. غداً سأكون في لشبونة..

تململ المفوض في مقعده ثم قال:

- في حالة استثنائية.. لك الحق بالراحة أسبوعاً كاملاً، اعتباراً

من اليوم، والمقدم (لانزا) يوافق لك عليها فوراً..

جرع (بيل هولدن) قدحه. إنها (فيرييوفا) أصلية فعلاً! - والتفت جهة المفوض معلناً رفضه للعرض بحركة من رأسه، فزاد من تبرم مضيفه الذي قال بحنق:

- ولكن.. هذا هو حقك..

- شكراً.. لا! لا أريد التوقف الآن عن الطيران.. قد أقبل ذلك ولكن.. بعد زمن، ليس الآن!.

أعاد تومبسون وضع محرمته المطوية بعناية في جيبه وعقب قائلاً:

- فهمت.

رفع بيل هولدن حاجبيه: - حقاً؟

لم يجب إيفريت تومبسون.. شرب جرعة من هذا الشراب الذي يمجه، فشرق بها، وراح يسعل وعيناه تفيضان بالدمع، ودقت الساعة الكهربائية ذات الرقاص معلنة الوقت، فالتفتت الأنظار تلقائياً، لتلاحظ حركة الناس وراء حواجز البلور الدخاني.

كانت الصالة الصغيرة غارقة في الصمت الرخي. وضع إيفريت تومبسون قدحه على الطاولة وقال مداعباً:

- ملاك مر..

- إلى الجحيم.. قالها قائد الطائرة وفي صوته رجفة ملحوظة، فتضايق رجل البوليس وانصرف باهتمامه نحو أي شيء.. تأمل حذاء قائد الطائرة المصنوع من الجلد الأحمر الباهت وهمهم في سرّه:

(لقد أصبح مخموراً تماماً هذا اللقيط.. ثلاثة أقداح (بول - شوت) متتابعة تكفي لذلك، وإن كنت أعرفه يفرغ في جوفه كميات كبرى من شتى أنواع المسكرات، دون أن تظهر عليه أقل علامات السكر..) والتفت أيفريت تومبسون نحو المضيفة قائلاً:

- جيانا.. نفس الكمية، من جديد، من فضلك.

كانت مفاجئة لبيل هولدن، فعقب قائلاً:

- حسناً فعلت! وربت براحة كفه على ركبة صديقه بحركة تنّم عن ود وصداقة، ثم قال:

- يجب أن تسامحني يا تومبسون (الجانتلمان). لقد وضع الملونون أعصابي في مقلاة..

وصلت جيانا مع الشراب: إنها تتميز بساقيها الطويلتين ويديها البضتين المعتنى بهما ونهديها الهابطين كثيراً، على نمط المرأة الصقلية المشبهة بالعنزة، والتي تذهب بعقول الشباب الأنغلو - ساكسون..

وضع قائد الطائرة يده على خصرها وهمس:

- جيانا.. إذا ما بتّ في روما هذه الليلة هل ترغبين بالنوم معي؟!

أفلتت جيانا منه بحركة لبقة مجيبة: - هذا لطف منك أن تفكر بي يا سيدي، ولكن عندي كل ما يلزمني في الوقت الحاضر.. ثم قدمت الأقداح الملأى وأخذت الفارغة مضيفة: - سأقبل طلبك.. آجلاً!

- آجلاً.. هذا طويل.. واستنشق أكثر فأكثر رائحة العطر التي تفوح منها.. كانت هادئة، وجذابة، قالت:

- آجلاً.. قد يكون هذا غداً. وانصرفت دون أن تتموج في مشيتها كالعادة.. وقال بيل هولدن كأنه يحدث نفسه:

- يأتي يوم يمر من هنا أميركي عابر سبيل - من تلك النوعيات المغامرة الكاملة الغباء - فيضع يده على هذه البنت وهناك في مسقط رأسه (ماساشوزيت) (يمررها) على أنها أميرة رومانية عاكستها الظروف وحالفها سوء الطالع في بلدها..

- إنك تستدرجني إلى البكاء..

قال تومبسون ذلك ساحباً من جيبه دفتر مذكرات اسود وقلماً فضياً..

قال بيل هولدن مفرغاً في جوفه قدحاً كاملاً:

- عندي بعض عناوين الحسناوات، يمكن أن أضعها تحت تصرفك.

- شكراً يا صديق إن لقاءنا على مثل هذا الطريق كان عارضاً ولمناسبات نادرة للغاية..

ولوح قائد الطائرة بقدحه الفارغ في الهواء جالباً بذلك انتباه المضيفة. تغيرت ملامح وجه أيفريت تومبسون، وأصبحت صارمة. قال بلهجة الأمر:

- أوقف الشرب يا بيل.. لا تصبح أضحوكة!

ورفع صوته طالباً من جيانا قدحين ثقيلين من القهوة وسلة السجاير ثم أردف:

- الآن لنبدأ الأمور الجدية. ورفع نظارتيه الرماديتين، واضعاً مكانهما نظارتين لهما زجاج سميك. وأثناء هذه الحركة بدت عيناه السوداوان ودائرة السواد المحيطة بهما..!

- بعد ساعة من الآن، يتوجب عليّ رفع تقريري للإدارة وأنا بحاجة إلى بعض المعلومات.

قاطعه قائد الطائرة بصوت خافت: - ماذا؟ مثل هذا الآن وفوراً؟

فتح أيفريت تومبسون دفتر مذكراته الأسود على الصفحة الأولى:

- في أي لحظة - بالدقة - وصلت إلى فكتوريا - هيلس؟

- أمس مساء.. الجمعة، الساعة الثامنة عشرة وعشرون دقيقة. ولكني كنت الوحيد الذي هبط فيها. (بانانغ) صرع ونحن نطير فوق الحي الرئيسي بالمدينة. لقد كان قريباً جداً مني لما أصيب..

- كم كانوا على الطائرة؟

- بانانغ.. كرووم.. معاون القائد.. رئيس أطباء الجيش الهولندي.. وممرضتان وصلتا لتوهما من لندن.

- كلهم ماتوا؟

- أرجو ذلك لهم؟!

كان بيل هولدن على علو منخفض جداً لما سقطت طائرة بانانغ وتحطمت على الأرض. لقد عاين جيداً حشد السود يتدفق على حطام الطائرة المشتعل: أناس عراة تقريباً، وجوههم موسومة بخطوط بيضاء، مسلحون بالحراب.. لقد حوم فوق مكان سقوط الطائرة وخيل له أنه يرى إحدى الممرضات بثيابها البيضاء تنجو من الطائرة الملتهبة وتزحف بعيداً.. وهو يأمل الآن أنه كان يحلم.. مجرد حلم! قال المفوض بمرارة:

- هذا حقاً فظيع.

- نعم، هذا فظيع، خصوصاً بالنسبة للبنتين.

- لقد عاشر بيل الاثنتين منذ وصولهما إلى جوهانسبورغ:

(نانسي) الإيرلندية ذات الشعر الأندلسي.. و(بياتريس بروك) اللندنية التي كانت تمارس الجنس وهي تأكل السندويش! طرح المفوض سؤالاً روتينياً:

- أو لم تستطع عمل شيء من أجلهما؟

واجه قائد الطائرة المفوض بنظرات ضائعة في سقف الصالة، ثم أجاب:

- لا شيء.. حتى باقة أزهار!

وبدت الهالة الزرقاء حول عيني تومبسون تنقلب سوداء كالحة، ثم عقب قائلاً: - إنك لحقير قذر يا بيل، وظيفتي تلزمني بالتعامل معك ويؤسفني أن..

خاطب بيل نفسه: - نعم! ولكنه هو لم يأخذ بين ذراعيه (بيبي بروك) في سرير مليء بفتات وبقايا المائدة!

- في أية ساعة هبطتم على الأرض.. وأين؟

- قلت لك ذلك.. الساعة الثامنة عشرة وعشرون دقيقة، البارحة مساء، قدام مكاتب (أير فرانس) التي كانت تحترق.

لقد رمونا فوراً بقذائف الهاون ونجح (برت تايلور) بأن وضعنا مكشوفين وراء البناء الوحيد الذي كان لا يزال قائماً وسليماً في المطار ثم وصل (وسترلينغ) وأتباعه..

- وسترلينغ.

- أودو وسترلينغ.. الكولونيل في بلده المنشأ والمتطوع الألماني المرتزق الذي حارب في الهند الصينية.. في الكونغو.. في اليمن.. كل هذا! - إنه العنصر الذي (يعبد) الزنوج ويفضل أن يسلقوا بالماء قبل اعدادهم طعاماً شهياً! وسحق قائد الطائرة سيجارة في قعر المنفضة ثم أضاف:

- إنه أداة رائعة جداً..

وساد الصمت لحظة. كانت جيانا تركز قدحي القهوة على الطاولة.. ومن جديد تحركت يد قائد الطائرة إلى خصر الفتاة:

- جيانا.. أولاً تريدين تغيير رأيك؟

من فوق كتفه ألقت إليه: - لا رأيي ولا رجلي!

- يا لرأس البغلة..! اذهبي..

كان إيفريت تومبسون يشرب قهوته، وخنصر يده في الهواء:

- ويسترلنغ.. هذا الاسم يقول لي شيئاً..

- إنه هو الذي استعاد - الأربعاء صباحاً - مشفى (دنكلي) من رجال الجنرال (مويل).

- جنرال؟! - عقب المفوض.. هذا كثير جداً!

- هكذا لقبته كل صحف العالم طوال عدة شهور.

- جنرال.. هذا الزنجي.. يا للسخرية!

- وسترلنغ بالذات أخذه دائماً على محمل الجد، ومنذ البداية، هزم (مويل) قائدين محترفين: اللورد (كار) والهولندي (فان ديرويلد). إنه قوي في هذا المستوى، وأرجو أن تصدقني أن عنصر المباغتة وعوامل فنية أخرى هي التي مكنت وسترلينغ من مهاجمة (دنكلي) والنجاح في ذلك.

وراء الحواجز وعلى الطريق المؤدية إلى الجمارك مر في تلك اللحظة (قطيع) من الرجال والنساء أنهكهم التعب، وغير ملامح وجوههم، وقد اختلطت بهم راهبات إيطاليات وهن يوزعن الابتسامات المتكلفة برصانة ووقار.. أشار قائد الطائرة إليهم وقال هامساً:

- من هم؟ من يكونون..

- أناس لا أهمية لهم.. معمرون صفار من إيكوسية. تجار هنود.. ومن بين النساء عدد من الراهبات نجون من مذبحة (دنكلي).

وبعد أن سجل تومبسون بعض الملاحظات في مذكراته السوداء قال: دنكلي هذه.. أين موقعها بالضبط؟

- قرب (فيليب - فالس) على الحدود الغربية لمستودعات الصيد التي تحمل نفس الاسم، والمشفى هو الوحيد في المنطقة.

- مشفى من أي نوع ومستوى؟

- أقول (مشفى) تجاوزاً.. إنه لا يستحق هذا الاسم..

ليس أفضل بكثير من أكواخ (شويتزر)، يتم فيه - بشكل فوضوي - إيواء مرضى البرص والحوامل والأولاد اللقطاء وحتى الحيوانات الجريحة!

- إدارته إنجليزية؟

- تقريباً.. بين (الأخوات) اللواتي جلبتهن معي راهبتان إسبانيتان وواحدة إيطالية وثلاث فرنسيات ومجموعهن ست راهبات نجون من

الموت من أصل -١٨- امرأة.

- كيف كان مصير الباقيات؟

تراخى بيل هولدن في مقعده وتناول من فوق أذنه سيجاراً صغيراً آخر ثم أجاب: - (أكلن..).

سقط فنجان القهوة من يد تومبسون على السجادة فأحدث صوتاً نبه جيانا، وكان على موعد مع الساعة التي دقت الربع..

وسأل قائد الطائرة:

- ماذا قلت؟

- أكلن من قبل بعض رجال (مويل) من الشمال ومن أكلة لحوم البشر..

وأشعل بيل سيجارة ونفث الدخان مستقيماً أمامه وتابع:

- ورغم هذا فإن هؤلاء الرجال أناس مهذبون.. لم يقتلوا إلا المسنات السمينات بشكل مفرط في حين أنهم أبقوا على الشابات فلم تمس إحداهن بأذى. ولعلهم فكروا بتسمينهن قبل أن...

- يا للقذر!

- نعم، قذر ولكن هذا ما جرى.. ماذا يمكن عمله؟ على كل حال كان حظ الشابات كبيراً. لقد جاء وسترلينغ في الوقت المناسب.

وهنا طوى بيل هولدن فجأة رأسه على صدره ونام!

بيل..! فقد كلّ إحساس وتعالى شخيره.. كل ما هنالك إنه مدد ساقيه الطويلتين تحت الطاولة فكاد يقلبها وتساقطت الأقداح عالية الرنين.. كما سقط السيجار المشعل على السجادة، فأطفأه تومبسون بعقبه، ونهض حاملاً مذكراته السوداء التي لا تبارح يده، وتوجه نحو محاسبة البار:

- كم الحساب؟

حركت جيانا يديها فوق الآلة الحاسبة وهي تسترق النظر إلى الجسد المتداعي لقائد الطائرة وأجابت: - شيء لا يستحق الذكر يا سيدي.. وأعقبت هذه العبارة بابتسامة تنم عن رغبة في المشاركة، فظن مفوض البوليس أنه بحاجة لشرح الأمر أكثر:

- ليس حساب الشراب فقط: كما تعلمين، القائد هولدن يصل لتوه من (ماسلاوا) وسمعت بما جرى له وجرى هناك لقد قتلوا رئيسه المقدم تايلور، وبأعجوبة نجا هو ووصل إلى هنا..

فهو إذن في حالة جديرة بالعناية..

وقدم لجيانا عدة أوراق نقدية كبيرة ملفوفة متابعا:

- عندي بعد أعمال كبيرة يا جيانا (و... بتردد..) هل تعتقدين أنه بإمكانك ...

قاطعته مدركة ما يرمي إليه: - ولكن بكل سرور يا سيد تومبسون سأهتم به..

أردف تومبسون بلهجة المتردد أيضاً:

- خصوصاً ... لا تتركيه وحده.

غمزت جيانا بعين الأمومة الحانية: - أعدك. ثم أعادت له الباقي من نقوده، فظهر ثقب صغير في منعطف قميصها الساتين الأسود، عند المرفق.. وتابعت - ما دام في هذا مساعدة لك.. فبوسعي أن أقله إلى روما في سيارتي.

شكر المفوض جيانا مبتسماً لأول مرة منذ أن عرفها، لا حظ أن لها أنياباً مثل أنياب الذئبة، ودمدم: - هذا القذر، هولدن نجح أخيراً بإجبار جيانا أن تتولى بنفسها وضعه في سريره، وبطبيعة الحال أن تنام إلى جانبه! ثم التفت إليها:

- إذا ما حدثك عن السفر إلى مدريد قولي له إن القائد لانزا قرر استبداله.. وانطلق مودعا.

اتجه المفوض نحو الجمارك، يجر ساقه العرجاء جرا، أكثر من العادة، واختلط هناك بالزحمة، حيث تجمعات المسافرين وبينهم عدد قليل من الممرضات والراهبات والكهنة القادمين من روما وفيهم مدنيون متطوّعون قدماء بأذرعهم الاصطناعية يجوبون الصالة، ويقدمون الشاي والقهو والسجاير.. نساء يبكين، جالسات على حقائبهن نصف المفتوحة.. رجال ما زالت تأخذ بمجامعهم ذكريات الأمس يدخنون بصمت، وكان ثمة شيخ عملاق، ربطت رقبته بالشاش الملطخ بالدم، يتساءل بصوت أشبه بالعواء: - _ماذا ينتظر الطيران الإيطالي حتى يذهب ويدمر هؤلاء الزنوج الـ..؟) - وتعجلته نوبة سعال حادة تداخلت تداخلاً مع (نباحه) الذي لم يعد يفهم منه سوى بعض العبارات المتقطعة: - (.. شيوعيون.! الخ..) - وفي إحدى الزوايا، صبية، بلون الرماد، يتقاتلون بشراسة وعناد لامتلاك علبة كبيرة من الحديد الأبيض لها قصبة، وتبدو وكأنها (رشاش وقاعدته).

شعر إيفرت تومبسون بالعرق يتصبب منه ويكاد أن يغرقه، رغم تكييف الهواء، تزايد شعوره بوجوب المغادرة لولا أن رجلين بصدارتين بيضاوين، عبرا به وهما يحملان على رحالة طفلة فاقدة الوعي جاحظة العينين، معميّة النظرات، ثم شاهد امرأة ما زالت شابة قرب الرحالة، صلبة القسمات، تندب الطفلة، مثيرة مشاعر كل من سمعها، وترددت في المكان أصوات:

- (مسكينة. مسكينة!)

أوقف إيفريت تومبسون، بإشارة من يده إحدى الممرضات سائلاً: (هؤلاء الناس، كلهم من ماسلاوا)؟

- نعم.. قادمون من كل مكان: (من فكتوريا - هيلس)... من (كلوساستر - تاون).. من (ماهارابي).من (دنكلي)، وتابعت طريقها بخطوات ممرضة حقيقية.

من وراء تلة من الحقائب كان ضابط الجمارك (انزو فابري) يكرر الإشارات كي يلفت انتباه (ايفريت تومبسون) الذي ما أن تنبه، حتى حياه بدفتره الأسود، فعرض عليه الإيطالي الغذاء في (الكانتين) وبإيماءة من رأسه، وافق المفوض، فقال الإيطالي: اتفقنا، بعد خمس دقائق فقط!

كانت دزينة من الأشخاص تصطف أمام (فابري)، كل ينتظر دوره، وكان ضابط الجمارك يرفض مبتسماً تفتيش حقائب اللاجئين، وبحركات مسرحية كان يرسم صليباً كبيراً ابيض على حقائب القادمين من (ماسلاوا). لقد كان أمراً ممتعاً لتومبسون أن يتابع هذا العمل... كان الإيطالي وسيماً، لطيفاً جداً مع الشيوخ يحب الاطفال حتى العبادة... ويروق له أن يحادث النساء البشعات والحسناوات على السواء.

اتكأ تومبسون على سارية، وفتح عدد الأمس من صحيفة الدايلي مايل، وراح يعقب على بعض الاخبار:

- الاضطرابات... أطباء الأسنان هذه المرة...

- في البورصة ارتفاع في اسعار القطن..

- هل الملكة حامل من جديد؟ لقد ارتدت على غير عهدها ثوباً فضفاضاً أثناء الحفلة الأخيرة الراقصة وكان الثوب رائعاً...(مناسباً لها!).

- في جاكرتا استقال أحد الجنرالات..

علق تومبسون: يا للتفاهة، وطوى جريدته بعد أن دقت الساعة الناطقة تمام الظّهر، وتذكر فجأة أنه لم يتناول أي طعام منذ الأمس، وأنه جائع ولا طاقة له بالانتظار، فأرسل نظراته صوب صديقه:

- لا تزال امرأة واحدة امام فابري، تسحب بصعوبة حقيبة كبيرة

من الكرتون المضغوط المثبت بشرائط معدنية، ومن فوق دكته كان ضابط الجمارك يساعدها ما أمكنه ذلك... لقد رأى تومبسون ظهرها، فبدت له شابة فارعة الطول، ترتدي ثوباً أزرق بحرياً فصل لأكبر منها... وبعض الجدائل القصيرة الشقراء الرمادية أفلتت من قبعتها، ونفرت على عنقها، رغم أنها انزلت القبعة إلى ما تحت الأذنين.. ثم ... سترة طويلة جداً من القطن الأغبر، وحذاء مسطح.. وأخيراً ظهرت عليها بوضوح تلك القسمات المستعارة التي تظهر عادة على جميع المذنبين المطاردين، والتي لا تغيب عن بصيرة مختص مثل تومبسون انها راهبة... لقد صادف العشرات من مثيلاتها في سجون مدريد عام ١٩٣٧، وكان يخدم تحت إمرة (بافل ايفانوفتش برزين)، كما التقى بكثيرات ايضاً على طرق شمال فرنسا أيام اندحارها.. ثم في الهند الصينية، لما كانت أديرة بكاملها تنطلق هاربة في حقول الأرز الفسيحة أمام قوات(جياب) الزاحفة، باعتبار الأديرة مراكز تبشير موالية للسلطات المحتلة هناك.

رسم فابري صليباً أبيض على الحقيبة، فانحنت المرأة مرتين تعبيراً عن شكرها، وعاد ضابط الجمارك لمساعدتها على نقل الحقيبة إلى حيث تقف، فحملتها واستدارت، وبهذه الحركة عرف تومبسون أنها (حامل) منذ عدة أشهر. وتحفز لعمل شيء ما لكن (انزو فابري) سبقه بعد أن اجتاز الحاجز، فأمسك بالحقيبة قائلاً:

- هل تسمحين يا سيدتي؟

جمدت المرأة في مكانها ونظرت إليه لحظة دون كلام... عينان رماديتان كبيرتان.. أنف مستقيم.. شفتان مرهفتان جداً.. إن عبارة (سيدتي) حركت فيها ابتسامة فانحنت قليلاً أمام الرجلين وقدمت نفسها:

- الأخت (لوزديل امورهرموزو).

- قديماً تعلّم طومبسون الإسبانية بلهجتها الأرجتنينية وبالمعاني المتعارف عليها هناك: (الأخت نور (ضياء، إشعاع، نار) للحب الجميل). لقد لفظت اسمها ببساطة متناهية، دون ارتباك، وبصوت جهوري، حلو، فيه رهبة وشاعرية.. ثم همست بلا مبالاة:

- أتصور أن أحداً ما سيكون في انتظاري.

- من؟

- لا أعلم

- أين؟

- لا أعلم

وعرض الإيطالي:

- انجرب أن نجده في السوق الكبير...

- لنجرب

- بين هذين الرجلين بدت الراهبة الإسبانية فجاة أصغر سنا مما يوحي به لرائي مظهرها... وبعكس كل النساء الحاملات، كانت تمشي بخطوات ثابتة سريعة، وباستثناء الاصفرار الناجم عن أهوال البارحة، لم تكن تظهر عليها آثار الإعياء والتعب، سوى بعض الإمارات المعبرة عن الصلابة ومسحة من الياس نتيجة صدمة عابرة...

وأبصر تومبسون الفريق المنتظر: تحت ثيابها السميكة السوداء بدت راهبة كبيرة مسنة تتوكأ بكلتا يديها على عكاز، ووراءها اختان شابتان، يحاذيهما سائق عظيم البطن، حاملاً بيده قبعته المسطحة.

جمدت القادمة مكانها.. كذلك فعل الرجلان.. لقد وقفت وجها لوجه أمام المسوؤلة الكبيرة.. وبعد لحظة بدت طويلة جداً حركت المسؤولة عكازها، وبطرفه ضربت مرتين على الأرض، مما يعني: -

(اقتربي) فتقدمت القادمة بضع خطوات وانحنت انحناءة شديدة:

- (جراسياس، ماور).

أومأت المسؤولة للسائق بحمل الحقيبة وعادت من جديد لتحريك عكازها: ضربة واحدة على الأرض.

- (فامونوس).

التفتت الأخت لوزديل أمور هرموزو نحو الرجلين: - أشكركما على لطفكما.. بيد أنهما لم ينبسا.

- (فامونوس) - قالت المسؤولة المسنة بنفاذ صبر وبصوت خافت يشبه الهمس.

وشهد انزو فابري والمفوض الراهبة الإسبانية تنطلق في دوامة من التنانير السوداء، وكانت تمشي شامخة الرأس مستقيمة الخطى...

- مسكينة - همس ايفريت تومبسون دون أن يعي لماذا؟

انطلقت السيارة باتجاه روما: كاديلاك من الأربعينات، أثاثها معتنى به، ومنه تفوح رائحة النفتالين والجلد و - يا للغرابة - التبغ الممتاز الذي لا يستعمله سوى مدخني "البايب" الحقيقيين.

والشيء الوحيد الذي لا رائحة له كان باقة زهر بلاستيكية معلقة في المقدمة

اخذت الأخت لوز مكانها داخل السيارة إلى يسار الأم، رئيسة دير سانتو ستيفانو، فرع روما للجمعية الرهبانية الإسابنية (هرمانا لويزا) الاختان الصغيرتان (أولاً تبدوان توأمين؟

سألت الأخت لوز بدهشة من شدة الشبه بينهما؟ كانت الام الرئيسة قبل انقطاعها عن العالم تدعى (ماريا فيليز دي أغرومونت) من أصل كاستلياني عريق، كانت تجلس منتصبة ساندة ذقنها إلى عكازها مغمضة العينين وكأنها غارقة في سبات عميق... لعلها غارقة

في الصلاة؟ ولكن ابتسامة الاحتقار الغامضة التي تعوم على شفتيها خيبت ظن الأخت لوز، التي تعلم أن الصلاة مثلها مثل كل موسيقة داخلية، تلطف قسمات وجوه المسنين مهما كانوا قساة...

وحينما استعمل السائق مكبحه للمرة الوحيدة فجأة، مخافة أن يصدم عربة يجرها ثوران تجتاز الشارع، استقيظت الأم الرئيسة، ملتفتة نحو لوز:

- هل أنت متعبة؟

- لا ريب أن مثل هذا السؤال، لا يمكن أن يطرح على سواها، ولذلك أجابت الأخت لوز: - لا، يا أمي، أبداً

لم تتابع الرئيسة. لقد عادت إلى هيئتها الأولى، مما أتاح للأخت لوز فرصة إلقاء نظرات فاحصة على السيدة المسنة: مظهر جانبي جميل، أصيل ومهذب مستبد، راحتاها كبيرتان أرستقراطيتان، من تلك الأيدي التي يطيب للبعض أن يصفها بأنها (يدا عازف بيانو)، وأخيراً هذه الهالة من الجفاء والتي تشبه لحنا مثالياً بعيد الغور

توقفت السيارة على أبواب روما عند مفترق الطرق، ففتحت مادر ماريا عينيها، وانحنت على صندوق عند مقعد السائق، ثم فتحته بمفتاح صغير، وباحتراز كبير صبت في كوب فضي قليلاً من سائل ذهبي في وعاء فضي أيضاً، وكأنها شعرت بحاجة إلى أن تشرح:

- الأطباء يقولون إن هذا نافع لقلبي.

عرفت الأخت لوز رائحة الكونياك... لم يكن من النوع الذي كان يشربه حتى يسكر الدكتور غاليليه هناك بعد كل عملية يجريها، وتعقبها وفاة إنسان.. لقد كان من أحسن أنواع الكونياك

أعادت نشوة الكحول - لفترة قصيرة - حيوية الإنسان إلى هذا الكيان الهرم، فتحرك لسان الأم الرئيسة:

- جئت قبل اليوم إلى روما؟

تناهى الصوت ودوداً هذه المرة...

-مرة واحدة يا أمي.

- نعم، صحيح، كدت أنسى..

دخلت الكاديلاك زقاقاً ضيقاً، دون أرصفة ... واجهة قصر مهجور. شبابيك عالية مشبكة بالحديد... عين ماء من الرخام الأسود محفورة في جدار من الغرانيت الوردي... ثم ... هواء رطب مشبع برائحة العفونة... وعلقت الأخت لوز:

- إنها مدينة جميلة

فهمست الأم الرئيسة:

- يقولون هذا

خففت الكاديلاك من سرعتها.. أزقة أخرى... ساحات وحدائق واسعة خالية... أولاد... ماجنون... حفاة... صبايا شبه عاريات... رجال من مختلف الأعمار، من ذوي البطنة، وآخرون، شباب متغطرسون يصيحون... كلاب مريضة بالجرب... حمير محملة بالقش المضغوط... سوق أزهار... نساء حوامل... باقات خزامى ثم ساحات... كنائس مصفحة... قباب... اجراس... بيوت سمراء... وردية...غبراء.. نساء مسنات مهيبات على أبواب المداخل... عربيات من عهد كافور.. قنابيز من الحرير الوحشي... بشرات موزية... وأيضاً صبايا ونهود ووجوه نمشاء وشفاه مكتنزة وألسنة وشوراب... ودائماً... دائماً هذه الرائحة التي تفوح من مزيج الثمار الناضجة والعرق والملذات والأطعمة... رائحة الحب

شرح السائق دون أن يدير رأسه: - كل هذا، يا أختي يمثل وجه البؤس والشقاء، وجه الريف والضاحية، من روما.. أما روما الحقيقية فسترينها بعد.. إنها تختلف

اجتازوا بعد عشرين دقيقة الضاحية، وبدت روما وكأنها ديكور زائف بارد الجمال، موسوم بطابع كل من (ميكيل انجلو... لي بيرنان. برامانت..) ساحات عامة صفراء.. أروقة فسيحة ... قصور ملكية هجرها ملوكها.. حدائق حرقتها الشمس، وأيضاً خرائب... واجهات ... آثار.

في روما هذه، الغالية على قلب السائق الذي افسحت له الرئيسة المجال كي يطيل التجوال فيها لعرض معالمها، في روما هذه، كان الناس لا يختلفون عن سواهم في أي مكان آخر مماثل: يصطحبون أولادهم.. كلابهم... يتركون مخازنهم مفتوحة.. يتوقفون فجأة أمام إعلانات السينما. يجتنبون السيارات.. وكما هو الحال في أي مكان آخر: أناس يجيلون عيونهم في كل مكان ولا يبصرون... يكادون لا يمتلكون نزواتهم وهم على العموم في هندام حسن، شعورهم مقصوصة بعناية فائقة، ابتساماتهم عريضة كيما تظهر أسنانهم الصناعية الذهبية وكأنها ميداليات رائعة التصميم. ذقونهم وصدورهم ذقون وصدور الأباطرة...

هنا: (رائحة الحب) لا أثر لها. في المنعطفات والشوارع الفسيحة تحف بها الفنادق والملاهي والمقاهي، وتنتشر فيها رائحة الفل والزنبق المزهرين في كل مكان.

التفت السائق إلى الخلف:

- يقولون: (يجب أن ترى نابل ثم تموت) اما أنا فلا أقول (نابل) بل أقول (روما)

وضاق صدر (مادر ماريا): - يكفي يا ريموندو إلى البيت. حالاً.. وأضافت: - الأخت لوز بحاجة إلى الراحة على كل حال.

- ولكن يا أمي قالت لوز معترضة..

- ريموندو.. إلى البيت

وانطلقت الكاديلاك إلى الأمام لتقف بعد دقائق أمام باب حديدي كبير ثقيل المصراعين، ضخم المسامير، على بعد خطوات من (بيازا نافونا). كانت الأخت بوابة (سانتو ستيفانو) متأهبة لفتح الباب إثر القرعة الأولى.

كان السرداب مقفراً... أبيض مقفراً... ودخلت الأخت لوز ومعها حقيبتها الكبيرة، وسمعت الباب يغلق وراءها ويقفل مرتين بالمفتاح... إنها وحدها الآن.. لقد أفزعتها الوحدة فكادت تصرخ، ثم أحست بنوبة ألم هناك في بطنها.. ولأنها كانت وحيدة، وضعت يديها على بطنها.. وتركتهما وقتاً طويلاً...

لقد صحبتها الرئيسة مادر ماريا بنفسها حتى عتبة الغرفة.

قطعتا معاً الممرات المقفرة ومهاجع الشابات، وصعدتا ونزلتا أدراجاً وسلالم عجلتين، دون توقف، حتى وصلتا أخيراً إلى تمثال مريم البتول، فتوقفت الرئيسة تستعيد قواها، وتتمتم ببعض الصلوات، ثم تابعتا. وفي آخر دهليز للممشى (ب) في الجناح الشرقي لدير (سانتو ستيفانو) المطل على (فيكولودي لاردي) دفعت مادر ماريا الباب بطرف عكازها:

- تنتظرين هنا...

وانتظرت الأخت لوز وحقيبتها عند قدميها، ومن الشباك المثقوب في أعلى الجدار، عند السقف إلى اليمين، أبصرت حيزاً من السماء وظل أحد أغصان شجرة كرز، وغيمة، اتخذت شكل رأس كبش... إنها سماء أخرى تختلف عن الاخرى هناك... في افريقية كانت زرقتها خفيفة بلون الصدف ولا بد أن النجوم، في الليل تسبح فيها بحذر شديد.

صدمها الصمت في البداية. صمت مفتعل.. في دير سانتو ستيفانو الذي يضم بين جدرانه اكثر من ١٤٠ راهبة من كل الأعمار،

مرحات على الغالب، وكثيرات الضجيج، لأن جميعة (لاس هرمانا لويزا) لم تكن كثيرة التشدد في النظام (الثورات الحقيقة تقوم في السماء) قالت يوما مادر ماريا دون أن يكلف احد نفسه، فيفكر بخلفية مثل هذه الكلمات...

في سانتو ستيفانو، حرية الكلام مباحة، وكذلك الضحك خارج ساعات العمل، ثم الصراخ بعض تقاليد راهبات الدير.

وهكذا أطلق عليهن الكاهن لقب (البلابل)... أما الرئيسة فقد نعتتهن بـ: (العقاعق الثرثارة)... في حين نعتهن طبيب الراهبات المريضات بالنفوس المريضة.

بدا الدير اليوم - خلافاً للعادة - مهجوراً... لا حياة فيه، لا صوت لا نغمة.. لا ضحكة.. لا همسة.. هذا الصمت المريب أفزع الأخت لوز. حتى صمت افريقية كان - مثل سمائها - شيئاً مختلفاً، أما هنا فهو قابض للنفوس، عدواني، ينذر بالسوء. في دنكلي كان الصمت أشبه بعالم مفتوح الآفاق فسيحها، تحت سماء عالية تأخذ أبعادها مع الأرض منذ الفجر، وكان صمتها محبباً إلى الأخت لوز، ترتمي فيه وكأنها في حضن مفتوح الذارعين.

استفاقت الأخت لوز على وقع خطوات سريعة، وقامت بنصف استدارة: صوت تبادل كلمات هامسة وراء الباب، ثم تحرك المفتاح في القفل، ودخلت الدهليز ثلاث راهبات.. رفيقتا لوز من المطار، وثالثة مجهولة كبيرة وجافة، مرت الأخت لوز دون أن ترمقها بنظرة.. أما الصغيرتان فقد جلبتا سرير معسكر وكرسيا وشراشف من الجوخ وأغطية.. وضعتا ذلك في العتبة، وبإشارة من الثالثة الكبيرة تركتا المكان دون كلام، في حين قامت الثالثة الكبيرة بنصب السرير في الغرفة والبدء بترتيب الفراش:

- دعيني أساعدك يا أختي.

- ...

- لا اعتقد أن إحدانا تعرف الأخرى وليس هذا غريباً.. لقد غادرت (سانتو ستيفانو) منذ أكثر من ثلاث سنوات.. هل أنت جديدة هنا؟

كانت الاخت الكبيرة مشغولة بترتيب السرير بعناية فائقة، دون أن تلتفت، لكأنها لا تسمع. (ما هو اسمك يا أختي؟)

أنهت الأخت الكبيرة مهمتها ولأول مرة استدارت وألقت نظرة على الأخت لوز: كان وجهها طويلاً شديد النحول، شفتان بلا لون، أسنانها صغيرة قرمزية، أما عيناها فكانتا رائعتي الجمال، حنونتين تقريباً، بلون أوراق الخريف.

- ألا تريدين الكلام معي؟

في (دنكلي) كانت الأخت (لوز ديلامور هرموزو) تروض الطيور والأطفال والرجال وتحولهم إلى كائنات أليفة، إنها حليمة صبورة إلى ما لا نهاية.!

- قولي لي.. لماذا؟

في عيني الراهبة بريق يجسد ما يشبه اليأس... أدارت وجهها وكأنها تجهش بالبكاء، فوضعت الأخت لوز كفها على كتفها.

تتمرت الراهبة بنفور وتصلبت قسمات وجهها صارخة:

- لا تلمسيني أبداً!

كان ظهرها إلى الحائط، ويداها مفتوحتان للدفاع عن نفسها ... كان صوتها أشبه بصوت حيوان جريح يرفض أن يعالج !

- ولكن... ماذا فعلت لكم..؟

- لسنا نحن.. لست أنا! لا يجوز لأحد هنا أن يكلمك أو ينظر إليك أو يلمسك.. هذه هي الأوامر.. هل تفهمين..؟

الأوامر! وفي انسحابها باتجاه الباب أضافت: - غداً صباحاً يأتي من يدلّك أين تغتسلين.

- لا نقول إنها تركت المكان..؟ لا بل هربت!

مع امتزاج النور والظلام في الغرفة راحت الاخت (لوز ديل امور هرموزو) تخلع ما عليها من ثياب: كل ما عليها من الألبسة كان لأشخاص آخرين: حذاء (الفولف) العتيق بنعليه (الكريب) كان (لجيني ريس) صاحبة فندق (مايفر) في (فيكتوريا هيلس)

... الأخت لوز رأتها ميتة، قطع رأسها بضربة منجل في البليار الكبير لصالة اللعب: ميخائيل، زوج (جيني) نفسه رأى الأخت لوز تمشي حافية فانتزع الحذاء من رجلي جثة زوجته وقدمه لها.

وفستان (التويد)، عديم الشكل واللون، لقد لبسته سنوات عديدة (أليسيه كامبل) المزارعة الايكوسية التي كانت تمون دنكلي بالبيض والجبن، والتي ماتت هي أيضاً داخل أرض مزرعتها مذبوحة من قبل نفس الذين كانوا ينادونها وهم يبتسمون:

- (ما... أم.. بوس) - أما جورب القطن الرمادي فكان للأم (أوغستا) مديرة المشفى الألماني في (موالانغا)... لقد أعطته للأخت لوز مؤكدة انه آخر جورب بقي لديها منذ انقطعت عن لبس الجوارب قبل عشرين عاماً... أما ربطة العنق وكيلوت الساتين الأسود (لم تملك شجاعة رفض لبسهما لعدم وجود البديل)، فقد كانا لفلوكوريو مضيفة طائرة أيرفرانس الشقراء التي شاء حظها أن تموت برصاصة طائشة بعد عدة دقائق من دخول مكتب شركة الطيران الفرنسية ونهبها وحرقها من قبل رجال (غانكا اليها).

كل هذه المدخرات الأفريقية جمعتها الأخت لوز في (باقة) ووضعتها غلى الأرض عند قائمة سريرها ثم نامت!

كانت عارية فوق غطاء السرير الصوفي الخشن... ظلت طويلاً مفتوحة العينين ترهف السمع - عبر حدائق الدير - لليل روما.. وبعد عدة محاولات نجحت في الغرق بنوم قلق مضطرب لم يطل: خيل إليها انها سقطت... فاستفاقت مبللة بالعرق، يابسة الحلق، وقلبها يضج بدقات عالية متسارعة، ودون أن تدري نقلت يديها إلى بطنها... ماذا هنا؟

أهي في حلم؟ - لا إنه الواقع... الواقع المشهود: لا شيء ولا أحد بعد اليوم يستطيع أن يمنعها من أن تعيش هذا الواقع وتحياه.. واقع أنها أصبحت امرأة!

وطافت الصور في ذاكرتها... وأمام عينها:

- (يجب أن لا يراك احد) كلا ولا أن يتكلم معك أو يلمسك...

أناس من مقام عال قرروا ذلك... يا للأهمية!.. وبعد أن اطمأنت إلى سلامة هذه (الحياة) التي تحملها في أحشائها. شعرت بالحاجة إلى الصلاة.. لكن الصلاة كانت (ميتة) على شفتيها، تماماً كما ماتت في إفريقية عندما عرفت - لأول مرة - أن الصلاة ليست سوى صرخة يأس لا غنى عنها.. فاجأها الفجر ساهرة: بعيدة جداً ثم قريبة.. قريبة جداً.... أجراس روما كانت تعلن أنّ الصبح يلي الليل ومن جديد بدا فرع شجرة الكرز بانعطافته الحانية التي يلفها ضباب الصباح.

وفي السادسة فتح باب الدهليز، وبهدوء وضع في الغرفة إبريق ماء وطشت ومنشفة.

نهضت الأخت لوز فرتبت سريرها، وسوت هندامها، وارتدت الثياب المحملة بذكريات افريقية وجلست تنتظر...

في السابعة تماماً، دخلت الغرفة راهبة صغيرة، ودون أن تحرك شفتيها، أشارت إلى الأخت لوز أن تتبعها... ومرة أخرى قطعت الدير

ومرت أمام باب الهيكل نصف المفتوح... تناهت إليها اصوات تغني على إيقاع موسيقى أرغن، فذهبت الأخت لوز بذاكرتها بعيداً: تذكرت وجه (مادر انتونيودي لويس انجلس) التي كانت قديماً (في عالم الناس) وكانت عازفة بيانو مشهورة.

كانت الأصوات شابة، غريبة... تعرفت فقط على الترتيلة لمادر (سيرا) التي كان يطلب إنشادها بعد قداس كل أحد في الدير.

حتى في الحديقة كان ثمة جو سويدائي يهيمن: عامل الحديقة سيسيليان أدار لهما ظهره لدى مرورهما، ثم.. (دزينة) من الراهبات اللواتي كن يتنزهن ويرددن بعض الصلوات، جمدن فجأة، كل في مكانها ووجهها باتجاه الجدار... وبعد بضعة امتار، هاجمها جرو حليق الشعر، حول عينيه هالة شقراء، وراح ينبح بضراوة في أعقابهما، وكانت (صرعة) وضع حداً لها صوت انتهر الكلب الذي ابتعد مرغماً..

توقفت الراهبة الصغيرة أمام باب مدهون بالأخضر الغامق، وبلطف قرعت مرتين بطرف إصبعها، ودون انتظار الجواب، غابت عن الأنظار مجانبة الالتقاء بنظرات رفيقتها!



مكتب (مادر ماريا) كان أكبر قليلاً من الحجرة التي قضت الأخت لوز فيها ليلتها: الجدران المبيضة بالكلس نفسها.. نفس النوافذ العالية التي يتسرب منها نور النهار... أثاث متواضع في منتهى البساطة، باستثناء مكان الصلاة ذي الاثاث القديم والسجادة الدمشقية الحمراء، ثم الطاولة العادية من الخشب الأسود، التي تجلس وراءها رئيسة دير (سانتو ستيفانو)، والمقعد الأسود الثقيل المخصص للزوار، ثم الصليب الأسود أيضاً، والمعلق بين سراجين، ذراعهما لولبيان.

كانت مادر ماريا مغمضة العينين، تهز رأسها قليلاً، ويداها متراخيتان على الطرف المدبب لعكازها المثبت بين ركبيتها. وقفت الأخت لوز برهة على بعد خطوات من الطاولة السوداء ثم... أرسلت أحّة مسموعة في راحة كفها، تنبهت لها السيدة المسنة متظاهرة بالمفاجأة:

- أه... جئت ... صباح الخير!

على الطاولة وضع ملف كبير أصفر كتب عليه اسم ما بالخط الأحمر، تعمدت مادر ماريا أن تضع يدها فوقه:

- هذه هي إضبارتك... إنها (رقيقة)، هذا أقل ما يمكن أن يقال فيها...

وحدقت برهة في عيني الأخت لوز ثم استطردت:

- كلما كانت الإضبارة (رقيقة) كلما زاد تقديري لصاحبتها...

كانت التجاعيد تكسو وجه الرئيسة كالبرقع:

- اجلسي هناك...

أخذت الأخت لوز مكانها على المقعد: منذ فقدت ثوب الراهبة أصبحت لا تعلم كيف تجلس وأين تذهب بساقيها وقدميها..

- ذهبت من هنا، قبل ثلاث سنوات، وصادف ذلك يوم وصولي إلى هنا ولذلك لا أعرفك ... وتابعت:

- هل أخذتترويقتك؟

- لم تتمالك الأخت لوز نفسها وعقبت بحدة:

- لم يكلمني أحد منذ البارحة مساء.

لم يظهر على مادر ماريا أثر الحدة الظاهرة في الجواب وقالت:

- قهوة؟

- إذا أردت يا أمي.

دقت الرئيسة الجرس وطلبت:

- أخت لوتيسيا.. هات لي قدحي قهوة وكوبين من الماء.

واستدارت السيدة المسنة... أمسكت الإضبارة الكبيرة وأخذت منها بعض أوراق كتبت عليها ملاحظات بقلم الرصاص وبعد أن تفحصتها قليلاً قالت وكأنها تتابع ما انقطع من حديثها السابق:

- لم يكلمك أحد منذ وصولك إلى (سانتو ستيفانو) لأنني أصدرت الأوامر بذلك.. إن التخاطب هنا - كما هو في أي مكان آخر - يعني طرح الأسئلة، وقد قدرت أن كثيراً من الأسئلة ستجرح شعورك وتسبب لك اضطراباً..

كانت تجربة الحياة في افريقية قد أفقدت الأخت لوز عادة إفساح المجال للغير أن يفرض رعايته عليها:

- لا أحد ينظر إلي... حتى النظر.

تابعت الرئيسة فحص الأوراق ثم:

- أرى أن أوامري قد طبقت بحرفيتها المطلقة، النظر إليك؟! حتى هذا نعم! لأنه لا يمكن أن يبعث لدى البعض شعوراً بالشفقة، وقد قصدت إنقاذك من هذا النوع من الإذلال.. قالت ذلك بود وابتسامة ظاهرة الاشمئزاز.

- ليس عندي شيء أخفيه يا أمي.

كتمت الرئيسة دهشتها وقالت: أنا التي تقرر إذا كان لديك شيء تخفينه أم لا! وأعقبت كلامها بنظرة حادة فاحصة، تناولت بها الأخت لوز من قدميها حتى رأسها.. وتابعت:

- هذه الأسمال البالية التي ترتدين، تبدو مضحكة، سنبدلها فوراً، وإن كانت أكثر ملائمة لك الأن من ثياب الرهبانية.

- أنا دائمة راهبة.

ساد صمت ثقيل.. وتردد.. ثم قالت الرئيسة: بل راهبة في حالة استثنائية فتقلصت عضلات الأخت لوز إزاء اللعب بالألفاظ على هذا الشكل الظالم المبتذل، والتهبت وجنتاها كأنها تلقت صفعة.

- حالة... - استطردت الرئيسة - ستناقش في المراجع العليا...

قرع الباب، ودخلت راهبة تحمل صينية، وضعتها برفق على زاوية الطاولة السوداء.

- شكراً يا أخت لوتسيا.. لا تدعي احداً يدخل إلى هنا وسأدعوك لإعطائي الاتصالات التلفونية الخارجية..

مرة أخرى أصبحتا وحدهما، وجهاً لوجه، وشرحت الرئيسة أقوالها: - لست الوحيدة التي تعرضت لمثل ما أصابك في (دنكلي)... خلال عشرين السنة الأخيرة، عدة مئات من الراهبات

من جميع الرتب مررن بهذا النوع من الامتحان... في افريقية.. في آسية وكذلك في أوربة، خصوصاً أثناء الحرب ... والمشاكل التي واجهتها السلطات الاكليريكية على الصعيد العالمي، كانت من الأهمية والخطورة بحيث وضعت لها الحلول الاستثنائية من قبل المراجع ذات الصلاحية والاختصاص: مطارنة وأطباء وقضاة من ذوي المؤهلات والاختصاصات العليا...

سكبت الرئيسة القهوة في القدحين: - واحدة أو اثنتان سكر؟

- واحدة، يا أمي، شكراً.

- أنت راهبة، هذا صحيح، وستكونين راهبة دائماً ولكن افهمي جيداً كلامي إذا أردت: لست اليوم ولن تكوني اطلاقاً، الراهبة التي كنتها يوم جئت إلى هنا، إلى (سانتو ستيفانو) لأول مرة، وأقول لك بشكل مطلق وعام أن علاج هذه الحالة يتطلب قرارات مبرمة يجب أن تصدر...

- من قبل من يا أمي؟

- من قبل السلطات ذات الصلاحية.. ومن قبلي أنا ثم من قبلك انت بطبيعة الحال...

- أية قرارات تقصدين يا أمي؟

رفعت السيدة العجوز يدها: - مهلاً يا بنتي، مهلا، كل شيء يأتي في وقته... واعلمي جيداً أن الوقت في روما لا يفوتنا.. ودفعت أحد قدحي القهوة إلى الأخت لوز:

- اشربي.. هذا جيد بالنسبة لك.

وشربتا بصمت، وكل منهما تسترق النظر لمراقبة الأخرى.

وقالت مادر ماريا: - اسمك؟

- الأخت لوزديل امورهر موزو.

- اسمك الحقيقي. أطلب

- (ماريا دي لاس مرسيدس فونسيكا دي مونتيسينوس).

وضعت مادر ماريا على شفتيها قلم الرصاص الفضي الذي تستعمله:

- مونتيسينوس؟ - عرفت منذ زمن بعيد اناساً يحملون هذا اللقب.. إنهم أندلسيون.

- أمي ولدت في غرناطة وأنا أيضاً وكذلك إخوتي وأخواتي..

اتكأت مادر ماريا على مرفقيها فوق الطاولة السوداء:

- كنت أشك في ذلك، لأن لهجتكم في غرناطة أكثر لطفاً وطراوة من لهجة أبناء (سيفيل) و (كور). إنني اجرؤ وأسميها (لهجة بوهيمية).

أجابت الأخت فوراً بالموافقة على نظرات الاستفسار المفاجئة المسلطة عليها من السيدة العجوز...

- هكذا؟... أنت إذن من غرناطة.. هل تعرفين قصيدة (لوركا) التي قال فيها:

- (سيفيلا بارا هيرير).

(كورتويا بارا مودير).

أنا أضيف إليها من عندي المقطع التالي:

(أي غرناطة دا بار فيفير).

وارسلت هذه المرة ابتسامة عريضة كشفت عن أنيابها الطويلة الصفراء بحكم العمر، وأضافت:

- مع اللحن الموسيقي يكون هذا الشعر أجمل وأعمق وقعاً لا شك... ولكن الحقيقة تمشي نادراً خطواتها الموزونة الموقعة

قالت ذلك رافعة الرأس شاردة النظرات وكأنها تتذكر:

- عرفت غرناطة جيداً، قديماً، كان أخي موسيقياً وكان يصطحبني معه إلى (دو ن مانوييل دي فالا) في (كارمن آف ماريا)..

- (كال انتكيرييلا التا) حددت الأخت لوز بدقة.

- أشرق وجه العجوز.

- أكثر الأحيان كنت أرافق أمي إلى (كارمن آف ماريا).

كانت صديقة حميمة (لازابيل دي فالا) كان ذلك تماماً قبل الحرب الأهلية.. كان عمري اثني عشر عاماً..

رغم بعد الشقة.. كانت تحتفظ بالذكرى بكل دقائقها لأنها أكثر من ذكرى: كانت احساساً.. طمأنينة عميقة... ذلك الصفاء الذي كان يسود (كارمن) حتى عندما كانت الصالة تغص بالأصدقاء والزوار... من ينسى ما كان يحيط بسطح الصالة من جميع أنواع النباتات والزهور تمتد حتى الأفق البعيد ناشرة حتى اللانهاية أريج البرتقال والياسمين.

- (دون ما نويل دي فالا) كان رجلاً غلب عليه الحياء فبدا قاسياً، قصير القامة، نحيلاً - نحو اللطف لا الجفاء - طويل الوجه، ضاحك

النظرات، مرهف الشفتين، أنيق اللباس دائماً، كامل الهندام دائماً: ربطة عنق وصدرية وسلسلة ساعة جيبه الكبيرة... كان له مع الأطفال صداقة وثيقة العرى، يعاملهم كأصدقاء كبار، بالغين، وشعراء، أحياناً ولأنه كان يتّهم الشعراء بحب الحلويات، فقد كانت جيوبه ملأى دائماً بالحلوى، يوزعها بكرم زائد قبل تجاذب أي حديث..

- لأول مرة رأيت فيها (دون مانويل)، كان جالساً إلى البيانو يقدم لأصدقائه الموجودين أحد ألحان (كوبيران) الخالدة..

قالت الأخت لوز ذلك وهي حريصة على أن تقص على مادر ماريا مايلي:

- عندما انتهى دون مانويل من أداء لحنه سأل البنت الصغيرة الخجولة:

- هل تحبين الموسيقى أنت؟

بإيماءة من رأسها قالت الصغيرة نعم ويدها ترتجف في يد أمها فابتسم (فالا) وأضاف:

- معك حق... بعد الله لا يوجد حقيقة سوى الموسيقى..

كتبت ماريا بخط قلمها بعض الملاحظات وسألت: قلنا، إذن، إن أمك من آل مونتسينوس؟

- كانت ومازالت...

- حفظها الله لنا عمراً مديداً.. إنها بدون مهنة طبعاً؟..

- بدون مهنة. لكن قبل أن تتزوج...

- لا تهمنا مرحلة ما قبل الزواج... كثيرات من النساء لديهن، قبل الزواج، قناعة لا تقاوم أنه لا بد من اضطلاعهن بعمل ما... أي عمل ... لكن الحكم على قدرهن الحقيقي يأتي بعد الزواج.. لك إخوة، أعتقد؟

- اثنان يا أمي.
- وأخوات؟
- ثلاث.
- ألا ترين... ست أولاد هذا هو قدر أمك الحقيقي... وتابعت أسئلتها: - ما هو اسمها؟
- ماريا كريستسنا اولالياباز.
- تاريخ ولادتها؟
- ٣ كانون الثاني ١٨٩٥.
- تاريخ زواجها؟
- ٢ آذار ١٩١٥، وقبل ذلك التاريخ كانت أمي (ماريا كريستينا مونتيسسينوس) أستاذة رسم، ولا تعطي سوى الدروس البيتية: لخالاتها.. بنات عمها.. صديقاتها المقربات..الخ.. وعندما كانت ترسيم لنفسها كانت تخرج على ذوق عصرها، مستجيبة بشيء من الفزع والتردد لخيالها المتحرر. كانت تترسم خطى الرسام الفرنسي (دومينيك آنفر) وتحتفظ بإنتاجها في محفظة سوداء يعلوها الغبار فوق خزانة بمرآتين في غرفة نومها... (السنيوريتا مونتسينوس) كانت صبية كتومة، لطيفة، منطوية على ذاتها، والرجل الأول الذي عرفته كان (فونسيكا).. وكان أيضاً الرجل الأخير...
- فونسيكا...فونسيكا... هذا الاسم ليس أندلسياً..
عقبت مادر ماريا:
- لا ... أبي كاستيلياني...
- ولد في مدريد؟
- لا.. يا أمي، بل في (تولاو) عام ١٨٩٠، في العاشر من تموز بالتحديد.. سجلت مادر ماريا التاريخ بعناية ملحوظة، وتابعت:

- مهنته؟
- كان أبي عسكرياً...
- تاريخ وفاته؟
- إنه ما زال حياً يا أمي، وقلت أنه كان عسكرياً لأنه أحيل على التقاعد بعد الحرب بعدة سنوات... برتبة كولونيل، سلاح مشاة.

بدت على العجوز علامات خيبة الأمل. ففي شبابها، كان العسكريون الذين كانوا يعاشرون صبايا وسطها الاجتماعي جميعاً ضباطاً من سلاح الفرسان... ومع ذلك كانت تردد اسم (فونسيكا)، كأنها تبحث عن هذا الاسم في زوايا ذاكرتها...

وارتسمت حول عينيها الصغيرتين السوادوين تجاعيد مزمومة وهي تجهد لفكرها.. الحرب الأهلية ليست بعيدة واسم (فونسيكا) يقترن في ذاكرتها بحدث ذي شأن، ولكن أي حدث؟

وتدخلت الأخت لوز لتسهل عليها الأمر:

- أبي دافع طيلة ٩٠يوماً - ومعه بضعة رجال ظلوا أحياء - عن الحرم المقدس (سان جيرونيمو اوردونا) في منطقة مناجم (استوريا) في البيرينيه.

- نعم هذا، بالضبط.

وتذكرت العجوز أنها طالعت مراراً في صحف بلدها لتلك المرحلة صورة (البطل) التي أخذت له يوم (تحرير) ذلك الحصن من قبل قوات الجنرال (أراندا): كان فارع الطول، عيناه صافيتان، يتوسط جنودا وعناصر من الحرس المدني غابت وجوههم وراء لحاهم المرسلة الكثة.. كان الوحيد الذي بدا شديد العناية بذقنه المحلوقة لتوها.. هنا توضحت الصورة لمادر ماريا، لكأن فونسيكا أمامها.. لقد كانت بزته الرسمية كاملة، لا تدع مجالا للملاحظة قط، رغم كونه في الميدان.. كان

يضع خوذته تحت إبطه بلا مبالاة، وفي يديه قفازان أبيضان.. واستطردت العجوز:

- أن لم تخني الذاكرة، أعتقد أنه نال على مأثرته تلك وسام (لوراد اسان فرناندو)؟

- هذا صحيح يا أمي.

قالت مادر ماريا :

- إنه رجل، فونسيكا هذا.

لم تجب الأخت لوز بشيء...

- ما هو مصيره الآن؟

ترددت الأخت لوز لحظة..

يعتني بأملاك ورثتها أمي عن جدي في (لوز فيليز) في ضاحية غرناطة.. وهناك ولدت أنا.

_ ما هو عمرك بالضبط؟

_ أتممت الثلاثين منذ شهرين يا أمي.

تبدلت نظرة الرئيسة إلى الأخت لوز: رمقتها بعين الاهتمام وعلى طريقة تاجر الخيل، اكتشفت دفعة واحدة كل محاسنها:

وجهها الجميل رغم القبعة المضحكة التي جعلتها أكبر من عمرها عشر سنوات.. عيناها العسليتان الجميلتان، وقد امتزجت فيهما ألوان الرماد والفضة المائعة والوميض الأخضر الزرقاوي عندما تثور ثائرتهما.. لقد خيل للرئيسة العجوز، أن مجرد ذكر اسم (فونسيكا) أعاد لأنف الأخت لوز شكله المستقيم الجميل الكلاسيكي الشامخ.. كما أن ابتسامتها المناسبة أظهرت محاسن ومزايا فمها الدقيق المليء بالرغاب، والعازف عنها حسب ظروف الزمان والمكان.....

- انزعي هذه القبعة

- يا أمي، لي زمن طويل لم تسمح لي ظروفي بقص شعري وتسويته..

- هذا لا يهم، انزعيها

تحرر شعرها الأشهب، فانتشر غزيرا رائعاً حتى كتفيها.. مما وضح مزايا جسدها أكثر: عنقها الدقيق المستدير.. صدرها العادي التكوين، المنسجم والكامل التقاسيم.. ساقاها الطويلتان المشوقان.. ثم يداها: مادر ماريا تعطي أهمية كبرى لليدين عندما تتفحص شخصا مجهولا، لتحكم عليه.. وبفضل اليدين، لم يخطئ حكمها قط، بالنسبة لبعض المزايا وبعض النقائص والعيوب أيضاً.. يدا الأخت ((الأخت لوز ديل أمور هرموز)) المبسوطتان على ركبتيها، تجلت فيهما القوة الواثقة المطمئنة وكأنهما يدا رجل خالد إلى الراحة، لا يشتغل بهما قط، يعمل في ميادين نظرية بحتة، يدان قد تكونان صالحتين، بل ماهرتين، في الملاطفة.. والمداعبة؟

_حدثيني بعد عن أبيك؟

طافت غمامة على العينين العسليتين:

_هل هذا ضروري حقاً..؟

_اسمعيني جيداً.. بعد ساعة.. ساعتين.. ربما أكثر.. علي أن أتخذ قرارات خطيرة تجاهك.. ولا أستطيع هذا _ بل لا أريده _ دون معرفة مسبقة للكثير من دقائق وتفاصيل حياتك.. أقول هذا لتعلمي أن اهتمامي ليس مجرد فضول، وليس من قبيل ذلك الميل إلى الثرثرة الفارغة المعروفة عن العجائز المسنات.. حتى هذا الصباح بالضبط كنت (مجهولة) بالنسبة لي.. وعندما تخرجين، بعد قليل، من هذا المكتب، يجب أنْ أكون قد عرفت حق المعرفة _ من كانت تلك الطفلة،

ثم الشابة، التي أصبحت يوماً (الأخت لوز ديل أمور هرموزو) ذلك لأن مصيرك ومستقبلك متعلقان بماضيك إلى أبعد حد..

وانحنت الأخت لوز: حسناً يا أمي سامحيني إذن..

_ليس عندي أي مأخذ يستحق المسامحة، وأنا أعلم كم هو صعب أن يتحدث الإنسان عن الذين يحبهم، خصوصاً عندما يتولد عنده الاعتقاد بأنه يكرههم..

_لماذا.. لماذا تقولين هذا؟

سنأخذ قليلاً من القهوة..

وأثناء قيامها بسكب القهوة في القدحين الفارغين استطردت مادر ماريا تقول: _فونسيكا لم يكن دائماً والدا سهلاً أليس كذلك؟

لم تكن تطرح سؤالاً، لأنها لم تنتظر الجواب، بل أرسلت يدها داخل درج مكتبها، ووضعت أمام الأخت لوز علبة سجائر (شيستر فيلدا).

_خذي دخني

كان ذلك ممنوعاً البتة، بموجب أنظمة الجمعية وقوانينها، فانتفضت الأخت لوز: _لكن.. يا أمي..

فرغ صبر مادر ماريا: _ هل تحسبينني عمياء.. وإصبعان من يدك اليمنى صفراوان من تبغ السيجارة. ثم استطردت بصوت مزيج من المزاح والمداعبة: _لا أحد يستطيع أن يطلب إليك نسيان إفريقيا في ٢٤ ساعة..

وكأن هنا ندمت على التطرف بكلامها إلى هذا الحد، فعقبت:

_أرجو أن تسامحيني على ما قلت..

كان لهذا الموقف أثر بالغ على الأخت لوز، التي لزمت الصمت وامتقع لون وجهها، فاستعملت مادر ماريا سلطتها للخروج من المأزق:

_الطقس حار.. لا تتمادي في إزعاجي.. هيا دخني..
وقدمت للأخت لوز شعلة من ولاعة سحبتها من أعماق تلافيف ثوبها.
فجاوبت ساعات كنائس روما معلنة تمام الثامنة صباحاً..
_إذن.. صاحبنا (فونسيكا) هذا.. هل كان جميلاً؟
_لم يكن له شكل الإسباني، كان ضخماً.. تزداد ضخامته كلما تقدم به السن.. والده كان تاجر خيول فتزوج من إنكليزية في (إيبسوم)، وتدعى (سانتيا نيشولسون)، وما زال رسمها الكبير يحتل الصدارة في صالة استقبال (لوفيلز).. ورث (أنتونيو فونسيكا) عن أمه عينين شديدتي الزرقة وشعراً أشقر نادر المثيل، وجلداً أبيض منمش.. وتقف عند هذه الحدود مؤثرات الوراثة الانكلو - ساكسونية: كانت مشاعره لاتينية، اكتشف في نفسه الميل إلى العنف وحب الظهور والدخول الطوعي في المشاحنات.. كان يعامل النساء كأنه يروض خيوله، وبقسوة مخادعة تخفي وراءها استعداداً للتنازلات لا حد له.. كان (حصاناً) يخضع لكل الأوامر إذا ما تحرك المهماز، ويجمح، عندما يجمح، استثناء.
لقد اختار (مهنة السلاح) لأنه لا يرتاح إلى جو آخر خارج (بورصة الرجال).. الرجال (اللامعين) المصقولين من الخارج، الذين يعكسون نور سواهم، وذوقهم يتقبل ذلك... وفي عهده، كان للبزة الرسمية قيمتها واعتبارها الكاملان، وما هو أهم من ذلك أن الجيش كان يكافئ حاملها بكل صنوف الإغراءات، متجاوزاً جميع المقاييس.
هكذا وقعت (ماريا مونتيسينزس) في (الشرك) وبالسهولة التي يمهد لها الرجال الإسبان القادرون أن يقسموا الإيمان، كل الإيمان وهم يحدقون في عيون النساء..

خضع الزوجان لتقلبات ظروف (الخدمة) : في فرق (الحماية).. في إفريقية.. في (سان تلندر) وأخيراً في (مدريد) بوزارة الحرب.

ولم يطل الوقت بماريا فونسيكا حتى فهمت أن زوجها (مشغول القلب كثيراً) بنفسه.. هو في شاغل عن الحب، حتى بأبسط معانيه، وشكلياته.. لقد كانت الزوجة المخدوعة.. المتروكة (لشؤونها الحيوية).. حتى صفة (الصديقة الأمينة) التي تميزت بها، تحولت خلال سنين معدودة، إلى (المسكينة ماريا !) المتطرفة في تقواها، المنسية والمقهورة وفي ذلك المناخ النفسي أنجبت الزوجة لزوجها أولاداً: صبيان: بيدرو و لويس وثلاث بنات : (ماريا ديل كارمن) و (ماريا ديلازونسيون) و (ماريا دي لاس ميرسيدس).. وقد كانت تلك الزيادة في عدد البنات تغيظ (فونسيكا) لفرط احتقاره لهذا الجنس: زوجة وبنات على السواء

كان طبيعياً أن يخص ابنه البكر بحبه الفائق والأعمى، ذلك الابن الذي كان ضخماً، أشقر، جميلاً، كأبيه. لقد كان مهيأ ليصبح عسكرياً مثل والده أيضاً..

أما لويس، الصغير بقامته القصيرة وجلده الأسمر مثل أمه، وميله الكلي للدراسة والقراءة.. فقد (خيب أمل والده) به منذ ولد.. وافترضت لمستقبله أسوأ الاحتمالات: أن يصير (خوريا) !

سألت مادر ماريا بلطف:

_ماذا أصبح أخواك؟

_ (بيدرو) مات في (تولاد) خلال حصار (الكازار).. وبنبرة لا هوية لها أضافت:

_لو ترك له الخيار لما سار إلا في الطريق التي يميل إليها في أعماقه.. مهنة الطب.. لكنه أطاع رغبة والده وإرادته، تلك الإرادة التي تسببت بقتله! لقد ذهب ضحية تلك الفضيلة المتعارف عليها، والتي

يطلق عليها (الطاعة). فضيلة مسيحية سامية يتولد أحياناً، نتيجة الالتزام بها، ضعف حتى الجبن واحترام متطرف، دون حدود، للأمر الملقى من بعض الناس.

أما لويس فقد أصبح (يسوعياً) هنا في روما.

أغمضت السيدة المسنة أهدابها لتستوعب جيداً تصورها للمفاجأة غير المرتقبة - الأخت لوز ديل أمور هرموزو هي، إذن، أخت (الأب فونسيكا) هذا البيولوجي المرموق المشهور المقرب جداً من حواشي الفاتيكان؟

_منذ عشر سنوات لم أعد أرى (لويس).

_أستطيع بسهولة معالجة هذا الأمر.

ودهشت السيدة للجواب:_ لا أرى ضرورة لذلك يا أمي لم تبد السيدة إصراراً، فقد كانت تواقة للاستمرار في سماع باقي أقوال الأخت لوز:

_موت بيدور قصم ظهر (فونسيكا) _ و (لويس)، اليسوعي، نجا من الموت بأعجوبة يوم أضرمت إحدى العصابات النار في الدير الذي كان يقيم فيه.. إلا أن نجاة لويس لم تكن العزاء الذي يطلبه الأب المفجوع: إن فونسيكا يعتبر نجاة رجل الدين المبتدئ (ظلماً سماوياً مشهوداً).

وبعد الحرب، استقال فونسيكا من الجيش، وأقام قرب غرناطة مع زوجته وبناته الثلاث. في (لوس فيليز) في مسكن تتبعه أملاك مساحتها مئتا هكتار، وضعها حموه تحت تصرفهما إلى مالا نهاية.

لقد عاش فونسيكا هناك حياة البطالة الدائمة، فانصرف إلى الشرب والأكل المفرطين، فازداد جسمه ضخامة ووزنا، (وتكدرت) عيناه الزرقاوان، فبدا دون رقبة.. متهدل الجسم كالخنزير.. يلعب الورق

سحابة يومه ولا يستيقظ من نومه قبل الظهيرة.. _يبدو لي أن أباك ليس رجلاً كبير الشأن ومع ذلك..(فونسيكا) كان إسبانياً من زمن بعيد.. ووسط معين.. وطبقة معينة.. كان مكروباً في غلواء ثقافة مثالية، ليس الشرف في نظره خرافة باطلة، بل هو حقيقة محسوسة وملزمة، ولكنه أساء استعمال هذه القيمة.. وضعها في غير مكانها بالدقة، حيث يعتقد أن الثيران تستمد شجاعتها من الينبوع..

ولما أشرف على شفير هاوية الإفلاس المالي انعكس ذلك على حياة أسرته التي لم تكن من العامة، بل كانت وثيقة الجذور بطبقة النبلاء.. كان (فونسيكا) يحمل على صدره الأيسر ميدالية فارس البلاتينية المزخرفة بالتاج ومخالب النسور والسيوف وأصداف (سان.. جاك). وفي سجلات الفنادق كان يسجل اسمه عندما يسافر وحده إلى المدن البعيدة_هكذا: (الدون أنطونيو دي فونسيكا أي فالكارسل دي كيجانو).. تلك ألقاب اعتبرت مستحقة في زمن ما.. ولكنها سقطت بفعل إهمال العائلة لها منذ طارت آخر بقايا ثروة مستحدثة من مورد استعماري.. وإذا كان فونسيكا_ في تنقلاته تلك) لا يجرؤ على تزيين نفسه بألقاب أكبر وأكثر شبهة، فذلك فقط لأن مثل هذه الممارسات، في إسبانيا لا تدعو إلى الابتسام أو التفاخر مادامت في النطاق المذكور..

أرسلت مادر ماريا نفسا طويلاً عبر عن مبالغة في اهتمامها:

يظهر لي أن الرجل لم يكن على جانب كبير من الذكاء. كانت محقة في استنتاجها.. كان الرجل _على العكس - يابس الرأس كما هو دائماً، حال المتعصبين.

_متعصب...

أرسلت مادر نفساً جديداً:

_عندي نقطة ضعف بالنسبة لهذه العبارة.. وما كان ذلك لأنني (امرأة كنيسة) وللتعصب، بالنسبة لي، شيء من رائحة القداسة.. لقد عرفت خلال حياتي الطويلة مختلف (نماذج)

الرجال: عسكريون.. زاهدون.. رجال حاشية.. مشايعو فكر.. كائنات واجهات.. خطرون.. وتافهون أخيراً.. ولكن قولي لي، بالتحديد، من أي هؤلاء كان أبوك؟

سكتت الأخت لوزديل أمور هرموزو لحظة استجمعت فيها أفكارها:

_مازلت أرى والدي بعيني الطفلة التي كنتها تلك الحقبة..

_النساء لسن إطلاقاً أطفالاً حقيقيين.. إنهن أشد قسوة..

_مع ذلك، وبصدق، أعتقد أنني كنت أحبه..

_قلبك يحب أباك وفكرك يحتقره.. أو ليس هذا برهاناً على القسوة؟

ذاقت مادر ماريا القهوة، فوجدتها باردة.. قرعت الجرس وأمرت بإحضار قهوة حارّة جداً وسجائر.. ثم التفتت نحو محدثتها:

_قلت لي أن أباك كان متعصباً، ما قصدك بالتحديد؟ لأن الحقبة التي تتحدثين عنها حولت كل سكان إسبانيا إلى متعصبين علماً أن تلك طبيعة إسبانيا الدائمة...

_قد يكون من الأسهل أن ينسب إلى فونسيكا (طابع الأصالة) العريق المتوارث عن السلف.. ومع ذلك، يظل رسم صورة حية ومقنعة ومتميزة للرجل، أمراً في غاية الصعوبة.. لابد إذن من التوغل في أدق التفاصيل، وسبر الأغوار البعيدة وتبديد الظلام الذي يكتنفها.. إن أبي ليس رجلاً واسع التفكير والمدارك ولكنه كان يحفظ جيداً الأفكار والمدارك التي حصلها.

رفعت السيدة المسنة رأسها الحالم:

_يسمون هذا (وساوس)، وبلغة السياسة يسمونه (مبادئ).

والقاعدة بالنسبة لهذا النوع من الرجال أن عيبهم الرئيسي هو (الخوف)، من اليمين كانوا أم من اليسار.. عرفت (حملة وساوس أو مبادئ) ذوي تربية وثقافة عاليتين، وعرفت منهم أيضا متأثرين تابعين، من أي من هؤلاء كان أبوك؟

_الوسواس الوحيد الذي ملأ رأس فونسيكا هو (الحمراء).. منذ وطئت قدماه أرض غرناطة أصبحت (الحمراء) كابوسا على صدره.. كل لياليه

_ولكن.. لماذا (الحمراء)؟

_الحمراء، بالعربية،تعني اللون الأحمر..

_وماذا بعد؟

_منذ سقطت غرناطة في أيدي (القوميين) كان الكابتن فونسيكا على رأس المطالبين بإجراء رسمي يؤدي لتغيير اسم (قصر وجامع الحمراء) المشهورين.. وفي نظره، كانت تلك مسألة مبدأ: _تصوري يا أمي... لأن اللون الأحمر أصبح مرفوضاً، انسحب ذلك على أثر تاريخي عمره عدة أجيال، ويصر فونسيكا وأصحابه على أن يطلق عليه اسم: (قصر البعث الوطني).. كان فونسيكا يصطحب حرسه الخاص ويجوب المدينة حاملاً دفتراً كبيراً ذا غلاف جلدي أسود ويجمع التواقيع.. ما أقل الذين كانوا يجرؤون على رفض التوقيع.. كان يخاطب الناس بنبرات عالية منمقة أميل إلى لهجة التهديد.. ورغم ذلك.. لم يعدم الناس الأعذار المختلفة للتملص من تثبيت تواقيعهم: كأن يدخلون معه في جدل لانهاية له حول شكليات التسمية ومضاعفات التغيير:

(الاسم المقترح، وقعه رائع ولكن أليس طويلاً؟.. هل فكر الكابتن بمختلف الإجراءات والتعقيدات الإدارية التي ترافق وتعقب مثل هذا الإجراء.. هل حسبت بدقة الأموال اللازمة لذلك أبان أزمة مالية خانقة خلقها المجهود الحربي.. هل فكر بجميع اللافتات التي يجب تغييرها داخل المدينة وعلى طول الطرق المؤدية إليها.. ببطاقات البريد الواجب إبطالها والتي يجب أن تطبع مجددا.. بالمعاجم التي يجب تصحيح التسمية فيها وبالتالي، هناك السياح.. سيتدفقون على غرناطة حالما تنتهي الحرب.. من سيعلمهم ويروض ألسنتهم على لفظ اسم (قصر...) صاحب النيافة (آكادو غي ماينتكون) مطران غرناطة، استقبل (الكابتن) خمس دقائق بين قداسين، وأكد له:_(ليس هناك واحد من مليون من جميع الإسبان يرى في التسمية العربية للأثر التاريخي ما يعيب ويستدعي الخجل، وبالتالي يتطلب مثل هذا التغيير المقترح).. وباختصار فشل مشروع فونسيكا فشلاً ذريعاً، فولد ذلك في أعماقه ضغينة على الأندلسيين وحذرا منهم رافقه دائماً:_ (الأندلسيون بلداء ودون انتماء.. يجبرون ذكرياتهم السوداء وضمائرهم مشدودة أبداً إلى ماضيهم البعيد..)

_وعند هذا المنحدر من التفكير، لم يتوقف.. بل توصل إلى اكتشاف جديد آخر: البرجوازية، في غرناطة لا تهزها الأحداث.. هؤلاء (السادة المخنثون) أميل إلى قضاء باقي أيامهم قابعين في ظلال جامع الحمراء، يزاول كل منهم حرفته ويعمل في تربية الخيول أو في زراعة البستنة، والبساتين تغطي نصف مساحة المقاطعة.. لقد ثبت بالدليل أن لاشيء يمكن أن يحركهم ويغير نمط حياتهم الاكتفائية، السهلة... إن (الحدة الوطنية) لدى فونسيكا كانت توقد في نظرات الكثيرين منهم مشاعر المكر والشر المبيت!

(الأحمر.. تقول؟.. نعم.نعم.. كدت أنسى ذلك..) ويتبادلون نظرات الازدراء واللامبالاة..

وحتى الرجال الذين كان فونسيكا يكن لهم الاحترام (وجهاء.. محامون.. الدكتور ماندوزا) حتى أولئك، قرعوا أنفه بضحكاتهم الساخرة، وهم في حرز حريز من أي عقاب.. أحسن أصدقائه القومندان قائد المشاة (فالدز) الذي صار الحاكم المدني لغرناطة قال له بمنتهى الخشونة:

_(لا وقت عندي لأضيعه في الترهات.. أتريد نصيحتي؟ أقصر اهتمامك على ما يعنيك مباشرة)؟

لقد خرج فونسيكا من مكتب الحاكم وهو يغلي، كان يتساءل بصوت مسموع عما إذا كان هذا (...) غارسيا لوركا قد أصاب كبد الحقيقة لما نعت أبناء الطبقة الخاصة الغرناطيين بالعمى والانحلال..

هذا الانحلال.هذه الميوعة في البورجوازية أخرجت فونسيكا عن طوره.. والذي أدهشه أكثر، حتى الذهول، هو أنه في إحدى لياليه الطويلة الساهرة في خمارات حي (البائسين) لاحظ أن جلساءه، حينما جلس، من قصاصي البنال وطراقي النحاس والمكارين والصيادين.. وبنات الهوى_على عكس أبناء الطبقة الخاصة_كانوا، جميعاً، يعيرون (موضوعه المقترح) كل اهتمامهم: لا استهزاء.. لا وشوشات.. لا ابتسامات ماكرة.. يطرحون الموضوع المقترح تماما كما طرحه صاحبه.. يسمعون دفاعه.. يقيمونه.. يناقشون ماله وما عليه.. وفي الساعة الثالثة صباحاً تلقى فونسيكا التوقيع الأول: كان من غجرية متوسطة العمر، قاتمة اللون تنعكس على صفحة وجهها أضواء قرط يزين أذنيها..

_ماذا يريد هذا السيد.. سألت (تيوغاجيرا) صاحب الحانة؟

_تغيير اسم الحمراء.

_أولي..! صاحت متأففة ثم.. وبصمت توقيعها على السجل الأسود الكبير: صليب غير متقن الرسم، وقالت لفونسيكا:

_تحت تكتب (بيريكا فارول).. هذا اسمي!

قبَّل فونسيكا يدها فقبلت هذا التكريم برصانة غير متكلفة..

واستمر الشرب.. وغنت الغجرية بصوت متكسر تحسبه آت من بعض العوالم، داخل جسم لا هوية له واستمرت تؤدي وصلات غنائية بعضها خاطئ وبعضها كنسي، حتى الفجر، وفي نظر المخمورين حولها كانت تتألق وكأنها أميرة عريقة الأصل!

وأخيراً صرفهم (تيو غاجيرا) عند السادسة صباحاً، فقادتهم خطاهم، بطبيعة الحال، نحو الكهف حيث تسكن (بيركا فارول) على سفح جبل (ساكرومونت).

أشاع مطلع الفجر الآسي في نفوس (البائسين) الضائعين في الشوارع المقفرة إلا من أسراب السنونو التي جاءت تؤذن الصبح، وهي تكاد تلامس الحصى الصقيل المفروش على الأرض..

واستعاد فونسيكا بعض تماسكه أمام باب فارول الذي كان قطعة نسيج هندي موشىً بأجسام لؤلؤية متداخلة الألوان.. وعلى ضوء النهار تأمل الغجرية بعين جديدة: كانت ضخمة، قوية، سمراء، جذابة، ناهدة، رحبة الأرداف.. ورغم أنها تجاوزت الأربعين فقد كانت لا تزال شهية كرغيف ريفي في يوم جوع!

_قل لي، لماذا تصر هكذا على تغيير اسم الحمراء؟

_لأن الآخرين لا يريدون..

_الآخرون.. من هم هؤلاء الآخرون!

وببلاهة، وضع إحدى رجليه فوق الأخرى وأجاب: الآخرون!

_لم تحاول انتزاع التفسيرات المطلوبة من هذا الرجل (المصدوم) الذي بدأ العرق يتصبب منه، بل أمسكت بيده:

_معك حق.. الآخرون لا يريدون إطلاقاً.. ورفعت طرف النسيج الهندي: _ هيا، أدخل!

_منذ عامين وبريكا فارول تحترف الغناء في الحانة وتصرف معظم المال الذي تكسب في تجميل داخل كهفها المحفور في سفح الجبل، والمؤلف من حجرات ثلاث مبيضة بالكلس، بلا شكل محدد.. لقد فرشتها بالسجاد المراكشي الرخيص الفاقع الألوان واختارت المكان اللائق لسريرها القائم على أعمدة، والمجلل بشال مانيلي، خبازي اللون، وقرب السرير جعلت مغطس الحمام من النحاس الأحمر، دون حنفية ماء.. ثم، هنا وهناك، في كل مكان، أوعية.. دلاء.. أزهار الياسمين والورود والقرنفل..

_بيتك جميل، رائع!

سرحت بريكا فارول نظرات راضية في المكان وأجابت:

_حصلت كل هذا بفضل صوتي.. وربتت على بطن الرجل ثم أضافت: وبفضل أستي أيضاً!

وانفجر فونسيكا في ضحكة صاخبة لامتناهية فرافقته بمثلها.. وهكذا صارا صديقين!

ظهيرة ذلك اليوم، استدعى حاكم غرناطة المدني الكابتن إلى مكتبه، وبدون مقدمات عرض عليه مهمة لا توكل عادة إلا للموثوقين جداً من بين حاشية الحاكم وعملائه._ أحتاج إلى (واحد كفء) يملأ مكاني.. رجل مثلك يافونسيكا.. رجل شديد القبضة..)

_إنها الحقيقة (فالدرز) كان يبحث عن معاون أبله يؤدي نيابة عنه المهام القذرة التي أصبحت ديدنه اليومي..!

_فيما يخص وضعك العسكري الحالي والمستقبلي، اطمئن تماماً.. فحالما توافق على اقتراحي، سألفت نظر الحاكم العسكري إلى هذا الموضوع ولا حاجة لأن أؤكد لك أن طلباتي واقتراحاتي مقضية.. لا ترد!

لم يكن فونسيكا بحاجة لأي رجاء كي يقبل هذه المهمة: لقد أصبحت، منذ الأمس، أبعد مطامحه في البقاء بغرناطة.. قريباً من (فارول)!

وفي أول غياب لفالدز، وبمناسبة إحدى العمليات العسكرية، ألقى فونسيكا خطابا أمام جمع من الغرناطيين المشوقين إلى سماع نائب الحاكم وهو يخطب في الجمهور لأول مرة. ونجح فونسيكا بإثارة موجة من الضحك والتندر وهو يؤكد في خطابه: _(في إسبانيا، كل ما لم يكن محرماً في الماضي، سيصبح إلزامياً منذ اليوم..).. هذا ما (طلع على لسانه) فكان أضحوكة الغرناطيين هذا الرجل الذي _ببضع كلمات فقط، ودون أن يدري _ حدد الفلسفة السياسية لنظام مازالت البلاد ترزح تحته..

وبعد أسابيع تحولت العلاقة بين الكابتن فونسيكا وبين بريكا فارول إلى علاقة رسمية.. وعرفت أمي كل التفاصيل فكان الخطب الجديد مدعاة لبكائها المتواصل طيلة حياتها..

وقرع باب المكتب قرعة لطيفة، فأمرت الرئيسة:

_أدخلي..

على أصابع قدميها، انسلت الأخت لويتسيا إلى داخل المكتب، وبإشارة من مادر ماريا، سكبت القهوة الحارة في القدحين:

_قولي لي: هل تستطيعين أن تأكلي شيئاً؟.. سمك مثلاً.. سلطة بزيت الزيتون.. مع حساء بارد في البداية..

_أجل يا أمي!

_أخت لوتيسيا، هيئي ذلك فوراً و هاته إلى هنا، ولا تنسي جرعة صغيرة من النبيذ الأحمر.. ليس من نبيذ (بارولو) الثقيل.. اطلبي من الوكيلة زجاجة من صنع (بوردو).

_طيب.. يا أمي.

_ماذا كنت تدخنين هناك في إفريقيا؟

_قليلاً مما يتيسر.. دون تحديد النوع.

_هل صحيح أن (الأب بروكر) هو الذي علمك التدخين بالغليون؟

_كلا يا أمي.. مرة واحدة، العام الماضي، مساء رأس السنة، الأخت (أنا ستازيا) حاولت أن (تأخذ سحبة.. سحبتين) هكذا.. للتسلية والضحك، فوقعت مريضة مثل الكلب!

كتمت مادر ماريا ابتسامة مهذبة:

_أنا أيضاً، دخنت بالغليون، قديماً.. في آسيا.. وتعاطيت الأفيون في حالات.. وكان لابد من ذلك.

وتوقفت مشيحة بيدها لكأنما تمسح تلك الذكرى من شبابها البعيد!

_أبوك وأمك: هل وصل بهما الأمر إلى الانفصال؟

_لا يا أمي.

_طبعاً، ليس في غرناطة.. وأرسلت الرئيسة تنهيدة طويلة معبرة عن الاحتقار العميق لمتهني هذه الفضائل والقيم الغالبة على قلوب النساء والتي لا تمحو آثارها أو تخفف وطأتها الفضائل الأخرى، كالتساهل والغفران أو طيبة القلب والتفهم العقلاني..

بالنسبة لكم أنتم الأولاد، لم تكن الحياة سهلة في تلك الحقبة؟

_لا، بالواقع، الصراخ.. الشتائم.. البكاء.. الشموع المضاءة

المحترقة ليلاً نهاراً وفي كل زاوية من زوايا (لوس فيلز) للسيدة البتول وعشرات القديسات غيرها.. ذلك كان مناخ حياتنا.

بيدرو، البكر كان غائباً أكثر الوقت، تحتجزه في (تولاد) مهامه العسكرية وفي إجازاته النادرة كان يجلس مع والدي منفردين يتحادثان، يدخنان السيجار، يعبان الشراب من زجاجات النبيذ الإسباني (مانزيلا). وكل مساء، بعد الغداء، يخرجان معاً إلى حيث يقومان معاً بخيانة أمي!

رفعت مادر ماريا حاجبيها:

_يخونان أمك!؟

بيدرو، أيضاً، تعرف على بيريكا فارول.. أبي بالذات كان واسطة التعارف!

لم تكن مادر ماريا ترى شيئاً جديداً بالنسبة لوسطها الخاص،

حيث جميع الرجال يخونون جميع النساء، خصوصاً عندما تكون المسألة متعلقة بأولئك الذين يلبسون القفازات البيضاء!

_وأخوك لويس؟

_أخي لويس روّض نفسه دائماً على تجاهل كل ما هو قبيح ومنبوذ..

_نعم، هذا هو الإطار المتوافق مع تصور مادر ماريا وحكمها على شخصية لويس: الرجل الصغير بقمبازه الحريري، وحذائه اللماع الأنيق، ونظراته المليئة بالدهاء، وتفكيره الحر، مما مكنه من أن يسبح بنجاح على (سطح مرجل الفاتيكان).

_وأختاك كيف أخذتا الأمور؟

_بالبكاء، دائماً بالبكاء. ومعهما الأخت لوز طبعاً كي يكتمل بنا الفريق المرافق لأمي.

_وأنت؟

_أنا؟

حركت الأخت لوز السكر في قهوتها:

أنا.. أعتقد أنني كنت أكره والدي لأنه أعطاني عن الرجال صورة ظلت مستقرة في ذهني، تتحكم بكل مشاعري

- طويلاً.. هذا صحيح؟

_كل مرحلة شبابي.

وبدقة متناهية وزنت مادر ماريا كل كلمة من كلمات السؤال التالي:

_تلك الصورة.. هل تحررت منها أخيراً؟

_نعم يا أمي.

هكذا أجابت وبحزم حيَّر السيدة العجوز.. فسألت:

_متى كان ذلك؟

ومرة أخرى تمهلت الأخت لوز في الإجابة وكأنها هي الأخرى تزن بدقة فائقة كل كلمة من كلماتها:

_منذ عدة أشهر..

_في أفريقية؟

_نعم، يا أمي، في إفريقية.

انحنت مادر ماريا، إلى أمام، فوق مكتبها وقالت:

_أخت لوز ديل أمور هرموزو.. هل أستطيع أن أعرف من كان الرجل؟

رفعت لوز نظرها حتى واجهت به نظرات السيدة العجوز وسألت:

_والد الجنين الذي أحمل في أحشائي؟

كانت نظرات الرئيسة النافذة تتفحص كل قسمة من قسمات وجه لوز، علَّها تكشف ما قد يخفيه الكلام من حقيقة:

_أ أنت متأكدة أنك قادرة على القول من هو الأب لجنينك هذا؟
_نعم.. يا أمي.
_متأكدة إطلاقاً؟
_نعم يا أمي.
بدت مادر ماريا وكأنه قد أسقط في يدها:
_أنا لا أفهم.. ما قيل لي.. ما عرفته.. أن هناك في دنكلي..
قاطعتها الأخت لوز:
_مادر! رجاء ثقي بما أقول.. أعرف من هو والد جنيني..
وبحركات مشوشة بحثت مادر ماريا عن القلم الرصاص الذي أخفته إحدى الأوراق المنثورة أمامها، وسألت بصوت أقرب إلى الهمس:
_هو أسود.. طبعاً!
_إنه رجل يا أمي!
لأول مرة في حياة مادر ماريا، شعرت أن عليها إيقاف (اللعبة) عند هذا الحد.. قررت الانسحاب أمام التحدي العدائي
_هكذا تصورته _ للمرأة الشابة الماثلة أمامها.. وبأصابعها المرتجفة نزعت الغلاف عن باكيت سجاير الشستر فييلد..
وسألت:
_أخت لوز.. هناك شيء أريد أن أعرفه..
_قولي ما هو يا أمي.
_هذا مهم..
_أعرف يا أمي.
أخذت مادر ماريا سيجارة من العلبة المفتوحة وسألت: عندما اعتزلت العالم ودخلت الدير هنا هل كان ذلك صادراً عن رغبة ذاتية؟
أمسكت الأخت لوز السيجارة الممدودة إليها وبعد تردد أجابت:

_لا أعلم!

انحنت مادر ماريا، من جديد، فوق مكتبها وسألت:

_لا تعلمين أم لا تعرفين إطلاقاً..؟

رأت الأخت لوز في لفتة الرئيسة قارب نجاتها فاستمسكت بها وقالت:

لا أعرف إطلاقاً!.. عبثا حاولت أن أعرف... كم من مرة طرح عليّ فيها هذا السؤال! أمي كانت أول من سأل: (هل أنت متأكدة من صدق رغبتك في دخول سلك الرهبانية)؟ وكنت أستطيع أن أجيبها: (لا) أو: (لست متأكدة بعد..) ولكني فضلت الإجابة بنعم لطمأنة أمي التي لم تكن تجد فرقاً بين اختيار الرهبانية وبين فكرة الحب التعيس الفاشل.. وبعد زمن طويل جداً.. في إفريقيا.

_... نعم تابعي يا أخت لوز.

وضعت الأخت لوز كفيها على بطنها: حركة لاشعورية نجمت عن ألم أقرب إلى الوسواس والوهم، وتنبهت لحركتها فتنفست الصعداء وقالت: _لقد تعودت في (دنكلي).. أن أتلو (التسابيح) وذراعاي متصالبتان.

_لأي سبب؟

_لأقاصص نفسي يا أمي.

_تقاصصين نفسك.. على ماذا؟

شعرت الأخت لوز بحبات عرق كبيرة تتدحرج على عنقها: لم تعد نوبة ألمها وهماً لقد توضحت، أصبحت لا تطاق كالصاعق.. تبعتها حرارة مرعبة تمركزت هناك في وسط بطنها.. ومع ذلك تحاملت وأجابت بصوت خافت:

_طالما كرهت جسدي..

_آه.. ولكن لأية أسباب؟

_جسدي وكر وحاجات لا حد لها..

ابتسمت مادر ماريا:

_هذا كلام جميل وأرجو أن أكون قد فهمت جيداً، من خلاله، أنك في دنكلي، كنت تحاولين قهره بالتعب وبصلب ذراعيك والتسابيح..

_نعم يا أمي.

_ماذا كان تأثير ذلك على رغابك.

_أحاول أن أشرح لك الأمور يا أمي.

_اشرحي..

_يوماً.. فاجأني الأب بروكر راكعة وذراعاي متصالبتان في وسط المعبد فأمرني أن أنهض وأن أعود إلى شغلي.. وغداة الغد رآني في المختبر وسألني، بلطف زائد، في أي سن شعرت بنزعات _ هكذا سماها بالضبط - اختياري للرهبانية..

_بماذا أجبت؟

_لم أعلم بماذا أجيب، ولكن الأب أصر أن يعرف، فقلت له أخيراً إنني منذ البدء وحتى اليوم، أصنع تلك الرغبة يوماً بعد يوم، على طريقة البستاني الذي يسقي نباتاته كي تبقى حية.. وكي تنمو.

_وماذا كان تعليق الأب بروكر على هذا الكلام؟

_أجاب أنه يقدر جوابي حق قدره لأن هذا، بالضبط، ما يفعله هو أيضاً رغم مضي ستين عاماً على حياته الرهبانية، ومنعني من الصلاة راكعة وذراعاي متصالبان.

_أحرى بي أن أفعل هذا.

قالت السيدة العجوز.. وغابت لحظة في عالم مجهول، ثم تمتمت بمرارة:

(يوماً.. بيوم) قلت.. نعم هكذا قد تكون الطريقة لبناء الرغبة الحقيقية.. يوماً.. بيوم.. عكس مهب الأهواء.. والمد والجزر.. رغم كل شيء.. رغم كل شيء.. رغم النفس والذات.. تجربة تلعب فيها الكبرياء دائماً دورها الرئيسي.

وابتسمت الرئيسة ابتسامة خفيفة مختصرة واستطردت:

_لكن الكبرياء هي فضيلة القديسين.

سحابة من الدخان، مكورة كالدائرة، خرجت من شفتي (مادر ماريا) وهي في غيبوبة حلم مشدود إلى ماض حدد تماما حقيقة رغباتها وميولها الذاتية.. إلا أن اليأس.. و.. بالطبع.. رجل.. رجل كانت قد أحبته وفق تقاليد الحب العريقة التي تجمع بين الولع والعفة بالمزج الكامل المطلق للنوازع الثلاثة.. إلا أن الرجل _ إياه _ قبل عدة أشهر من الموعد الرسمي المحدد لخطبتها تخلى عنها ليتزوج واحدة أخرى..

وكان يأس انقلب إلى حقد.. بغضاء.. تحولا بدورهما إلى حنان.. وأنه هذا الحنان الذي تتعهده وتصونه يوما بيوم منذ أكثر من خمسين عاماً!

_أخت لوز.. قولي لي متى أحببت للمرة الأولى؟

استجمعت الأخت لوز أطرافها وأعضاء جسدها: إما لأن الألم قد عاد، من جديد، يحرث بطنها.. وإما لكي تبدد ما اعتراها من ضيق:

_ لم أحب إطلاقاً يا أمي.

كانت تكذب إما بداعي التغافل أو، بالأصح، لأن سؤال السيدة العجوز بدا ذا خلفية خبيثة، حالت بينها وبين تحري الدقة في جوابها: الأخت لوز لم يسبق لها إطلاقاً أن (أحبت للمرة الأولى).. لأنها (أحبت للمرة الوحيدة!)

- إطلاقاً... كررتها الأخت لوز.. تأكيداً!

أشعلت السيدة العجوز سيجارة جديدة من عقب الأولى الذي أحرق إصبعيها وعقبت:

_هذا غريب.. أنت حتى الآن جميلة جداً.. بمعنى أنك كنت شابة رائعة الجاذبية.. والرجال، في غرناطة..

_الرجال، في غرناطة.. أيام الحرب الأهلية.. الأخت لوز كانت صغيرة.. في سن لا يوقظ اهتمام الرجال.. أما بعد ذلك فقد اكتشفت أن الرجال في غرناطة وكذلك في أي مكان آخر كانوا على صورة ومثال فونسيكا: متباهون كذابون، مخادعون.. فاحتقرتهم جملة ورافقها هذا الشعور أبداً.

_أولم يسبق لك أبداً أن خطبت؟

_بلى.

_آه!.. ألا ترين..

_مخطوبة.. كلمة أكبر كثيراً من مسماها.. عقب احتفال لوز ببلوغ الثامنة عشرة من عمرها اعتقد فونسيكا أنه من الخير أن يختار لابنته الرجل الذي (يليق أن يكون صهراً له).. فوقع اختياره على أحد كبار ملاكي الأراضي في المنطقة، وهو من قدامى أصحاب الرتب العالية في منظمات (الكتائب) وأحد عناصر رفقة السوء القدامى.

_تلك الخطوبة قد فسخت قطعاً! ولكن لماذا؟

_أفضّل عدم الكلام عنها..

_وأنا أفضل، أن تتحدثي عنها.

شفة الأخت لوز السفلى بدأت ترتجف..

_ هل هذا مهم في تقديرك؟

نبرة صوتها لم تعجب مادر ماريا:

_ مثل كل الجوانب الباقية.. لا غنى عنه..

_ حسناً، يا أمي، في هذه الحالة عليَّ أن أعود إلى الوراء..

_ عندي كل الوقت اللازم.. وعندك أيضاً..

_ من جديد اتخذت كل منهما موقف العداء إزاء الأخرى من حيث لا تريدان: المسنة كانت تخفي بصعوبة شفقتها المتنامية، والشابة، بالمرصاد، لتلك الشفقة، لا تتحملها ولا تتقبلها.

_ أولاً يكفيني ما يعتريني من أسف عن كل ما قلته بخصوص أبي؟

اكتفت مادر ماريا بإشارة تشجيع من رأسها تعنى بكل وضوح (أنا الآسفة لا أنت!).

_منذ ٢٠ تموز ١٩٣٦، وجد أبي نفسه متدخلاً، قلباً وقالباً، بالأحداث التي حصلت في غرناطة.

_ماذا كان _ بالضبط _ في تلك الحقبة؟

_كابتن في سلاح المشاة، قائد حامية (أوفييدو) وبمناسبة إجازة كان تواجده في غرناطة لحظة (الانتفاضة) في إفريقيا..

كان فونسيكا حاضراً _ مع كل من الكولونيل (مونرو) والكولونيل ((توماس)) في مكتب الجنرال ((كامبان)) الحاكم العسكري للمدينة، عندما تلقى هذا الأخير من مدريد برقية تبليغه خبر (عصيان) القوات الإسبانية بأفريقية، وتضمنت البرقية أمراً موجهاً إلى الجنرال بتوزيع الأسلحة فوراً على الشعب.. أوعز (كامبان) بإجابة مدريد أنه ليس بين ضباطه من يمكن أن يقف ضد الجمهورية..

لقد أكد مونوز وتوماس أنه خيالي أو مضلل، أو الاثنان معاً، لأنهما أعلنا في تلك اللحظة بالذات أنهما عدوان للحكومة، وخارجان على سلطتها.. وكانت فرصة فونسيكا كي يضيف:_ (ليس من شيمتنا

نحن العسكريين أن نأخذ مكاننا جنباً إلى جنب مع سفلة الناس).. ثم شهر مسدسه وبلغ (كامبان) أنه موقوف!

وتجدد مشهد مطابق تقريباً بعد أقل من ساعة في مكتب الحاكم المدني (سيزار توريس مارتينبز): فونسيكا، برفقة الضابطين الآنفي الذكر، (يشن غارة) على المكتب الكبير المحجوب وراء ستر سميكة من القماش.. كان في إحدى زوايا المكتب مجموعة من الرجال يتناقشون بأصوات حادة عالية.. وتعرف فونسيكا، بينهم على رفيق دورته، قائد الحرس المدني الكابتن (فيدال) تجاهل عامدا الحاكم، وسأل بجفاف:

_من منكم، توريس مارتيبيز؟

كان الحاكم، رجلاً صغيراً، أشهب الوجه. انفصل عن الجماعة وقال:

_هذا أنا...

لم يجد فونسيكا حاجة حتى لإشهار مسدسه وهو يتعامل مع (مدني) بل اكتفى بالقول: _ أنت موقوف!

خطا فيدال خطوة نحو الهاتف، لكن فونسيكا، بإشارة منه، جمّده في مكانه وقال: _أنت أيضاً..

ثم جاء دور قصر (المختار): _فونسيكا وزبانيته أوقفوا لدى خروجه من المكتب الدكتور (فرناندز مونتيسينوس) المختار الاشتراكي لغرناطة وصهر الشاعر (غارسيا لوركا)..

قرابة تسببت للمختار بأفدح الأخطار، إذ عزيت إليه تهمة توزيع الأسلحة على عمال منطقة (البائسين) خلال اليومين السابقين لتوقيفه، وهكذا حكم عليه بالموت.. تلك تهمة أحكم تلفيقها، رغم أن المختار مونتيسينوس لم يكن يستطيع إطلاقاً الوصول إلى الأسلحة المحفوظة عند القيّم الوحيد عليها الجنرال كامبان. قتل فرناندز

مونتيسينوس رميا بالرصاص مع جميع (شركاء التهمة).. قتل وهو يسند ظهره إلى جدار قبره.. وفونسيكا، قائد فصيل تنفيذ الإعدام، هو الذي منحه رصاصة الرحمة.

_مونتيسينوس.. ولكن.. أو ليس هذا لقب أمك قبل زواجها؟

_ الدكتور فرنادز مونتيسينوس كان ابن عمها الشقيق لوالدها..

_ أولم تشفع له تلك القرابة لدى والدك؟

لا..! بالعكس لقد استغل فونسيكا موقفه، فتباهى به على اعتبار أنه أحد أمجاده التي يسميها (قوة العزم) إنكار صلة القربى، عندما تكون المسألة مسألة مصير الوطن.. وبالأساس لو كانت لمثل هذه الوشائج قيمة أو احترام لكفى مختار غرناطة أن يكون قريب غارسيا لوركا!. تلك حقبة زمنية بدت وكأن لها منطقها الخاص: الصحف اليومية (الموالية) أشادت كثيراً بحزم والدي..

_أرى.. (وتعمدت مادر ماريا إخفاء شدة اهتمامها بالسؤال الذي تطرح هنا..): أرى وكأن أباك قد انغمس في قتل الشاعر؟

نهضت الأخت لوز، تغمر موجة من الحزن وجهها، وتوشحه حبات العرق اللؤلؤية، وبصعوبة كبرى تتنفس، فأسرعت العجوز إليها مستفسرة عما دهاها:

_أريد أن أمشي.. أمشي بضع خطوات فقط!

أخذتها مادر ماريا بذراعها خشية أن تسقط، فتخلصت منها بلطف!

_لا تخافي يا أمي.. نوبات قصيرة مماثلة تعودت عليها وقد قالوا لي إنها طبيعية بالنسبة لحالتي!

كانت تتحدث عن (حالتها) بنبرة طبيعية، أدهشت السيدة الرئيسة التي رافقتها وهي تقطع المكتب بخطواتها طولاً وعرضاً ومراراً عدة..

ثم عادت كل منهما لأخذ مكانها واستئناف ما انقطع من حوار.. وكانت الأخت لوز هي البادئة بالكلام:

_نعم.. والدي كان أحد المسؤولين المباشرين عن موت غارسيا لوركا..

وشعرت هنا كأن ياقة قميصها تشد كالحبل على رقبتها ففكت زر الياقة وتابعت:

- ولكني لم أعرف تلك الحقيقة إلا متأخرة جداً.. بعد أسابيع من قتل الشاعر تلقى فونسيكا برقية من الصليب الأحمر السويسري وفيها نبأ موت ولده (بيدرو) في تولاد، حيث كان محاصراً في (الكازار) لقد أورد (موسكاردو)، قائد حامية الدفاع عن الحصن في أمره اليومي ما يلي:

(.. الملازم الثاني فونسيكا مات ميتة بطولية على رأس فصيلته أثناء القيام بمهمة استطلاعية في مان _لان توليدان).

لزم والدي الصمت.. جمد تماماً، والبرقية أيضاً ظلت جامدة في يده فترة طويلة.. طويلة.. ثم انهمرت الدموع على خديه..! كانت المرة الأولى التي رأيت فيها والدي يبكي..

كم ارتحت لذلك المنظر.. لقد رأيته جميلاً؟! ولك أن تفسري موقفي كما تشائين..

كان فونسيكا واقفاً في وسط الصالة وقد أصم أذنيه عن سماع الأسئلة التي أمطرته بها زوجته، وما أن فهمت حقيقة الخبر حتى صرخت:

(بيدرو مات!) أخذت فونسيكا رجفة، وبنظرات مجنونة، حدق بزوجته، ثم أجاب كأنه يقول: (نعم.. بيدرو مات) وصفعها صفعة أودعها كل قوته!

وأغلق عليه غرفته، وطيلة مساء ذلك اليوم كنا نسمعه يئن كحيوان.. على العشاء دخل غرفة الطعام بثياب مدنية وشرب زجاجة كونياك دفعة واحدة بعد أن كسر عنقها على حافة الطاولة فتمزقت شفتاه وامتزج الدم بالكحول فوق ذقنه وعلى قميصه الأبيض.. ثم اختفى من البيت خمسة أيام بلياليها، ليعود فجر اليوم السادس ويدخل البيت وأهله كلهم نيام..

أبي وأمي عاشا حياة الانفصال: كل في غرفته، منذ عرفت أمي بعلاقة زوجها مع (بيريكا فارول) هكذا.. دون شرح ولا مناقشات، عزلت أمي نفسها في الطابق الأرضي من البيت..

كانت أول من أبصر والدي لدى دخوله العجوز كريستينا _ كريستينا التي تحولت منذ سنين طويلة من خادمة في بيتنا إلى عضو من أعضاء الأسرة.. لقد شهدت ولادتنا جميعاً: أخواي.. أختاي وأنا. وعاشت أفراح وأتراح العائلة بجَلَد وصبر كثيراً ما فاقا جلدَنا وصبرنا..

لم تأبه كريستسنا لشعرها الملفوف على عدد من (اللفافات) وانطلقت كالبرق جهة أمي لإخطارها بحضور زوجها: (السيد اضطر أن ينام فوراً وهو يشخر مثل الثور!).

_ تلمست أمي ما استطاعت ارتداءه من ثيابها وخرجت إلى الطابق الأول مصرة على أن تكون أول من يدخل غرفة والدي، وأن تكون وحدها.. لقد استيقظت أنا بدوري والتقينا في المشى، أنا وكريستينا وأختي (ماريا ديل كارمن) وهي في قميص النوم.. أخي لويس كان، كعادته يقرأ في الصالة مع لامبالاة مطلقة بحركة سكان (لوس فيلز).. وحالما دخلت أمي غرفتها القديمة انقطع الشخير وسمعت صوت والدي يسأل:

_ماذا تريدين؟

_لقد هاجمني وأقلقني صوته: ثقيل.. صوت إنسان في حالة سقم.. ضعف.. مرض.. رهبة.

_إنني بحاجة لأسألك من أين قدمت؟

وعقب بحدة وعنف مماثلين: _لا. لست بحاجة إلى هذا، اذهبي من هنا..

_أنت سكران.

قبّلها دون حرج وأجاب: _نعم.. أنا سكران..

وبلهجة أقرب إلى الاستعطاف، أضاف: _اتركيني وحدي.

_سمعنا وقع خطوات أمي وهي (تمسح) الغرفة وتصطدم ببعض قطع الأثاث ثم توقفت وقالت:

_أنت الذي قتلته..

تصورتها واقفة قرب السرير تسلط على أبي عينيها الصغيرتين النفاذتين.. كما تصورت أبي، نصف عارٍ، يتمرغ فوق أغطية السرير المدعوكة وقد أسقط في يده وأخرسته المفاجأة.. فغر فاه وتكورت عيناه ووجهه المنتفخ من الكحول صار يندى عرقاً.. لقد سمعناه ينقنق:

_أنا.. أنا قتلت من؟!

_رغم السنين مازلت حتى الآن مقتنعة أن أمي كانت تتشفى بكل كلمة لفظتها:

_أنت قتلت بيدرو.

_ أنّة طويلة حادة لا أعلم بالضبط مصدرها: من السرير أم من والدي..

_ اخرسي!

_ أنت قتلته!

_ اخرسي!

_ أنت قتلته!

_ لكن.. ألا تسكتين؟

_صمتت أمي.. ولم يدم صمتها طويلاً.. على مهل، بعبارات واضحة أسقطها لسانها حرفاً حرفاً، قالت جملة لم أدرك مرماها آنئذ: - كم من مرة قلت لك ألا تتعرض لآل لوركا وأن ندعهم وشأنهم..

أنين.. نشيج تفجر.. من المصدر: أمي؟ أبي؟ _ لا أدري..

ثم ساد صمت.. وارتفع صوت أمي من جديد:

_السماء ليست صماء ولا بكماء والأموات يثأرون لأنفسهم..

أسندت كريستينا ظهرها إلى جدار المشى وراحت ترسم شارة الصليب.

_لم تكن تقبل الإصغاء لكلامي.. أبداً لم تقبل، ولا مرة، والآن.. ها أن بيدرو قد مات وأنت قتلته هو أيضاً..

أرسل أبي صرخة هزت أرجاء البيت.. صرخة رهيبة تداخلت معها أصداء، وكأن السرير يتحطم.. ثم.. ضربات.. أصوات خافتة متراخية لا يقل وقعها رهبة عن الصرخة نفسها.. أختي ماريادبل كارمن غرقت بدموعها.. وبعد ثوان خرجت أمي من غرفة النوم دامية الوجه ممزقة الخدين والشفتين.. مرت بنا دون أن تنبس بكلمة، وكانت في طريقها إلى الغرفة الصغيرة التي اتخذتها لها (معبداً) منذ حل مرض التيفوئيد بأختي (ماريا ديلا أزونسيون) قبل شهور، وكاد يودي بحياتها.. ونزلت أنا إلى الصالة باحثة عن أخي لويس:

_ هل سمعت؟

رفع لويس عينيه عن الكتاب الموضوع فوق ركبتيه وقال وهو يبتسم ابتسامة هادئة:_ الأصم وحده يمكنه ألا يسمع ما يجري داخل هذا البيت!

_ أمي اتهمت أبي بأنه قتل بيدرو.

هز كتفيه والابتسامة لا تفارقه:

_ ما من أحد قتل بيدرو.. والناس جميعاً قتلوا بيدرو: أنت.. أنا.. أبي.. حتى أمي! _ كان يتكلم بأناة.. محافظاً على هدوئه.

وشعرت بصدمة بما يشبه الإهانة فقلت مؤكدة:

_ قالت أشياء بخصوص آل لوركا لم أستطع فهمها..

صوّب لويس نظره إليَّ برهة وهو صامت: كانت عيناه جميلتين جداً مزروعتين في وجه ناكر للجميل مدور، وردي، أنمش من نوع غريب.. ثم همس بتذمر:

_لاشيء خافياً حتى تفهميه!

أثارتني تلك الإجابة فقلت: أمي قالت أن بيدرو مات لأن أبي (لم يدع آل لوركا وشأنهم..) ووراء هذا الكلام ما وراءه أليس كذلك؟

وتقدمت.. ركعت أمام أخي أخذت إحدى يديه بين كفي:

_لويس.. ماذا فعل أبي لآل لوركا؟

_ تخلّص لويس مني.. فتح كتابه.. حوّل نظره عني وقال هذه الكلمات الغريبة:

_ منذ بعض الوقت وأبي (يطهر..)

_ يطهر؟ ماذا تعني بهذه الكلمة؟

_ أدخل لويس أصابعه في شعري.. لم يجب.. عاد يقرأ.. فأسرعت إلى المكتبة الصغيرة وراء البيانو وأخذت أول معجم وقع تحت يدي وفتشت فيه عن الكلمة فوجدت أن من معانيها:

_(.. رسم مصغر وفق قواعد الهندسة الوضعية يمثل على المخطط مختلف أقسام صورة ما ذات أبعاد ثلاثة..)

_إذن.. ليس هذا المعنى هو المقصود.. هناك معنى آخر.. ما هو؟!

في نفس اليوم، الرابعة والنصف مساء، عاد أبي لارتداء بزته العسكرية متهيئا للذهاب إلى حاكم غرناطة العسكري.. وقبل مغادرة (لوس فيلز) دخل غرفتي وكانت، من جانبه، بادرة غير معتادة. نظراً لبرودة العلاقات بيننا دائماً: كان يعاملني مثل أختي سواء بسواء ليس ببرودة وحسب، بل بلا مبالاة تتضح بالاحتقار. لقد كنا نساء إذن نحن، بنظره، كم جدير بالإهمال!.. كنت منصبة على كتابة وظائف التاريخ الطبيعي، فانحنى فوقي وعانقني معانقة خرقاء_ وهمس في أذني: _ (مرسيدس.. يا صغيرتي مرسيديتا..) تلقيت تلك الدعابة بدهشة، أنا التي مر في ذهني أن أبي ليس الرجل الذي ينساق مع هذا النوع من المشاعر.. كانت تنبعث منه رائحة شديدة هي مزيج من الخمر والتبغ.. وظللت طويلاً أحسب أنها رائحة جميع الرجال قبل أن أكتشف أن بمقدورهم أيضاً أن يضيفوا إليها رائحة الدم.. والخوف.. والموت..

نهض أبي واقفاً: تحت إبطيه، بقعتان مدورتان كانتا تلطخان بزته:

_أنا ذاهب. مرسيديتا ولم أشأ أن أغادر البيت قبل أن أقول لك كلمة وداع..

_أين أنت ذاهب يا أبي؟

_إلى الحرب...

_مع هذه العبارة نفخ والدي صدره فكان لها في أذني رنين حاد أجوف كصيحة ديك استيقظ قبل الأوان.. ولا أدري لماذا ملأتني الرغبة في أن أضحك، أنا التي كان صعباً عليّ أن أشارك أبي نظرته إلى الحرب: _ أهي فظيعة؟.. أهي خطرة؟.. حتى وإن كان أخي الأكبر قد مات فيها منذ زمن جد قريب.. إن النبرة المتراخية في صوت أبي.. وعيناه الجاحظتان عن عمد..وخصوصاً هذا السيف الذي (يخفق)

عند خاصرته.. كل هذا كان يفسد نظرتي الخاصة التي كونتها عن المأساة، والتي كنت أريدها مثالية خالصة من كل أشكال التلاعب والخديعة.

انحنى، فونسيكا مرة ثانية فوق ابنته ليقبلها: _ (احترسي جيداً من أمك..) _ قالها بصوت مبحوح..

هذه التوصية (التحذيرية) بدت لي غريبة تماماً، لقد كانت تصرفات وأقوال أبي ذلك اليوم، تبدو، لي على الأقل، وكأنها جزء من مسرحية فاتني فهم كنهها.. ومع ذلك كان لابد من جواب وقد أجبته:

_أعدك بهذا..

_خرج أبي من غرفتي فتبعته إلى الصالة: أخي لويس كان هناك كالعادة، فوضع كتابه على الأرض ونهض في مواجهته.

وقف أبي منفرج الساقين، قبضة إحدى يديه على خاصرته والأخرى كانت تتلمس مقبض سيفه، فابتسم لويس ابتسامة يصعب سبر غورها..

_عندما يحدثنا لويس عن والده يلفظ اسمه مجرداً هكذا:

فونسيكا.. وقد قال لنا مرة:_ (فونسيكا) فاشل في محاولاته تقليد موسوليني. كان يحرص على أن يأخذنا لمشاهدة كل الأفلام السينمائية التي يظهر فيها.. تتقص والدنا تلك الذقن الحازمة للزعيم الإيطالي، وقامته المربوعة ونفوذه المهيمن.. المزايا التي كانت تغطي الجانب المضحك في تلك الشخصية..

_مجرد وقوف الأب والابن أحدهما بمواجهة الآخر يفرض التساؤل: _ كيف يمكن أن يكون لويس ابنا لفونسيكا البدائي الفكر المتسرع دون تبصر.

لويس قصير وسمين، لين العريكة تقريباً، بارد، متقلب بل ومتردد

وكل منهما يكره الآخر، والاحتقار الشديد متبادل بينهما، يتعاملان كغرباء، وليس بينهما قط نقطة لقاء، حتى في الأذواق الغامضة الكامنة في أعماق كل منهما.. العامل الوحيد الباقي هو دمهما المشترك، مع أن أهمية الدم تسقط إن لم تتكامل مع عوامل جوهرية أخرى..

مد أبي يده اليمنى فأخذها لويس بين يديه الاثنتين: كانت بادرة من حبر المستقبل، فيها الكثير من المداهنة والرياء، ولكنها تستدعي الاطمئنان، بدليل أن فونسيكا أخذ بها وترك يده طويلاً بين كفي ولده، ثم قال أخيراً:

_أستودعك الله..

أجاب الابن:

_أستودعك الله..

وتبادلا نظرات نافذة.. كل منهما كان يلعب دور (كوميديا) الرجال الذين في ضميرهم رغبة أن يعيشوا الحقيقة ولو لحظة.. دور فونسيكا كان صادقاً، أما دور لويس فقد كان مقنعاً، لأنه يلعب وهو يعي قضيته وعياً كاملاً..



غادر أبي غرناطة في اليوم نفسه. جاء أحد مرافقيه بعد الظهر لنقل أمتعته، حاملاً رسالة موجهة إلى أمي.. قرأت أمي الرسالة وهي واقفة في مدخل لوس فيلز.. كانت تقرأ بعينيها، وحامل الرسالة واقف باستعداد ينتظر الجواب.

_لا جواب.. قالت بصوت هامس فحيّا المرافق وانصرف.. فانقلبت أمي نحو لويس، وكان معي يرقب المشهد، وقالت:

_أبوك قد مات.. صلّ لأجله..؟ وصعدت إلى (محبسها).. إلى

(غرفتها المعبد) دون إعطاء المزيد من التفاصيل، وضاق لويس، هو الآخر، ذرعاً بأسئلتي فأجاب وهو يبتسم بخبث:

_أخشى ما أخشاه أن نصبح أولاد بطل آت..

بعد شهور فقط، اصبح فونسيكا، بالفعل، ذلك البطل الذي توقعه لويس بخوف: حوصر مع ٢٥ عنصراً_ أكثرهم من الحرس المدني_ في (حرم سان جيرونيمودي أوردينا) على بعد عدة كيلومترات من (ميارس) وظل تسعين يوماً يصد الهجمات المتتالية للثوار (الأستوريين). وعندما تمكنت كتائب الجنرال (آراندا) من فك الحصار المضروب على الحرم وجدت خمسة فقط أحياء من أفراد الحامية: فونسيكا وملازم أعمى وثلاثة حرس أقرب إلى الأموات منهم إلى الأحياء.. قبل تحرير (سان جيروينيمو) ببضعة أيام قامت طائرة (سافويا مارشيتي) بغارة من قبل الإيطاليين بإنزال صندوق بالمظلة على الأنقاض المشتعلة وبداخله وسام (كروز لوراداديسان فرناندو) الذي منحه فرانكو لفونسيكا مع ترفيعه إلى رتبة قومندان.

صحف غرناطة نشرت أدق التفاصيل المعطاة لها حول الحصار وارتفعت كالسهم أرقام مبيع نسخها المطبوعة والمتداولة: البطولة، مثل الجريمة، تنتهي دائماً إلى مقاضاة الناس الثمن..

وعاد فونسيكا إلى لوس فيلز (مسبوقاً بنصره الجديد فاستقبل بحفاوة بالغة حتى من قبل أولئك الذين كانوا يتجاهلونه عمداً، ولم يكن، في نظرهم، سوى شخصية تافهة مضحكة..

وصل البيت في سيارة الحاكم (فالدز) الفخمة وعلم الحاكمية يخفق فوقها.. وكانت أسرته، بكاملها، تنتظره على عتبة باب المدخل الكبير باستثناء أمي، فقد ظلت منعزلة قليلاً داخل العتبة، وكأنها تحتمي بالظل من شمس الظهيرة المحرقة.. قفز أبي من السيارة ولم

يشغله شيء _ تلك اللحظة بالذات _ عن المسح مراراً بيده على تجاعيد بزته وعن التوهم أنه يرتدي ربطة عنق بدليل أن أصابع يده اليمنى كانت تتحرك هناك، وكأنها تسوي عقدتها! لقد نحل جسمه كثيراً وبدا أن التعب بدل اصفراره فأعطى لونه بعض الشفافية والصفاء.. ألقى على الحضور سلاماً عاماً بحركة مختصرة، فساد الجميع صمت مفاجئ ثم مشى نحو أمي مفتوح الذراعين وصدره يسطع بالأوسمة، فتراجعت أمي أكثر.. خطوة إلى وراء، ويداها مسبلتان على تنورتها المثنية التي اعتادت لبسها في المناسبات الكبيرة، وسادت أبي حيرة هي مزيج من الدهشة والغيظ، وجمد قدامها كمن أسقط في يده.

كنت قريبة من الزوجين أرقب المشهد فسمعت أبي يهمس بلهجة قاطعة:

_أقسم لك إنني عملت المستطاع كي لا أعود حياً...

تباطأت أمي في الإجابة، ولما حكت، كان صوتها يبدو وكأنه آت من بعيد.. : _أنا لا أصدقك!

تنازعته عوامل الارتباك والإثارة، فبدأ وكأنه طفل متهم ظلماً.. وأكد: _ أقسم لك..

من أعماق جمودها ندت كلمات أشبه بنفثة المصدور:

_دائماً كان سهمك طائشاً يخطئ الهدف أو يجانبه وحتى مسألة موتك لم تكن استثناء! بدت أمي وكأن الخبث قد استبطنها فأضافت:

_ثم.. لماذا تفتح لي ذراعيك هذين.. أولاً يكفيك أنك ملكت بهما الكثيرات غيري؟!

ترنَّح أبي كأنه تلقى صدمة من قبضة قوية غير منظورة..

احتبس الدم في خديه.. فغر فاه.. كان أعجز من أن ينطق بكلمة..

تحول نحونا، نحن عائلته، ونقل نظره بيننا جميعاً وحاجباه مرفوعان إلى أعلى جبهته، وكأنه يشهدنا على (الظلامة) التي يشعر أنه ضحية لها، ففوجئ، مرة أخرى، أن ليس أمامه سوى (تماثيل) خرساء صماء.. واستدار، من جديد جهة أمي ماداً ذراعيه وقائلاً بتلعثم:

_ماريا كريستينا...

_رمقته بنظرة احتقار وأجابت: (نادا) ثم عقبت بنبرة واضحة صريحة: _قاتل!

انتفخت أوداج أبي وأصبح وجهه بنفسجياً.. فحسبت أنه سيضرب زوجته.. سيقتلها.. سينتصف بعد تلك الشتيمة..:

_شيء من ذلك لم يحدث.. بل نفث الهواء المحتقن في جوفه ودار حول أمي مطأطئ الرأس واقتحم داخل البيت: سمعناه يصعد متثاقلاً الدرج الموصل إلى الطابق الأعلى بينما ظلت أمي في مكان عزلتها، عند عتبة الباب وهي توزع ابتسامة هادئة على الحضور الذين سادهم الانزعاج، وشفتاها تختلجان كأنها تصلي.. في ذلك الجو، انتهز أحد البلهاء الفرصة ليهتف:

_عاش البطل!

_من جانبي تجاوب أحدهم معه فصاح: عاش! تحية رنَّت في أذني وكأنها القهقهة.. من يكون؟ _ إنه أخي لويس. لقد اشتد هياجي فلم أعد أتمالك نفسي فشتمته وصرخت به:

_لماذا تعوي الذئاب؟

_رفع لويس نحوي عينيه الجميلتين كعيني البنت وقال وهو يهز كتفيه:

_لم لا؟.. البطل _ خيِّراً أم شريراً _ يبقى بطلاً! إنه دائماً كعادته لا يحكي إلا ألغازاً غامضة.. لقد تحولت عنه ودخلت البيت كالسهم..

كانت دقات قلبي تتعالى وتعلو حرارتها.. أين أتجه؟.. ماذا سأفعل؟.. لم أكن أعلم.. كل ما أذكره أنني وجدت نفسي جالسة على البيانو وأؤدي أداء سيئاً المقاطع الأولى من أغنية خفيفة لفرانسوا كوبيران: (تلك الحقبة، جميع بنات غرناطة كن يعزفن ألحان كوبيران، ودون مانويل دي فالا هو الذي رسم ذلك النهج في مؤلفاته الموسيقية.. فوق رأسي، بالطابق الأعلى كانت خطوات أبي مسموعة وهو يقيس غرفة نومه ذهاباً وإياباً.. فتوقفت عن العزف وتفحصت المكان حولي، فرأيت لويس، ورائي، يدخن تبغاً شرقياً كخيطان الحرير، كان يستحصل عليه من صديق في المطرانية.. وضع لويس كفيه على كتفي وراح يجيب على أسئلة محددة لم أطرحها عليه أصلاً.. قال لي:

_لاشيء قابل للفهم.. (هرمانيت).. لاشيء!

_لكن.. لماذا تعامل أبي بكل هذه القسوة؟

_هل تعلمين، أن القومندان فونسيكا (كروز لورادادي سان فرناندو) كان باستطاعته أن يخلي - دون أي خطر _ حصن (حرم سان جيرونيمو دي أوردونا) مع الرجال والأسلحة والأمتعة قبل بدء الحصار بثلاثة أيام على الأقل.. ذلك الحصار الذي سوّاه بطلاً؟

وشرح لي لويس كيف قرر أبي، منفرداً، المقاومة داخل الحصن وصول قوات (أراندا).. وبتحصنه داخل الحرم المقدس ومعه خرافه الخمسة والعشرون المهيئين للذبح، يكون قد استدرج، عن سابق تصور وتصميم، جماعة النحل بواسطة العسل المسموم، واستثيرت تلك الجماعة فعلاً فنفرت من كل صوب مدججة بالسلاح محملة بالديناميت.. وطغى الدم على العسل.. لا أقول دم فونسيكا، لا! لأنه عرف كيف يخلص نفسه!

تضحيات رجاله لم يدخلها أحد في الحساب، أما تضحياته هو

_تضحيات والدنا أعني - التي كانت محض فرضية، فقد كان محتوماً أن تكافأ بالثناءات والأوسمة.. على العموم، إن المسألة، من أساسها جوفاء!

إنني لا أصدق إطلاقاً أن أبي قادر أن يخلي سان جيرونيمو قبل وصول رجال الألغام من (ميريس)؟

_ بل تلقى أمراً بالإخلاء - أكد لويس - أن سان جيرونيمو ليست موقعاً ذا قيمة استراتيجية ولذلك سيحاول فونسيكا اليوم إنكار تبلغه أمر الإخلاء المذكور.. أما الحقيقة، فهي أنه كان مصمماً أن يدافع عن الحرم الحصين لأسباب لا يستفيد منها أحد سواه..

_ما هي هذه الأسباب؟

_من بينها موت بيدرو وجبنه هو!

رغم إرادتي انتفضت كالمصعوقة واحتججت:

_والدنا بطل، كل الناس يعرفون هذا، كل الناس يقولونه!

حبك لويس أصابع يديه فوق معدته وأجاب بهدوء:

لا أذكر في أي من مؤلفات (مالرو) الفرنسي الذي لا يعرف شيئاً عن بلادنا، ومع ذلك اقحم إسبانية في كتاباته قال ذلك الكاتب مايلي:

_ (.. البطل هو الذي يفعل ما هو في نطاق استطاعته عندما تفوت الغير فرصة إنجاز نفس العمل).

_ زادني كلامه هذا هياجاً وهاجمته:

_غيره، في الحالات المماثلة، هربوا.. أما هو، فقد صمد..

جلس لويس على الكرسي الأصفر حيث اعتاد أن يقرأ، مقابل النافذة، وعلى ضوء النهار ظهرت البساطة على وجهه أكثر وضوحاً.. وقال:

فونسيكا تحصن في سان جيرونيمو وهو ينتظر الموت هناك.

_وتسمي هذا جبنا!

_بالنسبة لرجل مثل فونسيكا تأتي دائماً حالات يفضل فيها أن يموت على أن يبقى حياً..

_لو كان ذلك صحيحاً لكان والدنا قد انتحر..

قلت ذلك وعضضت شفتي حتى أدميتها.. لأول مرة في حياتي درج على لساني كلام مثل هذا أجهل مؤداه ووزنه الحقيقي..

أجاب أخي:

_لا. أنت مخطئة.. فونسيكا كاثوليكي.. جبان وكاثوليكي.. : معتقده الديني هو الضمانة الأخلاقية لجبنه..

لقد (لبد) في حصنه تهاجمه فيه قوات ستناله أخيراً، وكأنها القدر، فهو يعلم إذن أن أيدي أخرى ستقتله في نهاية الأمر.

أغمضت عيني، تمثلت أبي وحيداً، أعزل واقفاً وسط خرائب سان جيرونيمو الملتهبة وقد أسلم نفسه للموت دون حتى محاولة الدفاع عن نفسه.. تلك الصورة بدت لي وكأنها لا تخلو من العظمة فهمست:

_ هذا شكل من أشكال الشجاعة.

_نعم ولكن مجرد شكل! وأضاف: فونسيكا أصبح رغم إرادته، هذا الشيء المجسد للسخرية بأعلى صورها: بطل حي.. والذي أخشاه هو أن يكتفي بحالة كهذه بل أن يسخرها لبلوغ بعض المطامح..

_سمعنا جلبة في الخارج: أبواب سيارات تفتح وتغلق وسيارات تتحرك.. الأقارب والأصدقاء انتهوا من إرضاء فضولهم وانصرفوا.. وأبي كف عن المشي..

_لماذا، إذن، أراد أن يموت مادام لم يفعل شراً ما؟

_بل فعل..

_لكن.. ماذا فعل؟

_هز أخي كتفيه المكورين الهابطين المختلفين عن مناكب الرجال واسترسل:

_الأهمية ليست للشر المقترف بحد ذاته، بل الأهم من ذلك اعتقاده بإمكانية التكفير عن فعل الشر بالدم ناسياً أن الدم لا يغسل شيئاً..: الدم يدفع أحياناً ثمناً للخير وعند هذه الحدود تقف إطلاقاً قيمته التجارية..

غرائب أقوال وأفكار لويس أخرجتني عن طوري فسألته بحنق: _ بماذا تتهمه؟

_مرة أخرى أقولها لك: لا أهمية للعمل المقترف بحد ذاته..

_كنت أعتقد أن للشر، دائماً أهميته المباشرة..

راح أخي يعبر عن رأيه بحركات دقيقة، كان يتدرب على إتقانها في المستقبل داخل قنابيزه الحريرية المفصلة بمقياس، وبعد أن حجب وجهه وراء ضباب كثيف من الدخان قال:

_فونسيكا فعل الشر باسم العدالة والأنكى أنه اقترف كل أنواع الجرائم..

بدأ الغموض ينحسر. بدأت أفهم: في غرناطة، تلك الأيام، كانت (العدالة) حديث كل الناس في كل المناسبات، والحديث كان يجري بالصوت المنخفض.. بالهمس.. بالوشوشات وحيثما كانت العدالة تمر تصبح الحياة قفرا ويكون الفراغ المطلق: تغيب حتى ضحكات النساء وابتسامات الأطفال والكلاب تدفن رؤوسها من الخوف ومن الكآبة! إنني أتكلم الآن كما يتكلم أخي أليس كذلك؟!

_من هو الذي قتله فونيسكا؟

أدار لويس وجهه: إن لمظهره الجانبي سمات تختلف.. لقد ساعدني أكثر أن أتنبأ أي رجل سيكون لويس في المستقبل..

_ في مثل سنك تتسين بسرعة ما فعله أبوك وما لم يفعله..

_من هو الذي قتله.. صرخت في وجهه.

وضع لويس سيجارته المطفأة في صحنها وأدار ظهره إلى النور والنافذة، ووجهه في العتمة وباح ببعض السر: _شاعر.. بل طفل.. إنسان بريء على أي حال..

وتملكني الخوف.. فزعت أن أكون قد عرفت الضحية وأجهشت في البكاء.



بعد بضعة أيام فقط، قتل فونسيكا عشيقته برصاص مسدس في بار بشارع (لاس مونجاس مورتاس) الواقع في قلب (البائسين).. ذلك لأنه، حالما عاد إلى غرناطة عاود يشرب بطريقة جنونية.. أمي رفضت نهائياً الكلام معه، ورفضت حتى الظهور على مائدة العائلة: كانت رهن (محبسها) في غرفتها، تصلي ليلها ونهارها..

كان يخرج من البيت مع الغسق، ولا يعود إلا بعد طلوع الفجر، وهو يرتدي ثيابه المدنية، دون أن يحلق ذقنه، ودون أن ينتبه إلى ربطة عنقه المقلوبة.. قلت (يعود).. تجوزا لأن عودته كانت تتم على الشكل التالي:

عندما يصل إلى مرحلة الانطفاء الأشبه بالموت من السكر، يكون حوله (أصدقاء المناسبة) أو مجهولون يدعوهم إلى الشراب في مطبخ البار، حتى يحضر الخدم المتميزون غيظاً، فيرمون بهم خارجاً كالأموات.. والأكثر صحواً من هذه (الشلة) يوقفون أبي على قدميه في (لياليه) تلك، كان يصطحب شخصاً يدعى (راموس جينكو) وهو عازف قيثار غجري (بوهيمي). التقطه عند (ثيوغاجيرا)، وكانت مهمته العزف على آلته حتى تسقط من يديه.

أصبح الجو في (لوس فيلز) خانقاً لا يطاق..: ارتحل لويس عن البيت بالاتفاق مع أمي، ليقيم عند أستاذه القديم في الحقوق الكنسية، وتولت كريستينا العناية بثيابه وحاجاته على فترتين أو ثلاث كل أسبوع.. أما نحن، الأخوات، فكنا نخلد إلى السكون التام، داخل غرفنا، مادام والدنا موجوداً في البيت.

الحاكم (فالدز) حضر مرة واحدة إلى (لوس فيلز) للتباحث مع أبي، حيث عقد الرجلان اجتماعاً مغلقاً في مكتب صغير يتصل بالصالة، وسمعناهما يتبادلان الصراخ طوال الاجتماع:

_فونسيكا.. توقف عن الشرب.. أصبح اسمك في الوحل وستنتهي إلى قتل نفسك..

_أعرف من هم الذين سيمس شرفهم.

_أنت تهذي.. لا تعلم ماذا تقول..

أنت تعلم جيداً، لا.. وتابع شرح كلامه وهو يتظاهر بالبكاء: _هل تعلم، يا سيدي الحاكم إنني أنا.. أنا الذي قتلت ولدي بيدرو؟!

انفجر فالدز وقد طفح الكيل: _ ما هذه الترهات؟. بيدرو مات ميتة الرجال في (تولاد) ويجب أن تكون فخوراً به..

- غرق صوت أبي في نشيج طويل ينطلق فيه السكيرون عادة:
_بيدرو مات بسبب الآخر!

- من هو هذا الآخر؟

- ألصقت أذني بالباب واستجمعت كل قواي كي أسمع جيداً ..إلا أن صوت أبي انخفض وبعد ثوان انفجر فالدز ضاحكاً ولكن رنة ضحكته دلت على أنها صفراوية ومفتعلة:

- الآخر مات كما يجب أن يموت.. رميا بالرصاص.. مثل كل الخونة!.

- نعم.. ولكن..

- لا تقل لكن.. لا محل لكلمة لكن.. قالها فالدز بما يشبه الزعيق وقد خرج عن طوره.. ثم انصرف غاضباً وكان يصفق الأبواب وراءه، خصوصاً بعد أن رفضت أمي النزول إلى الصالة لاستقباله ووداعه.. بعد ذلك، في يوم أحد، عاد أبي إلى البيت عند الساعة الرابعة صباحاً، يرافقه حارسان مدنيان، يسندان ذراعيه وعلمت بعدها من كريستينا التي فتحت لهم الباب أنه كان مغموساً بالدم، فأسندوه إلى أريكة خضراء قرب البيانو واستأذن أحد الحارسين باستعمال الهاتف، بينما توسل زميله إلى كريستينا كي تذهب وتستقدم أمي.

- على الهاتف سمع الحارس يقول: _ سيدي الكابتن لقد أوصلنا القومندان فونسيكا إلى بيته.

_...

- نعم سيدي الكابتن، هو بالذات، بطل سان جيرونيمو دي أوردينا لقد ارتكب حماقة كبرى.

- ...

- كبيرة جداً سيدي الكابتن والأفضل حضورك بالذات.

- ...

- حسناً سيدي الكابتن، على كل حال، هو غير قادر الآن على الكلام ولا الحركة. إنه ثمل مثل بولوني.. عفواً يا سيدتي!

- كانت أمي قد دخلت الصالة وهي ترتدي (روبا) أحمر فوق قميص نومها مع مسبحة ملفوفة على معصم يدها اليسرى، فنظرت إلى الراقد دون كلام.. فتقدم الأكبر سناً من الحارسين خطوة:

- سيدتي، زوجك ارتكب لتوه جريمة قتل..

ابتسامة غريبة ظهرت على وجه أمي، ولعله اعتراها ضرب من الجنون، إذ أجابت بصوت في منتهى الهدوء:

- ليست هذه المرة الأولى التي يحدث له فيها مثل هذا..

فتح أبي إحدى عينيه فأبصر أمي وقال بصوت كالعواء: _ أنت التي كان علي أن أقتلك أيتها القذرة!.. سال رياله.. وأغمض عينه.. وسكت. ازدادت ابتسامة أمي وضوحاً.. الأمر الذي ظل طويلاً موضوع حديث الناس وتعليقاتهم، فالمفروض، بنظرهم، أن تواجه ذلك الموقف، بالبكاء.. وكان أكبر الحارسين سناً قد استولى عليه الحرج، كما دلت حركات رجليه، ثم قال:

- أرجو يا سيدتي ألا تعلقي أهمية على ما يمكن أن يفوه به لأننا نعتقد أن الشراب قد أخذ منه كل مأخذ..

هنا، وبكل صراحة، صارت أمي تضحك.. تضحك بنهم وشراسة، وهذا مأخذ آخر ورد في تقرير المحققين ولا أعلم إن كان لصالحها أم لا..

بعد دقائق سمع صوت وقوف سيارة وحشي عند بوابة لوس فيلز أعقبته أصوات رجال.. أصوات نكراء حادة مع خطوات سريعة على درج المدخل وصوت مهاميز، ودخل ضابط من الحرس المدني بقرونه الثلاثة الجلدية السوداء، وقدم نفسه باستعداد:

- الكابتن آركاديو زالامير والملحق بمكتب الحاكم المدني لغرناطة.

مدت له أمي إصبعين وبارتباك ظاهر تناولهما الضابط وقبلهما: رجل متوسط القامة، حسن الهندام في بزته الخضراء - الرمادية، وقسماته الهادئة الرصينة.. كان وجهه شديد النحول، عيناه سوداوان، غائرتان مع شاربين صغيرين تعلوان شفته العليا. قال وهو يرفع قبعته:

- لقد وصلت بما أمكنني من السرعة.

ترفعت أمي عن التعليق على هذا التأكيد، فاقترب زالاميرو من الأريكة، حيث يرقد رئيسه حسب تسلسل الرتب:

- أهو جريح؟

- هذا دم ضحيته، سيدي الكابتن.

أجاب أكبر الحارسين سناً، فهمس زالاميرو وهو ينحني فوق أبي:

يبدو لي فاقد الوعي.

- إنه ثمل مثل حمار.

قالت أمي بصوت هامس مماثل..

- انحنى زالاميرو بهدوء: _سيدتي، قال بلهجة أبناء (قادس)، اعتقد أن لديك كل الرغبة بمغادرة هذا المكان؟

ظلت أمي جامدة ولم تتنازل بالإجابة.. وانتظر زالاميرو لحظات قبل أن يتحول جهة أكبر الحارسين سناً:

- الضحية هل ماتت أم هي جريحة فقط؟

- لقد ماتت سيدي الكابتن: رصاصتان في البطن.. رصاصتان في العنق ورصاصة خامسة في الرأس.

عقبت أمي:

- رصاصة الرحمة..

انتفض زالاميرو كالمصعوق واستفهم: -ماذا قلت؟

- زوجي يلتزم بأن يعطي من يده بالذات رصاصة الرحمة لضحاياه ويتقن ذلك جيداً.. وأطلقت نفساً طويلاً ثم أضافت: -إنه رجل على درجة عالية من الوعي لمهنته.. قالت هذا بصوت جهوري أغرق زالاميرو في الحيرة التي حاول التخلص من كابوسها بمتابعة توجيه الأسئلة إلى نفس الحارس:

- من كانت؟

قالت أمي:

- عشيقة!

ولأول مرة في حياتها لفظت مثل هذه الكلمة، فتظاهر الضابط بعدم السماع وكرر نفس السؤال:

- من كانت الضحية؟

- بيركا فارول.

كررت أمي:

- عشيقة..

احتقن الدم في أحد شرايين جبهة الضابط، وببرودة ظاهرة قال لأمي:

- يا سيدة.. سمعتك المرة الأولى..

- آه! حسناً.. كنت أعتقد..

استنشق زالاميرو الهواء طويلاً، والشريان الذي انتفخ في جبهته أصبح أزرق قاتماً، خبازي اللون تقريباً، وقال لأمي:

- يا سيدتي أفهم تماماً عوامل ارتباكك وأظن فعلاً أن من واجبك مغادرة هذا المكان...

- هل هذا أمر؟

-بل رأي، يا سيدتي عليّ الآن أن أستنطق زوجك و..

-إنه نائم..

-سأوقظه.. وأفضل أن يتم هذا بين الرجال فقط وحالما ننتهي سأعلمك..

-حسناً وتوجهت أمي نحو الباب وعند العتبة التفتت إلى وراء وقالت: -فارول كانت عشيقة وبغياً، أريد أن أعلمك بهذا فقط، ولا تتصور لحظة واحدة أنني أقول هذا من أجل تبرئة ساحة قاتلها..

ظل زالاميرو لحظة فاغر الفم، جامداً، حتى إذا ما استجمع أفكاره انحنى لها وقال:

-أفهم يا سيدتي، وأشكرك على تعاونك..

غادرت أمي الصالة، فأشعل زالاميرو سيجارة، وأصابعه ترتجف، وبشكل لا إرادي مشى عدة خطوات، وكأنه يحاول بذلك تهدئة هياج داخلي، وما أن استعاد توازنه حتى استعاد مظهره بكامله كرجل محترف..

-حسناً.. لنبدأ.. قصا عليّ الحادث.. كيف جرى؟

من جديد بدأ الحارس المسن الكلام وكان نشيطاً، يزن كلماته بحذر وروية فقال:

-أثناء (دوريتنا) (برووليو) وأنا، جهة سان (أنياسيو)، نحو الساعة الثالثة صباحاً، سمعنا عدة طلقات نارية، تأكدنا أن مصدرها شارع (لاس مونجاس مورتاس) انطلقنا مسرعين بذلك الاتجاه، وأمام دكان (باكو مورتيرا) بائع القدور، التقينا بعامل مقهى اسمه مذكور في الضبط، أخبرنا أن رجلاً قتل برصاص مسدسه (كانتورا) الأنجيليتو ريبيو، في البار الذي تعمل فيه.. وصلنا المكان بعد دقائق، فوجدنا القومندان فونسيكا واقفاً، يسند ظهره إلى حاجز البار وبيده مسدس حربي وعند قدميه امرأة تسبح في بركة من الدماء.

-لافارول؟

-نعم لافارول سيدي الكابتن لا تزال تغرغر..

-ماذا؟ وبعد أن تلقت رصاصة في رأسها؟!

ألقى الحارس المسن نظرة حزينة على زميله الشاب وقال متلعثماً.. : _ هذا يعني أن..

-ماذا يعني؟

قال الضابط بصبر فارغ..

-الرصاصة في رأس المرأة، سيدي الكابتن، لم يطلقها القومندان فونسيكا إلا لحظة رآنا ندخل القهوة..

-اشرح ما تقول بتفاصيل أكثر..

-منذ أبصرنا القومندان فونسيكا في مدخل الأنجيليتو انحنى على جسد فارول التي كانت لا تزال تغرغر كما سبق وقلت، وأطلق رصاصة في صدغها الأيسر عن قرب شديد.. تدخل الحارس الشاب لأول مرة معقباً:

-رصاصة الرحمة التي تكلمت عنها السيدة قبل قليل.

-ولم تفعلا شيئاً لمنع حدوث هذه الحركة؟

-كان ذلك مستحيلاً.. كنا على بعد عشر خطوات من القاتل.

-تعني القومندان فونسيكا؟

-نعم سيدي الكابتن أعني القومندان فونسيكا.

-حسناً.. ولكن الحضور.. ماذا فعل الحضور؟

-أي حضور سيدي الكابتن..

-الزبائن.. جمهور الأنجيليتو.. لا أحد منهم فعل شيئاً لمنع القومندان فونسيكا من..

-هؤلاء، سيدي الكابتن، كانوا جميعاً منبطحين تحت الطاولات بالإضافة إلى..

-بالإضافة إلى ماذا؟

-كل هذا تم بسرعة سيدي الكابتن ثم، وما أن أطلق عليها الرصاصة الأخيرة حتى رمى نفسه فوقها وراح يضمها ويحتضنها بذراعيه ولهذا السبب أصبح هو أيضاً مغموساً بالدم..

فجأة أحس الضابط أن حرارة المكان لا تطاق، وأن ذبابة غير منظورة تطنطن، فحلّ ربطة عنقه وقال:

-هل سجلت قائمة شهود الحادث؟

-نعم سيدي الكابتن إنهم ثلاثة وأربعون، الأنجيليتو روبيو مكان مرغوب..

-هل كان المقدم فونسيكا زبونا دائماً؟
-نعم سيدي الكابتن.. وبسبب (الكانتاورا) فارول.
-كيف؟
-لابد من الشرح؟
-بل من واجبك أن تشرح..
بدل الحرس المسن لهجته بما يوافق المناسبة وراح يتمتم:
-المقدم كان عشيق لافارول منذ زمن طويل، وأعتقد أن سيدي الكابتن على علم سابق بذلك..
-لم يسبق لي علم بذلك..
كان (أركاديو زالاميرو) - ٤٣ عاماً- مترملاً، وهو الابن الوحيد لقاض عسكري متقاعد. كان رجلاً صارماً وبسيطاً، وكانت حرفته هي الشاغل الوحيد في حياته، فلا يعطي الأهواء شيئاً من وقته.. كان يقرأ الروايات البوليسية الأمريكية ليلاً، لتساعده على النوم، ويزور (البوردل) كل خمسة عشر يوماً لدواعي صحية، ثم يخرج على حصانه للنزهة ثلاث مرات في الأسبوع.
-ولكن.. لماذا قتلتها؟
تبادل الحارسان نظرات حائرة، فبسط زالاميرو سؤاله:
-بأي دافع أطلق المقدم فونسيكا النار على هذه المرأة؟
أجاب الحارس المسن:
-مع كل احترامي لك سيدي الكابتن، كان القومندان فونسيكا ثملاً حتى الموت عندما أوقفناه..
-وتعتقد أن هذا سبب كاف.. هل تقتلون عشيقاتكم أنتم، عندما تسكرون؟
أصبح لون الحارس قرمزياً، وهو الرجل المسن، بيديه الثقيلتين البارزتي العقد، وبجيبين ظاهرين تحت عينيه، فاحتج وكان محقاً:

-ليست لي عشيقة سيدي الكابتن، ولا أشرب إلا قليلاً من النبيذ مع الطعام يوم الأحد فقط!

شعر زالاميرو أنه محاصر، فتناول من علبة تبغ جلدية سمراء سيجاراً طويلاً، رفيعاً، أخضر فاتحاً، من صنع الفلبين أفسدت رائحة دخانه جو الغرفة:

-إذن ماذا .. يا الله.. هل حصل خلاف.. مشاجرة؟

ألقى الحرس المسن نظرة طويلة على فونسيكا الذي كان يشخر على الأريكة وأجاب مرغماً:

-ثمة شهود قالوا إن فارول شتمته شتيمة فظيعة جداً..

-أي نوع من الشتائم؟

تلعثم الحارس: يعسر عليّ أن أقول.. سيدي الكابتن خصوصاً والمسألة تتعلق بقومندان.

- قل ولا بأس عليك.

وأصر الحارس: أفضل السكوت..

التفت زالاميرو نحو الحارس الشاب: - وأنت.. ألا تعرف ماذا كانت الشتيمة؟

-لقد نادته: - زوج الخائنة!

-آه...

-ثلاث مرات..

-آه...

-أمام الآخر سيدي الكابتن..

-من هو هذا الآخر؟

-عشيقها الجديد الذي اتخذته أثناء وجود القومندان فونسيكا محاصراً في (سان جيرونيمو دي أوردونا).

انتصب زالاميرو واقفاً.

-وأخيراً.. وجدنا السبب.. إنه سبب ذهبي.. بدا الارتياح على وجه الضابط؟؟ إنه يعلم الآن أن المقدم أنطونيو فونسيكا بطل أوردونا، لن يصل إلى المحكمة العسكرية. لقد كان فارغ اليدين عاجزاً عن تبرئة ساحته، رغم وسام صليب سان فرناند الذي يزين صدره..

-اتركاني وحدي مع القومندان.

أدى الحارس الشاب التحية وتوجه نحو الباب، بينما تجرأ الآخر وقال:

-اسمح لنفسي، سيدي الكابتن، أن أحذرك منه.. إنه خطر جداً وقوي مثل ثور.. لقد اضطررنا أن نستنجد بسبعة أشخاص حتى قدرنا أن نسيطر عليه في الأنجيليتو.

قال زالاميرو وهو يبتسم: اذهب.. أهو خطر حقاً؟ هذه الكومة من اللحم التي تنضح بعرق المرض؟ قد يكون كذلك ولكن مع غير اركاديو زالاميرو ذو نطاق الجيدو الأسود.. هذا الفن النبيل الذي تعلمه على يد ملحق عسكري ياباني أيام الدراسة في شبه الجزيرة.

انسحب الحارسان وتمركزا في غرفة الانتظار، حيث تجاوبت الأصداء لحظة قرقعة سلاحهما.

في إحدى زوايا الصالة، على طاولة من خشب البلاذر الإنكليزي، كان طبق محمل بالأقداح والقناني، فسكب زالاميرو لنفسه قدحاً طافحاً، شربه دفعة واحدة، وسكب الثاني: لم يكن مدمن كحول، ولكنه كان يعلم أن هنالك مناسبات وظروفاً يحتاج فيها الإنسان إلى محرّض خارجي، يساعده خصوصاً على ممارسة العنف.. ولأول مرة وهو يرفع بصره إلى أعلى، أبصر صورة (سانتيا نيكولسون) الأم الإنكليزية لفونسيكا، فحسبها ترقبه وعلى شفتيها ابتسامة استحسان مشجعة!.



توجه زالاميرو نحو الصوفا، والكأس في يده، وهو يحس في صدغيه تأثير الكأس الأول من الكحول:

- سيدي القائد..

لم يحرك (الشاخر) ساكنا.. فرفع زالاميرو صوته:

-سيدي القائد!

استدار فونسيكا جانباً وغيَّر بما يشبه العفوية الأنغام الصادرة عن مجمل حركته التنفسية..

-فونسيكا..!

كان زالاميرو ناجحاً في استعمال هذه اللهجة الحادة الآمرة التي اقتبس طريقة الاستعانة بها من زملائه الألمان العاملين في الجهاز الأمني.. وفتح فونسيكا إحدى عينيه:

-(سيدي القائد..) كررها عندئذٍ زالاميرو بلهجة الضابط الإسباني الملتزم أبداً باحترام رؤسائه، حتى السكارى منهم، حتى المأخوذين بجريمة قتل.. دون أن ينحدر هذا الاحترام بصاحبه إلى الخضوع العبودي، واستطرد مهتماً:

-هل تشعر أنك أحسن حالاً.. سيدي القائد؟

فتح فونسيكا عينه الثانية.. وحتى في تلك الحالة حافظت نظراته الزرقاء على ما يكاد يفسر بالبراءة والإقدام.. وتمتم قائلاً: -ماذا يجري؟.. ماذا انا...

وحاول أن يتكئ على أحد مرفقيه، فخانته قواه، وارتمى بكل ثقله على المقعد.. حيث اصطدم قفا رأسه بإطار المقعد الخشبي المذهّب الذي يمثل أسداً هائجاً.. فأغلق عينيه لاتقاء العرق المتصبب من جبينه وطلب:

-اسقني.. اسقني شراباً.. لا أعرف من تكون ولكن اسقني شرابا... أي شراب..

كان زالاميرو يعلم أنه، إذا ما عاد الرجل يشرب من جديد ستفلت الأمور من يده لتصبح في يد أحد الأطباء وهذا ما يجب اجتنابه..

-سيدي القائد، أنت منحرف الصحة وحالتك خطرة وليس في نيتي أن..

-اسقني بحق السماء.

زمجر فونسيكا وهو يحاول النهوض دون جدوى..

قدم له زالاميرو قدحه الذي كان لا يزال طافحاً: -خذ.. انفلق!

لم يسمعها.. كان همه الاستيلاء على القدح وابتلاع محتواه دون أن يتنفس:

-آه! أشعر الآن أنني أحسن حالاً.. قالها بصوت أشبه بالصفير وهو يرتمي إلى وراء..

اجتاحت القشعريرة كيان زالاميرو. لم يكن محبباً إليه أن يرى ((بطل سان جيرونيمو دي أوردونا)) ممتقع اللون منتفخ الأوداج، تحيط بعينيه دائرتان سوداوان، اتسعتا حتى أكلتا البقية من خديه التي لم تغطها اللحية الطويلة، يتجمد على شفتيه مزيج من الزبد والدم.. الدم المتجمد على أعضاء جسمه وعلى قميصه وسترته وبنطاله المفتوح الأزرار.. وبذل زالاميرو جهداً لاستعادة تماسكه:

-سيدي القائد!

أطلق نفساً طويلاً عنيفاً وكان كل جوابه، الأمر الذي ضاعف من اشمئزاز زالاميرو، فأدار ظهره للصوفا في محاولة لتهدئة الرجفة التي انتابت كل عضو في جسمه، وفجأة تذكر..

تذكر أنه، قبل قليل، اتصل بفالز الحاكم المدني ليخبره أنه أصبح عند القائد فونسيكا الموقوف من قبل الحرس المدني، وأنه تلقى من الحاكم بالذات النصح والتوجيه التاليين: - (.. خذه بلطف يا

زالاميرو.. هذا (...) قد أصبح اليوم بطلاً قومياً.. ولقد خدمني كثيراً كما تعلم.. خصوصاً بالنسبة لقضية (غارسيا لوركا).. ومازلت بحاجة للمزيد من خدماته.. لكل هذا حاول أن تنقذه من مأزقه مهما كان الحال.. أما إذا بدا لك ذلك مستحيلاً، عندئذٍ... (وسكت الحاكم قليلاً بعد عبارة (عندئذ..) هذا السكوت الذي اعتاد زالاميرو أن يفهم معانيه بكامل أبعادها..) ثم استطرد: - (.. عندئذٍ.. اتبع أفضل - الطرق.. وتجنب المضاعفات المثيرة حسب العادة المتبعة..)

استذكر زالاميرو كل هذا الكلام، وعلى ضوئه حدد موقفه وسلوكه: إن سمعته ومصيره وقف على خروجه من الحالة التي يعالجها بشكل ناجح..

-من أنت؟.. واستدار زالاميرو ليرى فونسيكا في رقدته الأولى يحدق فيه بعينيه الزرقاوين اللتين طالما أثرتا في البؤساء من الجنود، وفي صاحبات تجارب الحب الفاشل من النساء..

كرر فونسيكا:

-من أنت؟

قدم ضابط الحرس المدني هويته دون مداورة كما يجب أن يفعل بحضور السيدات: -الكابتن آكادو زالاميرو الملحق بمكتب الحاكم المدني لغرناطة.

-حسن! أنت واحد من أعوان صديقي فالدز.. إذن.. أعطني سيجارة.

كاد فونسيكا يختنق وهو يبتلع سحبة الدخان الأولى فطفحت عيناه بالدموع وتعكرت زرقتهما.. ثم استعاد قدرته على الكلام

فسأل: - ماذا تفعل في بيتي.. وقبل ذلك قل لي كم الساعة؟

نظر زالاميرو إلى ساعته ذات الأسوار: - الساعة الخامسة والنصف صباحاً سيدي القومندان..

عبر زجاج النوافذ كان من السهل التأكد من طلوع النهار وانتشار أنواره الأولى وراء أشجار الحديقة:

-فالدز هو الذي أرسلك طبعاً..؟ طيب!.. إذا كان قد أرسلك لتطلب مني، مرة أخرى، أن أنفذ، بدلاً عنه، واحدة من تلك (الضربات) القذرة التي يحتفظ بأسرارها، فاذهب وقل له أن يتدبر أمره مع سواي: أنا لم أعد فونسيكا الذي يعهد.. فونسيكا ماقبل سان جيرونيمو دي أوردونا.. إني أحمل الصليب الآن.. قالها بعبارات متمهلة، ساخرة، هجومية.. وأعقبها بضحكة عالية.. ثم استطرد: - هل سددت بوجهك بعض المسالك (يا صغيري) الكابتن؟

ثارت ثائرة زالاميرو لدى سماع عبارة (صغيري الكابتن) من فم هذا المخمور: - أرجو أن يعلم سيدي القومندان أنني لست هنا بناء على أوامر السيد الحاكم المدني.

-كيف.. أو ليس فالدز الذي أرسلك؟

-بشكل ما.. بشكل واحد فقط..

-ماذا تقصد؟

-جئت إلى لوس فيلز بناء على مكالمة هاتفية من قبل الحرس المدني أعطيت من هذا البيت..

مد فونسيكا يده نحو علبة السجاير التي وضعها زالاميرو قربه على الكرسي: -ماذا كان دخل الحرس المدني في هذه القصة؟

-هو الذي أوقفك يا سيدي القومندان.. الحرس المدني!

-سقطت السيجارة من بين أصابع يد فونسيكا:

-أوقفني؟ أنا؟ الحرس المدني؟ ولكن.. لماذا؟

تباطأ زالاميرو في الإجابة، فنهض فونسيكا على أحد مرفقيه وكأنه يتجنب الغرق في عرقه المتصبب وسأل بلهجة توسلية:

-ماذا فعلت يا كابتن؟!

-أولاً تذكر ماذا فعلت!

بدا فونسيكا وكأنه يسترجع ذاكرته: -لا أذكر شيئاً!

سادت مظهره مسحة من الصدق ما عتمت أن غطتها مسحة أخرى من الرعب فكاد زالامير يؤخذ بحالة من الخجل من معاملته له بكل ذلك الازدراء..:

-هل سبق لك أن فقدت ذاكرتك في مثل هذه الحالات؟

أجل.. هذا ما كان يحدث له: كان الكحول يمحو من ذاكرته كل الذكريات المزعجة وغير المحببة إليه.. باستثناء قطع موسيقية معينة.. وجوه - كلام.. كل ذلك كان كأس واحد يكفي ليمحوها وإلى الأبد. الخوف كان يختفي، ويختفي معه اليأس والحقد والحسد والبغضاء.. مع كل ذلك كانت السعادة أيضاً تمحي، حتى تلك الفترات الصغيرة المتقطعة الموسومة بالسعادة من حياة فونسيكا، كانت تختفي هي أيضاً..:

-ماذا فعلت.. يا كابتن؟

وبصوت خافت أجاب: -لقد قتلت امرأة يا سيدي القومندان.

رفع فونسيكا بشكل غريزي، عينيه نحو السقف: فوق رأسه تماماً توجد حجرة النوم التي عاش فيها، منذ زمن قديم جداً، تلك المرأة الشابة الشقراء والسعيدة التي أصبحت تكرهه.

استدرك زالاميرو دون أن يدري ماذا تعني تلك الحركة:

-لا! ليست هذه.. السيدة فونسيكا بكل خير!

حرك فونسيكا رأسه كما يفعل الفيل الجريح وسأل:

-من تكون.. إذن؟!

-لافارول!

هبط الفك الأسفل لفونسيكا وكأنه سينفصل عن باقي وجهه:
-(ماذا... ماذا تقول أنني فعلت؟)
-لقد قتلت لا فا...
-لا! أطلقها صرخة طويلة يحسب سامعها أنها لن تنتهي.
-بلى سيدي القومندان.. ومنذ ساعتين بالضبط في ملهى ((الأنجيليتو ريبيو)): رصاصتان في العنق.. رصاصتان في البطن.. رصاصة في الرأس، في الصدغ الأيسر تماماً، أطلقتها عليها وهي تختلج وبعد أن أصبحت بحكم الموقوف..

أجهش فونسيكا بكاء، غرق في نشيج طويل صامت، وسيل من الدموع فتح مجاريه خلال شعر لحيته الطويل.. لم يحتمل الكابتن زالاميرو طويلاً ذلك المشهد، فاستدار من جديد ودون مقدمات سأل:
-لماذا فعلت هذا سيدي القومندان؟
- لا أذكر شيئاً من هذا.. قلت لك ذلك، لا شيء إطلاقاً!
- واستطرد بلهجة حادة، عصبية، متعالية ساخرة...
- لا تخرجني عن طوري بالسفاهات وأعلم قبل وبعد كل شيء أني أنا (كروز لورادا).

شد زالاميرو قبضتيه ولجم صرخة كادت تنطلق مدوية:
- ما يعوزك - قبل كل شيء - هو أن تجد تبريراً لجريمتك وأنت ماثل أمام المحكمة العسكرية، وهي الصالحة لمحاكمتك
- المح...

لم يطق فونسيكا لفظ الكلمة كاملة.. وبلهجة الرفض قال:
- أنا كروز لورادا دي سان فرناندو..
- ما انت إلا قاتل..
- لا اسمح لك..

قالها وهو يحاول النهوض..

عاجله زالاميرو بكلمة رمت به كالخرقة على مقعده... وقال له بلهجة حاسمة هذه المرة:

- أنا لست هنا لأتلقى أوامرك وأخضع لها...

وبعد تردد، تابع:

- أنا هنا كي..

وعاوده التردد، مما أعاد إلى عيني فونسيكا بريق الأمل:

- ماذا.. قل.. أنت هنا من أجل ماذا؟

خفض زالاميرو رأسه وأجاب: - أنا هنا لأحاول إنقاذك سيدي القزومندان.

- بأية طريقة؟

-السبيل الوحيدة إلى ذلك أن تقول لي الحقيقة..

أحنى فونسيكا منكبيه المثقلين وقال: -لا أستطيع.. لا أذكر شيئاً أقسم لك.. لاشيء قط!

أدرك زالاميرو أن فونسيكا كان يقول الحقيقة فدخل معه من باب آخر:

-إذن لنحاول معاً التفتيش عن السبب الذي يمكن أن يكون هو دافعك إلى ارتكاب القتل.

لاح على محيا فونسيكا ما يشبه الإشراقة وعقب: - لنفتش! تولدت لدى زالاميرو وقناعة أن فونسيكا يتهيأ للعبة ستوقعه في الشرك، فقرر مماشاة تلك اللعبة بكامل إرادته:

-هيا، يازالاميرو، إطرح علي أسئلتك...

انحنى زالاميرو فوقه وهو على أتم الإدراك لخطورة ودقة موقفه وظروفه: -سيدي القومندان، ماهي، بالتحديد اللحظة التي تبدأ فيها تفقد ذاكرتك؟

وضع فونسيكا وجهه بين راحتيه وحاول الإجابة محاولة أولى.. ثانية.. خانه لسانه الذي جمد في حلقه.. تحرك مرة واحدة.. كلمة.. طلب مزيداً من الشراب.. كان زالاميرو يجاهد نفسه كي لا يخرج عن طوره فقال بحدة:

-لكن.. سيدي القومندان!

أخذ الآخر يضحك، ضحكة الألم المنفصلة عن كل ما يمكن أن نقرأه في قسمات وجهه وفي ناظريه: - يازالاميرو أنت لا تفقه شيئاً من أمور السكيرين! نعم.. أنا سكير.. من يستطيع أن ينكر ذلك؟.. أن الكحول، والحالة هذه، يسلبني الكثير من وسائلي، ويمدني أيضاً بالكثير من هذه الوسائل في نفس الوقت.. حسب الظروف والمناسبات.. خذ ذاكرتي مثلاً: لأنني كنت في أعلى درجات السكر حين أطلقت النار على بيريكا، لا أذكر شيئاً مما فعلت، إلا أن قدحاً مترعاً من الكونياك يكفي لأن يعيدني إلى نصابي.. ضع ثقتك بي يا زالاميرو فأنا أعلم عن أي شيء أتكلم..!

قرر زالاميرو الدخول في لعبة أخرى، غير التي يزينها له، فونسيكا ولكنه تذكر توجيهات وأوامر الحاكم: (.. حاول أن تخرجه من مأزقه مهما كلف الأمر وإذا بدا لك ذلك مستحيلاً عندئذ...)

قرر زالاميرو أن يدخل اللعبة وظهره إلى الحائط، وقدم للقومندان قدح كونياك طافحاً حتى الجمام: - والآن، اصغ، إلي جيداً، في هذه القضية لا أجد سوى فرضيتين اثنتين:

الأولى أنك فقدت فعلاً الذاكرة بالنسبة لما جرى في أنجيليتو ريديو.. والثانية أنك تكذب عليّ: ولنقف الآن عند هذه الفرضية الأخيرة.. لقد قتلت (لافارول) لأسباب لا تعني أحداً سواك وهذا هو التفسير لكتمانها عني، بمعنى أنك ستظل تكتمها حتى أمام المحكمة

العسكرية وسيحكم عليك بالإعدام رميا بالرصاص، الأمر الذي لابد لك أو لي أو للحاكم فالدز من تلافيه.. أنت بطل قومي وسقوطك في حمأة العار لا يمسك وحدك بل يمس شرف البلاد كلها.. إذن، سيدي القومندان، أريد أن أسهل الطريق وأمهدها أمامك، الأمر الذي يسمح لك بمغادرة غرناطة موفور الكرامة..

ارتجفت فرائص فونسيكا لدى سماع عبارة (مغادرة غرناطة.. فهي تعني العودة من جديد إلى ميدان القتال والبدء من الصفر وطفت على وجهه موجة من الاستحياء لتغطية نظراته التي بدت وكأنها تستجدي.. وواجه زالاميرو كل ذلك بابتسامة.

-أنت تخطئ جادة الصواب في تفكيرك يا سيدي القومندان.

قال ذلك ثم عبأ مسدسه وناوله لرئيسه: -الآن - شرح زالاميرو بصوت جاد - أريد أن أطلب منك السماح لي بالابتعاد خارج الغرفة خمس دقائق، على أمل أن أعود إلى هذه الصالة لأجد فيها جثة بطل سان جيرونيمو دي أوردونا وسيعلن بعد ذلك أنك مت بحادث أثناء قيامك بتنظيف هذا السلاح.. هل أستطيع الاعتماد عليك بذلك يا سيدي القومندان؟

قبض فونسيكا على المسدس من جهة فوهته وهو ينظر إلى زالاميرو فاغرا فمه، جامد اللسان، فانحنى هذا الأخير انحناءة خفيفة واستدار بحركة نظامية وبخطوات بطيئة قطع الصالة باتجاه الباب حيث انتظر عدة ثوان ويده على قبضة الباب: لم يحدث شيء، فقال بصوت منخفض:

-أستودعك الله سيدي القومندان.



في الرواق الذي بدأت تغمره أضواء الصبح الباكر، فوجئ الحارسان المأخوذان بنعاس ثقيل، وسلاح كل منهما بين فخذيه، ووقفا باستعداد..

وأبصر زالاميرو، لصق الباب الذي أغلقه لتوه، تسريحة شعر السيدة فونسيكا: لقد جمعت شعرها كله في جديلة ثقيلة انسدلت على عنقها باتجاه النحر..

-لن يقتل نفسه..

قالت والشعاع ينطلق نافذاً من عينيها، فتراجع زالاميرو غريزياً خطوة..: أن الغضب يليق بهذه المرأة ويزيد من روعتها.. كان وجهها محتفظاً بنضارة الشباب، وهي ترتدي فستاناً أسود، جد بسيط، وفوقه (جبة) ضافية، طويلة، تكنس الأرض.

-كيف عرفت ذلك يا سيدتي؟

-لن يقتل نفسه. وأومأت إلى الحارسين وكأنها تتخذهما شاهدين ثم أضافت:

-هذا جبان!

ظهر الحرج على الحارسين فخفضا بصرهما، واعترى زالاميرو والخجل من هذه المرأة التي تلاحق بحقدها سكيرا في حالة مشفقة.. تلاحقه حتى وهو على مشارف الهلاك:

-لا تقولي هذا يا سيدتي.. في سان جيرنيمو...

قاطعته بضحكة صماء وقالت:

-في سان جيرنيمو كان ينتظر أحداً سواه يؤدي له هذه الخدمة: يقتله.

-ربما كان ذلك يا سيدتي إلا أنني لا أسمي هذا جبنا..

تابعت ضحكتها الأولى:

-تعجبني شجاعة الرجال عندما تظهر وراء الجدران الأربعة لغرفة مقفلة وليس على ملأ من الناس أمام جمهور خاضع لمؤثرات الخوف والبلاهة..

في كل كلمة من كلماتها تلك تجلت النبرات الحادة للنساء المهجورات. قال زالاميرو وكأنه يحدث نفسه:

-كل يعد شجاعته كما يتهيأ له ذلك..

أكدت للمرة الثالثة: -لن يقتل نفسه!

تمنى زالاميرو وبكل قواه أن يسمع الطلقة المحررة تصدر عن الصالة، لكن الصمت طال ونازعته تلك الأمنية: تصور فونسيكا يدندن كلمة وداع على البيانو.. تصوره يصلي.. تصوره يحدق بالعين السوداء للمسدس دون أن يضغط على الزناد، لكأن الزمن يمر بشكل لا يتوافق قياسياً مع الثواني التي كان يعدها واحدة واحدة رقاص الساعة الزائفة من نموذج لويس السادس عشر:

- سيدتي، أريد أن أغسل يدي..

- في آخر هذا الممشى.. الباب الأخير على الشمال..

غادر زالاميرو المكان بسرعة أكبر مما يبغي، وعاد بعد دقائق ليجد السيدة فونسيكا مسمرة في مكانها، وليجد الحارسين الجالسين يقفان باستعداد.. جمد لحظة في مكانه ثم توجه نحو باب الصالة وهو يسمع السيدة فونسيكا تحيطه علماً:

-لم يقتل نفسه.

أحس زالاميرو أن معدته تتقلص، وتابعت هي:

-لقد كنت على صواب..

-وأنا أيضاً يا سيدتي!

-كيف ذلك؟

-إن زوجك، وهو يصمم على البقاء حياً، يظهر أكثر شجاعة منه لو أطلق رصاصة على رأسه.

ظهرت عليها الدهشة فسألت:

-أو تعتقد ذلك.. حقاً؟!

-لقد سجل نقطة لصالحه وأراد اغتنامها.. تودين لو كان ذلك حقيقة أليس كذلك؟

-نعم.. كنت أود..

تجنب زالاميرو نظراتها، فالانسياق العاطفي كان أحد نقاط ضعفه، وعلى كره منه كان يشفق على النساء اللواتي يلنّ بتأثير كلمة واحدة.. امسك مقبض باب الصالة وهم بالدخول، ولكنه، وجد نفسه يلتفت وراءه ليسأل:

-سيدتي.. تستطيعين أن تقولي لي لماذا قتلها؟

وضعت ذراعيها على صدرها بشكل متصالب، وكأنها تستمد الثقة من وقفة كهذه ليست للنساء عادة:

-عندما يسرف زوجي في الشرب يصبح قادراً على فعل أي شيء..

ولجأت إلى الغضب، من جديد، فرفع زالامير ورأسه:

-كل شيء ماعدا القتل.. القتل ليس عملية سهلة..

لم تعقب على هذا الكلام، فشرح زالاميرو كلامه:

-أريد الوصول إلى معرفة الحافز.. المحرض الحقيقي..

-الحافز؟

-نعم.. الحركة، الكلمة المثيرة التي استطاعت فجأة نقله إلى موقع الشعور بالحاجة إلى أن يقتل.. لملمت السيدة فونسيكا أفكارها وقالت:

-قيل لي إن تلك المرأة وجهت إليه شتيمة فظيعة..

نظر زالاميرو في عينيها وقال:

-لقد وصفته بزوج الخائنة..

ارتسمت ابتسامة ازدراء على شفتيها:

-بالنسبة لي أنا لم يكن كذلك.

-من ذا الذي يشك في ذلك يا سيدتي؟

بمزيد من الازدراء أضافت: حتى لو كان الأمر كذلك، ما من أحد في العالم يعرف كيف يقنعه بصحة ذلك.

-هذا ما يشرفك في جميع الحالات.

-ليس شرفي وقفاً على هذا النوع من المديح..

أوشك أن يبتسم ثم تحفظ: إن التواطؤ أو التوافق في الرأي بين رجل وامرأة كان، في نظره أشد خطراً من أية علاقة جنسية.. فسلك منعطفاً آخر وبلهجة مرحة استطرد:

-إذا كان هناك من خدع زوجك وخانه. فهو، باعتقادي، لافارول نفسها التي فعلت ذلك، ولأسباب غامضة تباهت بفعلتها أمام الجمهور في الملهى.

ونظرت إليه السيدة فونسيكا بشيء من الاستهزاء:

-تعتقد أن زوجي قتل لافارول لأنها كانت تخونه؟

-هذا ما يبدو لي ممكناً..

لافارول كانت بغيا..

-ماذا إذن..؟

-البغي لا تخدع أحداً.. ولا يدخل ذلك في شرعة مهنتها..

- قد يدخل في شرعة زوجك.

- زوجي ليس رجلاً سوياً، مستقيم النهج.. زوجي سكير..

رفعت شال الصوف الأسود فوق كتفيها، حتى أصبح يغطي عنقها، وقالت تهز رأسها: لا!

فتش عن أسباب وعوامل أخرى..

فتح زالاميرو باب الصالة ثم أغلقه لدى سماعه السيدة فونسيكا تقول:

-تحدث معه عن لوركا.

-لوركا؟

-قد يكون هذا هو المحرض الذي تبحث عنه.. الكلمة التي حركت المأساة.

-لوركا؟

-رأيت زوجي يفقد صوابه لمجرد سماعه هذه الكلمة!

وأضافت بصوت حاد: - هذا الاسم هو الذي قتل ولدي..

-سيدتي.. هل تستطيعين أن تكوني أكثر وضوحاً..

-وضوحاً.. إذا كان هناك أحد لديه أشياء غامضة تحتاج إلى توضيح فهو زوجي دون غيره.

عند ذلك.. فتح زالاميرو باب الصالة وهو عازم ألا يدخل أكثر في لعبة تلك المرأة: لابد من الحذر أن يكون هناك طعم يمد له لمشاركتها أحقادها والتأثر بضغينتها: لوركا، اسم يقتل.. يفقد حتى السكيرين صوابهم.. اسم يدفع إلى ارتكاب جريمة قتل..

هراء! أغلق زالاميرو الباب وراءه ليجد فونسيكا قاعداً على الصوفا وبين قدميه، على الأرض، قدح من الكونياك والمسدس يتأرجح معلقاً بسبابة يده اليسرى.. فرفع رأسه وابتسم لزالاميرو!

هل خاب ظنه؟ لا. لم يبلغ الأمر بضابط الحرس المدني هذا الحد.. إن الانتحار ليس في نظره عمل الرجال بل الدمى:

-كنت سأفاجأ سيدي القومندان لو أنك هربت بالسهولة المطلوبة إليك..

ناوله فونسيكا المسدس وقال:

-كان يمكن أن أفعل لو وجدت نفسي أمتلك وسائلي امتلاكاً كاملاً، ولكني، كما ترى، مازلت ثملاً.. إذن أنا مازلت متفائلاً.. قال فونسيكا هذا وقذف برجله قدح الكونياك باتجاه محدثه واستطرد:

-أقول هذا وأنا لست سكران إلى حد اليأس من مستقبلي المباشر.

أعاد زالاميرو المسدس إلى حمالته الجلدية اللامعة وقال:

-أنت موقوف سيدي القومندان.

انحنى فونسيكا مستهزئاً وقال:

-لم أكن أنتظر أقل من ذلك.. ولكن هل أستطيع أن اعرف السبب؟

-جريمة قتل سيدي القومندان.

-قتل بغي؟

-المحكمة وحدها هي التي تقرر أولاً أخذ مهنة الضحية في الحسبان.

-الحاكم فالدز سيفعل ذلك ولاشك.

-أنا على يقين من ذلك.. الحاكم فالدز ليس الرجل الذي يترك أصدقاءه يسقطون، وبالمناسبة ألا تعتقد سيدي القومندان أن من الأفضل لك أن تسهل له الأشياء؟

أخذ فونسيكا قدح الكونياك من على الأرض، وتناول منع عدة جرعات متتالية ثم سأل:

-ماذا تريد أن تقول؟

-ما من أحد يقتل دون سبب يا سيدي القومندان، فماذا كان السبب الذي دفعك أنت للقتل؟

تلمس فونسيكا ربطة عنقه وفك زر قميصه:

-كان يلبس قميصاً من النوع الذي يرتديه سائقو الشاحنات في الأفلام الأمريكية، وكانت شعرات شقراء لامعة تتجمع عند أسفل العنق:

-لا أذكر شيئاً.. كم مرة يلزمني أن أكرر هذا القول؟

أعطاه زالاميرو وقتاً لاستعادة هدوئه.. رفع القومندان قدحه، وكان فارغاً، فتجاهل زالاميرو إشارته تلك:

-سيدي القومندان، هل صحيح أن لافارول اتخذت لها عشيقاً خلال فترة وجودك محاصراً في سان جيرونيمو دي أوردونا؟

خفض فونسيكا رأسه وهو يسند مرفقيه إلى ركبتيه ويسدل يديه:

-صحيح.. كان غجرياً يدعى (كارلوس أورتيفا) وهو دون بيريكا سناً بعشر سنوات.. كانت دائماً تحب اللحم النضر ولم أكن سوى عارض لا يقبل إلا في أسوأ الاحتمالات!

-من أجل هذا قتلتها؟

راح فونسيكا يضحك في هدوء:

-لو كان عليّ أن أقتل لافارول كل مرة خانتني..

-هل قتلتها بسبب الشتائم التي وجهتها إليك على ملأ من الناس في الملهى؟ هذا السبب قد يكون كافياً بالنسبة للحاكم.

رفع فونسيكا رأسه وقال بدهشة ظاهرة:

-أية شتائم؟

تراجع زالاميرو خطوة وقال:

-لقد قالت لك (زوج الخائنة) سيدي القومندان.

-هذا ماكنته، في الأنجيليتو، وكل الناس يعرفون ذلك، وإذا أردت

معرفة كل الحقيقة، فليس لذلك كبير أهمية عندي..

كان فونسيكا يبدو فاقداً كل حيوية بل ومنافقاً في عرض الأمور.. ولو كان فونسيكا صديقاً له لخطر له أن يصفعه:

-سيدي القومندان، أرجوك، أبذل جهداً ما، يلزمني أن أعرف لماذا أقتلها..

-ولكن.. ما الأهمية التي تعلقها على ذلك؟ بغيّ! أية قيمة للبغي في الحساب؟!

-القيمة هي أن تعطي للسيد الحاكم سبباً وجيهاً.. فبحق السماء، ساعدني ولديّ أوامر بعمل أي شيء لتخليصك من المأزق.

انتفخت أوداج فونسيكا كأنه طفل يشرع في البكاء.. وتمتم:

-يجب أن تكون قد قالت شيئاً.. شيئاً ما لم أستطع احتماله..

-لكن.. ما هو هذا الشيء؟

هز فونسيكا رأسه بحركة يائسة: -لا أعلم!

وضع زالاميرو قبضته على منكبي القومندان بشكل أشاع السكون التام في كل أعضاء جسمه وقال:

-سيدي القومندان، هل لفظت، مثلاً اسم لوركا؟



نزلت الكلمة على فونسيكا نزول الصاعقة، وأحس في رأسه ما يشبه دوي الانفجارات: صرخات.. صور.. موسيقى.. وجوه.. بيرنيكا.. أورتغا.. عازف القيثار.. وجوه أخرى مجهولة.. وجوه زبائن.. حاول النهوض، لكن قبضتي زالاميرو سمرتاه في مكانه.. لقد أفزعت ضابط الحرس المدني تلك الغلواء المفاجئة التي ظهرت على رئيسه في تسلسل المراتب.. لقد أصبح هش الكيان، وانتابت الرجفة شفتيه ويديه، حتى

نظراته.. وسأله زالاميرو بكل تحفظ:

-أرى أن ذاكرتك قد عادت إليك سيدي القومندان؟

نعم.. لقد عادت الذاكرة.. بسعة مدهشة.. وبسحر كلمة واحدة معينة: لوركا! كل الأسرار تكمن هناك، في تلك الكلمة.. لقد عادت به الذاكرة إلى نفس المكان، هناك، عاد يتنشق نفس الروائح، روائح الخمور والثوم والتبغ والعرق النسائي.. والثمار.. ويسمع الضحكات الوحشية وأصوات السكارى.. يرى سعف النخل المتشابك، المتدلي، والمتكسر.. ومن ثم الألوان: بياض الجدران، لون القيثارات الذهبي..

فستان بيريكا الأخضر والبنفسجي- الثوب الذي نزعته عنها ليلة لقائهما الأول.. وحتى السواد الغامق المحيط بأظافرها.. وحتى الأحاسيس: الاشمئزاز الذي أثاره في نفسه منظر ردفي كالاليتوس أورتغا المكورين الصلبين المرصوصين كردفي امرأة ترتدي بنطالاً بوهيمياً.. والغضب الذي استبد به هو البطل، العشيق للوهلة الأولى. لما امتدت يدا لافارول لدغدغة ردفيه ومداعبتهما.. و

-سيدي القومندان.

-اخرس!

إن الذكرى تتوضح بشكل أكثر دقة. إن لافارول ماثلة الآن أمام ناظري فونسيكا، لكأن يده تلمسها: إنها كبيرة، ملمومة، مهيمنة، شعرها الكثيف يتدلى إلى تحت الخصر وجلدها المحرق بفعل الليالي البيضاء ومطالع الفجر الندية، وفمها الأحمر النهم المعد لكل شيء: الأفضل والأسوأ على حد سواء، مع ميل أكبر إلى السوء.. كانت تضربه.. تصفعه.. بتلك اليدين العريضتين السمراوين والأظافر المعقوفة كالخناجر المغربيّة، وهو يتلوى عارياً أمامها.. هو (المحارب الذي لا يُقهر) والذي عاش دائماً حلمه وتطلعاته بأن يكون (عبداً..

وتابعاً!).. كانت تعشق البنفسج وعطره ولحم البغاء، والجنس القوي المنفتح المستعد.. كل تلك (الروائح) كانت تجعله مجنوناً، خارجاً عن حدوده التي تحترمها وتتقد بها، بدافع الغريزة، حتى الحيوانات، ومتنكراً لتلك الحدود كلها..

-إذا أردت سيدي القومندان.

أبعد فونسيكا عن مضايقه بإشارة من يده.. إن كارليتوس أورتيغا أيضاً كان هناك، قرب أنثاه (أنثى الاثنين معاً)... كان يرميه بحراب عيني الفاتح الذي قادته انتصاراته السهلة إلى التعالي والاستهتار: لقد كان جميلاً ذلك الغجري، كانت قسمات وجهه بوهيمية، كان يتحلى بصفات أجداده: المهارة في السرقة والتقبيل والطعن بالخنجر! جسمه شبيه بغصن بان، خفي العقد.. يده، نهداه، ردفاه، كأنهما الماء المتحرك الراقص، الذي يستحيل القبض والسيطرة عليه ومداعبته وشربه، يرتدي ثياباً سوداء غجرية، لاصقة بالجسم، بحيث تبرز الثديين النافرين والبطن المسطح كسهل مطروق.. والخصيتان: كل المفاتن ومواطن العهر المثيرة لحواس الجنس تبرزها ملابس البوهيمي وطريقة ارتدائها التي أتقنها أبناء جلدته.. كانت قدما الغجري صغيرتين، تتنعلان خفافة من جلد الإبل كحلية عالية العقبين، لماعة، من النوع المصنوع خصيصاً للرقص والألعاب البهلوانية والسياح الإنكليز. إنها تزيد في طوله وهو الذي يظل، حتى لو كان حافياً، ينظر من عل إلى كل شيء.. وفي كل أوان: الناس.. الأشياء.. النساء.. وحتى القومندان فونسيكا!

كان يبدو على لافارول وعشيقها أنهما خارجان لتوهما من سرير البغاء.. رخاؤهما السعيد يفيض ويتوزع كالشتائم على رواد الملهى المتحلقين حولهما، حياهما عازف القيثار وهو يحرك آلته ويرتب

الأقداح على الرف المثقل بالزجاجات.. النساء لوحن بأكمامهن للغجري اللامبالي، بينما ظل الرجال أكثر تحفظاً، يسترقون النظر إلى أرداف لافارول التي لم يتحدد قط ثمنها بالعملات النقدية المتداولة..

كان فونسيكا يتحامل على نفسه، يتابع مجرى الأمور، وكل همه أن يثبت للتي كانت لا تزال بحكم عشيقته أنه يعرف كيف يكون رجل حرب ورجل صالون، وكيف يكون أيضاً، عند اللزوم، عشيقاً أعمى قوي المراس.. لقد سبقهما إلى الملهى بعد ساعات: زجاجتا (بيوبيب) أصبحتا فارغتين قدامه وطلب الثالثة..:

-فارول، أشرب على صحتك! ورفع قدحه وهو يتحدى نظرات الغجري وتابع: - (وعلى صحة ابن البغي هذا الذي يعرف كيف يجعلك سعيدة).

ساد الصمت في الصالة.. لم يحرك الغجري ساكنا، عيناه السوداوان الآسيويتان أصبحتا أكثر قتاماً. وقالت لافارول بصوت مرتفع: -كارلوس اشكر القومندان واشرب معه..

قال الغجري: -(شكراً) وابتلع قدحه، ومثله فعلت لافارول، ثم قالت للشباب: - والآن عليك أن تُري هذا السيد، رأي العين، لماذا أنا سعيدة..

-ازداد الصمت عمقاً وكثافة.. رجال ونساء من آخر الصالة أصبحوا وقوفا يرقبون مجرى الحدث: قفز عازف القيثارة فوق حاجز المسرح وتقدم.. قيثارته في يده، وضع على الرف قدحه الفارغ، وبهدوء أخذ مكانه قدام لافارول.. فخذاه منفرجان قليلاً وعجزاه مقوسان، ثم، وبهدوء مثير، فك بأصابعه أزرار بنطاله التسعة، فظهر عضوه التناسلي نافراً عظيماً مستعداً.. حول الغجري قطع الناس أنفاسهم، وكانت غاجيرا ستلقيه على دكتها والعرق يتصبب منها، وعلى مهل انطوى

الفجري على نفسه ورفع ذراعيه فوق رأسه.. يداه تلوحان في الهواء وعضوه التناسلي يزداد كبراً.. ندت ضحكة من إحدى النساء أعقبتها صفعة قوية.. أحد الحضور حطم قدحه.. وأخذت لافارول العضو بيديها، وشدت عليه طويلاً، فأغمض الفجري عينيه الواسعتين، الشفافتي النظرات وتحولت شفتاه إلى جرح رقيق مفتوح وراح يلهث.. ودام المشهد دقيقة تقريباً وعندها طلبت منه لافارول:

-تعال (كورازون). تعال إلي...

ارتمى رأس الفجري إلى الخلف، ومن جوزته الرخصة كجوزة البنت خرجت غرغرة مبحوحة لانهاية لها.. وفتحت لافارول كفيها المليئتين من (دم الحب).. أدارت حولها نظرات لا تبصر.. لم تبصر سوى فونسيكا ثم تنهدت:

-أرأيت بعينيك لماذا أنا سعيدة؟

كان ثمة رجل شيخ يرتدي قبعة جلدية يراقب المشهد دون أن يتحرك من مقعده، أطلق صرخة (أولي) ملأت المكان فأخذت لافارول قدحها الفارغ ومدته نحو (تيو كاجيرا) لتملأه ثم ناولته للفجري:

-خذ.. (كورازون) اشرب واستعد لجولة أخرى!

شرب الفجري على مهل، وهو صامت دائماً، دمث ومطيع دائماً، لا يبدو التشنج إلا على أصابع يديه..

وفجأة جاءت لافارول صوب فونسيكا وانتصبت قدامه وقالت بصوت التحدي:

-والآن أرنا إذا كنت تستطيع أن تفعل ما فعله ابن البغي؟

كان ظهره مسنداً إلى حاجز البار فاتخذ موقفه: راح يضحك ضحكة مدوية.. طويلة: -آه! فارول.. ستظلين دائماً أنت.. لا تتغيرين. وبتلويحة من ذراعه شملت الصالة كلها وجه (العزيمة) إلى الجميع:

-إلى الشرب.. إلى الشرب جميعاً!

انقطع حبل السكون فسادت الجلبة.. تكاد تصم الآذان.. علت ضحكات النساء المقرقعة المحمومة: كن ينظرن إلى رجالهن بعيون جديدة بعد اكتشافهن هذا المقياس الجديد للفحولة، يرافقه اكتشاف آخر لخيبة أمل وحشية وعقد غامضة في الأحشاء.. وهذا في نظرهن يعطي بريقاً كبريق الحلية. أما الغجري، فقد ظل سادراً في تعاليه.. ذراعه حول عنق لافارول.. ضحكة رقيقة مستهزئة على شفتيه الرقيقتين.. كذلك ظل وهو يتحمل ردود فعلته على الناس المحمومين المبهورين.. فيما كانت كيجارا تفتح القناني بحركة آلية وهي شاردة الذهن.

أشار فونسيكا إلى عازف القيثار كي يقترب:

-مانولو اسألي كارلوس اورتغا ماذا يريد أن يغني لنا.

تصلبت قسمات وجه الغجري وأجاب بصوت عال وذكي:

-هذا المساء، ابن البغي تعبان.. ابن البغي لن يغني لأحد..

عاد الصمت من جديد ليخيم على الصالة.. صمت من النوع الذي تتحسسه الحيوانات، وبغرائزها تدرك أنه يسبق العاصفة.. أو المعركة.

قال فونسيكا بهدوء:

-ستغني من أجلي.

ابتسم الغجري وبدت الابتسامة شتيمة:

-لن أغني اليوم من أجلك يا بطل، لا اليوم ولا بعده، إلى الأبد!

وقف فونسيكا على طول قامته، ولاحظت لافارول أنه كان يترنح من السكر: - ستغني من أجلي.. وفوراً!

أجاب الغجري وبصوت دبق ثقيل، وبهدوء قاتل: -كلا!

-بلى!

في يد فونسيكا اليمنى كان يوجد هذه المرة، مسدس.. مسدسه الخاص بالضباط الذي لم يفارق جنبه منذ سان جيرونيمو دي أوردونا.. حاول أن يكون حليماً فاكتفى بالتأكيد:

-هيا.. عن- كانت فوهة المسدس مصوبة إلى بطن الغجري واصبع القومندان على الزناد بعد أن رفع صمام الأمان.

فوجئ الناس بضحكة عالية أطلقها الغجري وهو يقول: لا! عرفت لافارول ان فونسيكا سيطلق النار، فأشارت بيدها إلى الرجلين إشارة، قابلها الغجري بدهشة، واعتبرها الآخر انتصاراً... وقالت:

-غن ياكارلوس غن من أجل هذا (زوج الخائنة).

وانطلقت صرخة (أوه) من امرأة وراء لافارول، بينما كان الحضور، كل منهم مسمر في مكانه، والعيون - كل العيون - مشدودة إلى يد القومندان اليمنى.. وتحول المسدس شيئاً فشيئاً صوب لافارو، التي سألت بتلك الكبرياء المستهترة التي يظهرها مصارع الثيران وهو راكع يسلم نفسه من قفاه للثور الهائج:

-زوج الخائنة.. ما هي الأغنية التي تود سماعها؟!

كانت بكل هدوء، وبصوت كالعواء صاحت إحدى النساء في الصالة: (زوج الخائنة.. زوج الخائنة!) وتناقلت كل الأفواه الشتيمة الكبرى التي يجب أن يسيل الدم لأنه وحده يغسلها صاح قرب فونسيكا رجل وكأنه كان يصفر بين أسنانه:

- (اقتلها!) لكن فونسيكا لم يطلق النار بل أجاب ببروة وتعال لا حد لهما:

-لا فرق عندي.. الأغنية التي يختارها.

خاطبت الغجرية صاحبها ساخرة: -الأغنية التي تريد!

تحول الغجري نحو عازف القيثارة، ولم يحتج أن يقول أية كلمة فتحركت أصابعه النافرة العقد، المخضبة بالنيكوتين، ونقر نغماً مقعراً عميقاً.. تقدم كارلوس أورتيغا خطوة في وقفة جانبية شامخ الرأس بحيث أصبح ذقنه موازياً لأعلى كتفه.. حتى الرجال أعجبتهم الوقفة وبدا لهم فيها جميلا..:

-لا أريد أن أغني.. أريد أن أنشدك قصيدة.

ودون أية انحناءة من رأسه تحول نحو صاحبته: -فارول اسأليه.. هل يروق له هذا؟ فسألته:

-هل يروق لك ذلك؟

هز فونسيكا كتفيه وأجاب: -نعم يروق لي ذلك!

رفع كارلوس أورتيغا مرفقيه حتى أعلى رأسه فظهرت راحتاه الجميلتان النسائيتان وهما تقبضان الهواء، وفجأة غابت كل معالم وجهه المميزة وانطلق صوته مرتجفاً هادراً:

Mi Soledad Sin Descanso
Ajos Chicos De Mi Cuerdo
Y Grandes De Mi Caballo
No Se Cierran Por Lanoche
Ni Miran Por Lado
Donde Se Aleja Tr Anquillo
Un Sueno De Trece Barcos

سكت النوري قليلاً عند المقطع الأخير، استعداداً منه لاستئناف الإلقاء بصوت أعلى، فوضعت لافارول إصبعها على فمه وهي تلتفت صوب فونسيكا وتصرخ:

-والآن.. يا فونسيكا؟!

-الآن.. ماذا؟

-هل تحب...؟

لم يسمع السؤال الأخير: الحرارة.. وطأة وتأثير المشهد السابق.. الغضب الوحشي الذي حاول عبثاً كبحه.. تفاعل هذا مع الكحول الذي كان يبتلعه بمقادير كبيرة.. كل هذا دفعه للوقوف.. لمحاولة التماسك واقفاً وهو يتساءل محدثاً نفسه:

- (ولكن.. ماذا أنا فاعل بهذا المسدس الذي في يدي..؟)

ووجد صعوبة في فتح عينيه شبه المغمضتين لما استجوبته لافارول، والخبل والغم يكادان يحجبان عنه رؤية الأشياء.. زوج الخائنة.. لقد نادته كذلك (يا زوج الخائنة!) إنها لقادرة أن تقول أو تفعل ما تشاء وهي مخمورة.. حتى صاحبها.. صاحبها أيضاً ناداه بنفس العبارة: -(زوج الخائنة!).. ومن يكون صاحبها ذاك!؟ غجري!؟ متى كان ممكنا أن يحدث مثل هذا.. وعلى لسان الغجر الذين كانت الخيانة بعض طباعهم وتقاليدهم..! ولكن.. لماذا يشعر بصدمة، وتهزه تلك الصدمة لأن بغيا عاشرت - من وراء ظهره - واحدا من أبناء الكهوف ورواد الخمارات..؟ أحس في قرارة نفسه ببشاعة تورطه المستمر في هذا المنزلق.. وهم باستدعاء صاحب الحانة لمحاسبته بمصاريف ليلته تلك، ثم العودة إلى (لوس فيلز) حيث يتقيأ كل ما في جوفه ويستلقي في فراشه.. وينام! لكن لافارول خاطبته وهي تهزه من ذراعه:

-لماذا لا تجيب، أتحب..؟

-هذا.. هذا جميل.. جميل جداً.. لأن هذا الشعر؟

لم يفهم أولاً ابتسامة لافارول العريضة التي كشفت عن كل أسنانها.. أسنانها الحادة المقرنة النتنة التي يتخللها سنان ذهبيان، فكرر سؤاله بشيء من الفضول:

-لمن هذا الشعر؟

-للوركا!

تقصدت التشديد على مقطعي الكلمة.. فانفجر صوت رعب أطلقه فونسيكا ورددته كل أرجاء الصالة:

-لوركا.. لوركا..

-لوركا.. نعم، وبعبارة أدق (غارسيا لوركا) الاسم الكامل!

سقط قدح فونسيكا وتحطم فامتزجت شظاياه مع النشارة.. وحاول أن يغطي حالته بمرح مصطنع فكرر السؤال:

-لوركا الـ...

-نعم.. الشاعر.

اكتملت الصورة أمام ناظريه بكل دقتها ووضوحها: ذلك الوادي.. صخوره الرمادية.. أشجار الزعرور.. حقول الزيتون المحيطة.. ذلك الفجر. أو قل تلك النهاية لليلة عطرة خفيفة بادية الكآبة.. ثم.. الرجل الصغير المنسجم القوام الذي مات.. مات دون أن يرمق فونسيكا بنظرة! في تلك الليلة، لم يشرب فونسيكا، ولهذا فإن تفاصيل ما حدث فيها تتجمع وتطفو في ذاكرته: انتابت الرجل الصغير رجفة الخوف.. كان العرق يتصبب منه وكان يكرر السؤال: -(لماذا.. لماذا؟).. حتى وهو يترنح في مشيته فوق الأرض الوعرة، سأل ديونيزيو السائق (هل هذا سيكون مؤلماً) وأجابه ديونيزيو بسفاهة: - أقل ألما من أن تضع إصبعك في شرجك، أيها الـ... وأسرع من ذلك كثيراً!) فارتاع الصغير وتقزز لتلك الإجابة وراح يحكم تدثره بالبطانية رغم دفء ذلك الصباح الطالع..

-لقد مات دون أن ينظر إلي..

قالها فونسيكا بأعلى صوته..

-من هو ذلك الذي يرضى أن يذهب، حتى إلى النار، ومعه في

عينيه الصورة القذرة لشدقي قاتل مثلك؟

وفي فترة الصمت التي سادت الصالة أضافت لافارول:

-حتى لو كان الميت ولدك فهو يرفض النظر إليك!

-عند ذاك أطلقت النار، سيدي القومندان؟

رفع فونسيكا عينيه نحو زالاميرو وقال: -أجل، عند ذاك، أطلقت النار.. ولكن دون تمييز.. دون هدف محدد.. دون أن أرى شيئاً بعيني.. إلى جانب كون المرمى المتمثل في الغجرية كان هدفاً وهمياً.. رواد الحانة.. لاعبو القيثار.. صاحب الحانة.. النساء.. جميعهم انبطحوا أرضاً.. على بطونهم.. فتلقت لافارول كل الضربات.. كل الطلقات. ولكن كيف يمكن إقناع هذا الضابط من الحرس المدني.. وهو المحدود واللاملتزم بالأعراف الاجتماعية، بأن فونسيكا أطلق النار، للمرة الثانية، على الرجل الصغير ذي العينين البريئتين، وعلى أمل أن يقتل، وإلى الأبد، ذلك الشبح الذي لازمه منذ عدة شهور في كل دقيقة من دقائق حياته؟

-ومع ذلك لم تنس أن تعطي رصاصة الرحمة لضحيتك، سيدي القومندان؟!

هذا صحيح، ولكن حتى هذا، لم يقم به وهو يعي ما يفعل..

لم يفرغ سلاحه في صدغ لافارول وإنما أفرغه، مرة أخرى، في صدغ الرجل الصغير الذي رفض حتى النهاية أن يرمقه بنظرة.. إلا أن المنطق خانه، وهو يحاول شرح ذلك، منطلقاً، هذه المرة، من حمأة مباذله العادية:

-لقد أجهزت عليها حتى لا تتألم زيادة.. تلك أريحية وشهامة وعندما تصدر عن فم بطل سان جيرونيمو دي أوردونا، فإنها قمينة بأن تهز ضمائر أعضاء المحكمة العسكرية الذين لم يكن بينهم من قتل

بيديه شخصاً ما..

-لقد فهمت..

تمتم زالاميرو.

-ولكن هل صدقت؟

حبس فونسيكا على شفتيه ضحكة كادت تفلت منه.. أما زالاميرو فقد انحنى فوقه وكأنه يؤدي طقساً جنائزياً:

-أحتاج أن أشرب شيئاً، سيدي القومندان، هل تشرب معي؟

-لا حاجة للسؤال إذا وجد الشراب.

-كونياك؟

-كبير، دون ماء، دون ثلج.

سطعت شمس الصبح المشرقة على صحن الصالة، فتحول إلى مرآة، أبصر فيها فونسيكا وجهه، فبدا ذهبياً بلون الدهان، ضبابياً غامضاً كالوجوه السينمائية.. طأطأ رأسه حتى اصطدمت ذقنه بصدره، فأبصر صلعته في نفس المرآة: واكتشف أن الشيخوخة أدركته قبل الأوان.

-خذها، سيدي القومندان، بلا ماء ولا ثلج.

رفع فونسيكا قدحه: على صحتك أيها الأخ القديم..

كتم زالاميرو استياءه من تلك الشتيمة وكان رده:

-احترامي، سيدي القومندان..

-لست الآن قاتلاً إطلاقاً؟

-يغلب عندي الظن أنك، ضحية.

وشربا. كان الضابط الحرس المدني يشرب بتحفظ وحذر.. أما الآخر، فكان يشرب بنهم انتحاري، بالمعنى الكامل للكلمة..

قال زالاميرو وهو يتمايل مترنحاً: (زوج الخائنة) تبدو لي شتيمة أقل خطراً عندما توجه إلى رجل عادي، والأمر يختلف تماماً عندما

يكون المشتوم ضابطاً من الجيش..

تحرك فونسيكا للكلام فقاطعه زالاميرو: حتى لو انطلقت الشتيمة من فم بغي أو ليس هذا ما تريد أن تقوله سيدي القومندان؟

هز فونسيكا كتفيه وقد بدا، فجأة، وكأنه لا يبالي بهذه الثرثرة.. فأضاف زالاميرو بصوت جهوري:

-لو أعطي لي أمر اختصار الأحداث لقررت أن الشتيمة الموجهة على ملأ من الناس - وهذا ما يزيد من خطورتها وتأثيرها - تخرج الإنسان عن طوره فيفقد قدرة امتلاك زمام تصرفاته وأعماله.. وفي هذه الحال بالضبط أنت أطلقت النار..

في فم فونسيكا تحول طعم الكونياك إلى ما يشبه طعم برنيق الأظافر: -لنستقر على القول - والكلام بيننا يازالاميرو - إنني كنت في أشد حالات السكر..

وضع زالاميرو يديه وراء ظهره وسار عدة خطوات:

-لا يا سيدي القومندان.. بل المطلوب ألا نقول هذا.

-ولكن الشهود.. هناك شهود...

توقف زالاميرو ولاحت على وجهه ابتسامة تحبب: -لن يكون هناك، سيدي القومندان، سوى الشهود الذين أرغب فيهم وأحسن (تدبيرهم).

وتابع المشي وهو يقول: -إذا كنت قد فقدت السيطرة على تصرفاتك فذلك، ببساطة، لأنك رجل مريض دون أن تعلم ذلك..

-ولكن لا!

قال فونسيكا محتجاً..

عاد زالاميرو من جديد ليجلس بقربه: - بل نعم سيدي القومندان.. الحصار الذي عانيته في حصن سان جيرونيمو دي أوردونا

كان له على كيانك الفيزيولوجي تأثير لا تستطيع تصوره..

يضاف إلى ذلك التأثير المعنوي الفظيع الناجم عن موت ولدك..

أحنى فونسيكا رأسه.. بينما تابع زالاميرو بلهجة المقتنع المصر على الإقناع:

-ليس بالأمر اللائق إرسال رجل في مثل حالك إلى القضاء، حتى لو كان ذاك يقصد تبرئة ساحته.. لقد حدد ضابط الحرس المدني موقفه: سيعرف كيف (يطفئ الفضيحة) خصوصاً وأنها - من جهة ما- ليست فضيحة (بمعناها الكامل): ما من أحد يقبل أن يضع في الميزان - رسمياً على الأقل - أمجاد بطل سان جيرونيمو في كفة وسمعة امرأة في الكفة الأخرى!

-هل أستطيع استعمال الهاتف، سيدي القومندان؟

أشار فونسيكا إلى الجهاز الموضوع فوق دكة صغيرة، ولم يطل انتظار الرقم الذي طلبه.. لقد وقف باستعداد:

-زالاميرو على الهاتف سيدي الحاكم.

-....

نعم سيدي الحاكم ... إنه إلى جانبي.

-....

-أقول إنه مرهق سيدي الحاكم.

-....

-نعم سيدي الحاكم يبدو لي أن الأمر سهل.. المرأة ذات العلاقة كانت تمارس حياة تعيسة.

-....

-نعم سيدي الحاكم.. هذا بالضبط.. أمام الجمهور..

-....

-بالفعل سيدي الحاكم.. عند ذاك أطلق النار.

-.....

-لا أعتقد أن ذلك يثير أقل المشاكل سيدي الحاكم.

-.....

-فكرة رائعة سيدي الحاكم وأترك لكم أمر نقلها إليه مباشرة.

-.....

-بعد ساعتين.. عندكم؟ سنكون أمامكم في الوقت المحدد.. احترامي سيدي الحاكم.

أنهى زالاميرو المكالمة وعلى وجهه تطفو علامات الارتياح التي يطفح بها عادة وجه محام متمرن استطاع إنقاذ رأس موكله..:

-بعد ساعتين إذن...

-.. لقد فهمت ولكن ما هو ذلك النبأ الرائع الذي سينقله إلي فالدز؟

أكثر الابتسامات إشراقاً أضاءت وجه زالاميرو:

-ستذهب في إجازة سيدي القومندان ولكن.. أنا لم أقل لك شيئاً في هذا الصدد...

-إجازة.. إلى أين؟

-إلى الجبهة... سيدي القومندان..

عودة إلى الحرب.. من جديد.. بعيداً عن غرناطة.. عن الزوجة.. والبنات.. وحانات البائسين.. وأطلق فونسيكا تنهدة عزاء ورضى..:

-شكراً لهذا النبأ يازالاميرو لا تستطيع أذناي سماع أحلى من هذه الموسيقى.. كونياك، من فضلك.

اعترض زالاميرو قائلاً:

-هل تعتقد أن من الحكمة أن تشرب بعد؟

كاد فونسيكا أن يرى في زالاميرو فتاة عانساً:

-يجب أن نحتفل بالنبأ، يا للشيطان!

شرع زالاميرو يمليء القدحين.. ثم قدم قدحه إلى القومندان وهو يقول:

-إنه الأخير، سيدي القومندان، هذا وعد؟

استرسل فونسيكا في الضحك:

-قبل القدح الأخير أعطي ما أشاء من وعود. وبعد ذلك أطلق..

بذل زالاميرو جهداً كي يضحك هو الآخر.. ومدد فونسيكا ساقيه على المقعد وهو ينخر.. علامة الارتياح! حاول زالاميرو أن يصطنع تودده له:

-خذ راحتك، سيدي القومندان، لدينا وقت طويل..

تكفينا دقائق عشر للوصول إلى مقر الحاكم المدني.

-ساعة ونصف من الآن بيننا وبين الموعد المحدد مع الحاكم سنقضيها هنا، في هذه الصالة التي لم تكن تظهر بهذا القدم قبل أن تسطع أنوار الشمس في جنباتها..

سرح زالاميرو نظره جيداً، ولأول مرة، فيما حوله فوجد كل شيء يستحق الرثاء: الأثاث الإنكليزي المقلد المصنوع من خشب الأكاجو المعتم.. الراعيات الثلاث على متكأ مرافقه مدبة.. السيف الأحدب المقلد المزيف هو الآخر، وعليه تاريخ حرب الريف والمعلق في صدر الصالة بين علمين صغيرين هما شعار الفوج.. صورة تلك السيدة ذات الجلد الشديد البياض، وكأنها كوب حليب مدلوق.. ثم، فوق البيانو، صورة زفاف مسندة، هي صورة فونسيكا ببزته العسكرية لضابط ملازم، يمد ذراعه لخطيبة أخفضت نظرها.. وأشياء أخرى من البورسلان الألماني علاها الغبار... كانت قميص القومندان مفكوكة الأزرار الأربعة العليا، تكشف عن صدر واه، غار نهداه في غابة كثيفة

من الشعر الأشهب، وكان يشرب الكونياك بجرعات صغيرة هذه المرة، لكأن نبأ التحاقه القريب بالجبهة، قد أعاد إليه بعض الهدوء.

فك زالاميرو، هو الآخر، زر سترته، بعد أن تزايدت وطأة الحرارة، وتحول جو الحديقة إلى جحيم ملتهب.. حتى الذبابة المحبوسة داخل الصالة كانت تحاول الخلاص عبثاً وتصطدم بزجاج النافذة..

-هل تريد سيجارة؟

-بل أفضل غليوني، سيدي القومندان، فهل تسمح؟

أعطى فونسيكا إشارة الموافقة، فحشا زالاميرو غليونه العتيق الموروث عن أبيه، وبعد السحبة الثانية عبقت في جو الصالة رائحة الدخان الخفيف الرخيص للسوقة، وكان فونسيكا مستلقياً على المقعد يرقب الضابط وهو يدخن:

-كنت تعلم مسبقاً أنني سأتخلص من هذا المأزق؟

-الأوامر التي تلقيتها كانت بهذا الاتجاه.

-فالدز لا يتخلى عني إذن؟

-كان يسيراً أن يكذب زالاميرو:

-أنت بطل قومي وضابط في الجيش ووجه اجتماعي..

نزل الكلام كالسلوى على قلب فونسيكا:

-زد على ذلك أنني مكسور الخاطر.. مجروح الشعور.

-وهذا عامل أساسي في هذه القضية سيدي القومندان.

ولنقل، على الأصح، إنك مكسور الخاطر بسبب فقدك الشعور...

كان زالاميرو فخوراً أنه أحسن انتقاء الكلمات، وابتسم فونسيكا:

-هل تعتقد يا زالاميرو أن المحكمة العسكرية تقيم وزنا لمثل هذه الأشياء الدقيقة؟

-ليست المشكلة مشكلتك أنت.

-بل هي مشكلة فالدز؟

-بالضبط، سيدي القومندان، لذلك لاخوف عليك، فالحاكم سيلعب دوره جيداً: الشتيمة التي وجهت إليك لم تكن فقط خطيرة، بل وعلى ملأ من الناس أيضاً.. وإذا كنت قد أقدمت حتى على القتل فما ذلك إلا لأنك..

-لأنني رجل مريض...

-بدون أي شك سيدي القومندان!

نهض فونسيكا متكئاً على مرفقيه، وظهرت بعض عروق لونت خديه:

-اسمع يا عزيزي، أنت لا تستطيع أن تفهم - ولذلك لن أكلف نفسي عناء الشرح - إنني، عندما أفرغت رصاص مسدسي في بار الأنجيليتو لم تكن لافارول هي التي قصدت قتلها..

-من إذن؟ - الغجري؟

بإشارة من رأسه نفى فونسيكا ذلك أيضاً، ثم تابع:

-لا.. هناك واحد آخر ولكنني قلت لك أيضاً يصعب عليك فهم ذلك.

لم يكن زالاميرو يقدر أن السكير يحكم عليه بالغباء وهو الذي استطاع، خلال نصف ساعة من الزمن، فهم واكتشاف أشياء كثيرة ولكنه ميال الآن إلى فهم واكتشاف المزيد.. فأعاد إشعال غليونه وسأل:

-ولكن قل لي، سيدي القومندان.. هذا (اللوركا) الذي يحدثني الجميع عنه، من يكون؟

كان فونسيكا يمسك بقدحه فارغاً فانسحق بين أصابعه.

قال: الجميع؟ من مثلاً؟

-لقد جرحت نفسك سيدي القومندان، خذ محرمتي.
أصر فونسيكا بصوت متهدج:
-من تقصد بكل الناس؟
-زوجتك مثلاً..
تلوّى فونسيكا على نفسه وهو يردد: - آه.. زوجتي.
لقد نكأ سؤال زالاميرو المنشار الجرح الخفي، وأدخل أصابعه إلى أعماقه: -لم تجب على سؤالي.. هذا اللوركا.. من يكون؟
-لقد كان.. كان شاعراً.. لقد مات.
-فهمت شيئاً ولكن أشياء أخرى غابت عني.. من هو ذلك الشاعر الذي لا يوحي لي اسمه بأشياء واضحة.
-اسمه الكامل كان ((فيدريكو غارسيا لوركا)).
ولاحظ فونسيكا أن وجه زالاميرو ظل خالياً من أي تعبير فأضاف:
-قصيدة (*La Casada Infiel*) أو لا تعرفها؟
بدا زالاميرو كأنما يفتش في ذاكرته فلا يعثر على شيء،

Y que Yo Me La Llevé Al Rio
Creyendo que Fra Mozuela
Pero Tenia Marido...

-آه، نعم تذكرت ذلك القذر الحاد الذكاء.. ذلك الابن الزنا الذي كان وجوده سبة في وجه المرأة الإسبانية؟
-كان شاذاً جنسياً...
-صحيح.. هذا معلوم، ومن الناحية السياسية؟
-تستطيع أن تتصور، من هنا، انتماءه السياسي!
-نعم الأمور دائماً هكذا.
-الغريب في الأمر أنه كان شخصية هامة..أقصد معروفة في كل

أرجاء العالم!

-ولكن ليس في إسبانيا؟

-بل وفي إسبانيا بالذات.. هكذا يبدو.. واترك لك أن تحزر الأوساط التي اشتهر فيها..

عبارات قليلة حققت لقاء الرجلين وتفاهمهما.. ووثّقت أواصر القربى بينهما.. لقد كشف كل منهما للآخر الأحقاد الدفينة المشتركة ضد من يوصمون (بالشذوذ الجنسي)، وهم المثقفون والمفكرون من كل اتجاه ولون، وممن نالوا الشهرة في أي ميدان آخر، سوى الميدان العسكري.. ميدان (الشجاعة المسلحة).

ونظر زالاميرو إلى فونيسكا بشيء من الإعجاب والتقدير وسأله:

-هذا اللوركا ما دخلك أنت به.. سيدي القومندان؟

-لقد قتلته!

-انتفض زالاميرو بشكل لاإرادي، ولكن فونيسكا هدأ خاطره بإشارة، وشرح له الأمر كالتالي:

-لقد نفذت فيه الإعدام رمياً بالرصاص بناء على أوامر فالدز طبعاً.

-أهو شيوعي؟

-حتى هذا لا.. عنصر شغب من النوع السيء.. إنه من (ثوريي المقاهي)..

قلب زالاميرو شفتيه احتقاراً، فهو يعرف هذا النوع من الناس.. إنهم الذين لمعوا وتصدروا الصالونات، أولئك الهدامون الذين التقوا مع اليهود و (البنائين الأحرار (الماسونيين) فتسببوا بسقوط النظام الملكي التقليدي قبل إقحام الجمهورية الفتية بين أيدي القتلة قادة الجبهة الشعبية.

-إن إعـدام هـؤلاء رميـا بالرصـاص ليـس جرمـاً عظيمـاً بنظـر زالاميرو.. ثم (فيديريكو غارسيا لوركا بالذات كيف تقول أنه كان واسع الشهرة وشخصية عالمية معروفة)؟

-نعم لقد كان ذلك.. يبدو أن هذا قد شغل بالك؟

-بـل إنـه يزعجنـي سـيدي القومنـدان: قبـل انتفاضـة إفريقيـا بالضبط كنت عضواً عاملاً في مخابرات الجيش، إن اسم غارسيا لوركا لم يرد قط في التقارير التي اطلعت عليها والخاصة بغرناطة.

لم يكن زالاميرو الوحيد - مـن بيـن العسـكريين بخاصـة - الذيـن يجهلون وجود الشاعر..

وشرح فونسيكا هذه النقطة قائلاً:

-هذا الـ... فـالدز، هـو أيضـاً، كـان يجهـل كل شـيء عـن الشـاعر، فـالجنرال (فـاريلا) بشـخصه هـو الـذي أعلـم هـؤلاء، فـور دخولـه الاحتفالي المنتصر إلى غرناطة، بالشهرة التي كان ضحيتهم يتمتع بها:

- (لقد أعدمتم غارسيا لوركا! أكبر الشعراء الإسبان.. ومعه (ألبرتي وماكادو)! هل أصبحتم مجانين؟!

.. كـان الجنـرال يتميـز غيظـاً، وظـل طويـلاً يـهز قفازيه الأبيضـين بوجه معتمديه، ولم يهدأ حتى أصدر أمراً يشترط في بقاء فالدز حاكماً لغرناطة، أن يعتبر هذا مهمته الرئيسية والأولى والفورية القيام بإخفاء كل أثر مكتوب أو مادي يتعلق بهذه الجريمة، التي ركز الجنرال على أن يصفها بالحماقة، وإسدال ستار الصمت عليها إلى أطول زمن ممكن... لقد أصبحت (قضية مقدسة) أقسم لك!

-وهل أنت نادم، سيدي القومندان، لأنك ارتكبت خطأ؟

- النـدم لا محـل لـه ولا مجـال هنـا.. القضيـة ليسـت بـهذه البساطة.. ولكن أؤكد لك من جديد أنه من العسير عليك أن تفهم..

ركز زالاميرو ناظريه على سقف الصالة وقال:

-لاشيء يمنعني أن أحاول الفهم، سيدي القومندان.

وجذب الطعم فونسيكا فقال:

-حتى تفهم، عليّ أن أشرح لك أشياء كثيرة مع العودة بعيداً إلى الوراء...

نظر زالاميرو إلى ساعته: لدينا ساعة كاملة من الوقت سيدي القومندان.

استسلم فونسيكا وبدأ حديثه:

-ربما كنت تعلم أنني واحد ممن قادوا عمليات الاستيلاء على هذه المدينة.

-لم أكن أعرف هذا قبل الآن، سيدي القومندان.

دبت الحيوية أكثر في وجه فونسيكا.. أصبح بمقدوره الآن أن يتحدث، من جديد، عن تلك الأحداث، مستعملاً أسلوب التخاطب العسكري: الدقة والبلاغة والإيجاز:

-حتى أمكنك من فهم مجمل العملية - مادمت لم تشهدها -

سأعطيك صورة مجملة عن الحالة هنا قبل ٢٠ تموز، التاريخ الذي فيه استولينا على غرناطة:

في القطاع الحكومي، قامت لجنة طوارئ في نفس اليوم الذي بدأت في انتفاضة إفريقيا العسكرية.. وعلى رأس تلك اللجنة شخصيتان هامتان: الحاكم المدني سيزار توريز مارتينيز ورئيس بلدية المدينة الاشتراكي (مانويل فرناندز مونيسينوس) الذي كان، في نفس الوقت، نائب رئيس اللجنة التنفيذية للاتحاد العام للعمال. وستعلم في سياق الحديث - أن هذا (الوجه الحلو) ليس سوى زوج (كونشا غارسيا لوركا) أخت الشاعر موضوع حديثنا.. كان الرجلان يعتمدان على قوات كبيرة: ١٦ ألف عضو

في الاتحاد العام للعمال و ١٢ ألف عضو في اتحاد الشغيلة القومي.. تساندهم طبعاً تلك القوى التي تحرك وتقود الاضطرابات داخل الجامعة.

وإضافة إلى كل ذلك، لابد من الإشارة هنا، إلى أن مجلس المدينة البلدي كان يضم بين أعضائه ثمانية أشخاص اشتراكيين منتخبين وثلاثة جمهوريين وواحداً شيوعياً.

أنت ترى يا عزيزي أن القوى (الحمراء) كانت ساحقة بحيث خلت الساحة تقريباً من قوى اليمين: بالكاد كنا نستطيع الاعتماد على ٦٠٠ عضو عامل في (الكتائب) وعلى ٤٠٠ منتسب إلى (الاتحاد الإسباني لليمين المستقل)، وبمقدار ما كان الكتائبيون عناصر قتالية ممتازة، كان الاتحاديون أولاً عناصر هشة، انهزامية، تلوذ في ساعة الصفر وراء كبار البرجوازيين والتجار وملاك الأراضي.. وفي المجلس البلدي كنا ممثلين بتسعة أعضاء ينتمون للفريقين الآنفي الذكر وقد تدنت معنوياتهم حتى الصفر.

قال زالاميرو:

- كنتم في وضع حرج و سيء.

- بل كان ذلك حافزاً آخر لنا نحن، أي القوى التي يقودها (مبنوز وتوماس ونستار وأنا) كنا من كبريائنا كالصخرة الصماء.. لقد صحبني كل من الكولونيل مينوز وتوماس وبدأت بتطويق الجنرال (كامبان).. ذلك (الهرم القذر) الذي أقسم على الولاء للحكومة الجمهورية. والذي وزع على الجماهير كل ما كان في حوزته من أسلحة خاصة بالقطعات التابعة له.. وتمت عملية اعتقال الجنرال بسرعة خاطفة ودون مصاعب فقد استسلم حالما رأى الأسلحة مسددة إلى بطنه.. كذلك كان الحال للحاكم المدني الذي حل فالدز محله بصورة مؤقتة.. كل هذا تم خلال ثلاث ساعات، وبصورة سرية، والناس يغطون في نومهم داخل

بيوتهم: لأن خطتنا كانت محكمة التنظيم والتوقيت: انتظرنا ساعة القيلولة.. هل سمعت؟ ساعة القيلولة بالضبط. وفي تمام الساعة الرابعة، والحرارة كالجحيم، نفذنا إلى قلب المدينة، القومندان فالدز والكابتن نستار وأنا، ومعنا عدة شاحنات محملة بالجنود، وسيطرنا على المراكز الهامة هناك.. خلال ربع ساعة فقط استطعنا تدمير المراكز الحيوية للخصم.. بمعنى أننا، في أقل من ساعة استولينا على وسط غرناطة والأحياء الشرقية والجنوبية أي كل (المدينة التحتية) ومعها هضبة الحمراء.. بينما اعتصم العمال في الأحياء الفوقية من المدينة، وفي منطقة (البائسين) وبدأت مقاومتهم لنا.. لكنها لم تدم طويلاً: لقد استسلم حي البائسين بعد قصفه بنيران بطاريتي مدفعية ركزت إحداهما على مشارف (الحمراء) العالية، والثانية على مفترق طريق (موريسي).. بين الذين اعتقلتهم من قوى البائسين المهزومة كان رئيس بلدية غرناطة.. أعدمه فالدز رميا بالرصاص أثر محاكمة ميدانية في مقبرة (سرو ريل سول) وأعدم معه أعوانه القادة المجهزين على نمط رجال العصابات المكسيكية، وأنا الذي كنت أجهز عليهم برصاصة الرحمة..

.. لقد احتجنا إلى أيام أربعة - ٢١ و ٢٢ و ٢٣ و ٢٤ - لإعادة الهدوء والسلام تماماً إلى المدينة.. أو، بعبارة أدق، لتمشيط المدينة وتنظيفها.. وفي مساء ٢٠ تموز قام الجنرال (كاييو دي ليانو) بتثبيت القومندان فالدز في منصبه كحاكم مدني لغرناطة، فقام فالدز فورا بتحويل مقره الرسمي إلى معتقل ومحكمة استثنائية دائمة الانعقاد في الطابق الثاني، ومنذ صباح ٢١ تموز أنجز فالدز عملاً كبيراً.. صادق شخصياً على أحكام الإعدام الصادرة عن المحكمة مع الحرص على تعديل الأحكام الأخرى التي رآها جديرة باللين والرأفة.. والشيء

الوحيد الذي أحييه من أجله هو أنه مبدع الشرعة التالية: -

-(الأخذ بجرم التخلي) وهذا يعني أن على المحكمة أن تعتبر كأعداء جميع الذين (تخلوا) عن (النضال) العملي الفعال في أية هيئة أو (تشكيلة) يمينية قبل تاريخ ٢٠ تموز. وفيما وسّع (اجتهاده) ذاك وأعطاه أبعاداً أخرى بحيث أن جميع الذين لم يشتغلوا بالسياسة إطلاقاً اعتبروا مشبوهين، وعدل فالدز النص الأول بحيث أصبح: (الإدانة بجرم التخلي بالمعنى الواسع للكلمة).

أثناء تنفيذ مهمة قمع الاضطرابات وإقرار الأمن، وجد الحاكم حوله مساعدين في مستوى عال من الجدارة والمؤهلات: بيلايو وريماشو على رأس الحرس المدني.. آنريك دي ايتورياغا، سيسليوسير، والأخوة روزال قادة ميليشيا الكتائب.. الكابتن نستار الذي كان يقود وحدة عمليات الجهاز السري.. وطبعاً، خادمك، وقد حمّلني فالدز جميع المهام والمسؤوليات التي كان وقته يضيق عن أن يقوم بها بنفسه.

كان قادة الكتائب يتمتعون بشيء من الاستقلال بالنسبة للحاكم: كانوا يمارسون حق تحديد مشبوهيهم واعتقالهم تاركين لفالدز مهمة الإعدام.

أما الباقون: الحرس المدني، المغاوير، نستار وضباط الأركان، فقد كنا نأتمر جميعاً بأوامر الحاكم.

كانت الزمرة السوداء، وحدها، ظاهرياً خارج سلطة الحاكم. كان يتم انتقاء وتطويع أعضاء الزمرة في الأوساط الدنيا من سكان غرناطة.. من رعاع الناس وأوباشهم، من الفاشلين والانتهازيين.. من الذين يمارسون القتل كضرب من اللهو أو أصحاب الثارات الشخصية المبيتة.. ومن بين الضلالات التي ارتكبها هؤلاء والتي لا تغتفر ولا يمكن إصلاحها، قيامهم بذبح صديقي المركيز (دي سانتا كروز) مشيّد طريق

(سييرا نيفادا).. لقد أخذوه بتهمة أنه عشيق زوجة أحد أعوانهم..

-من بين قادة الزمرة، بل من أشهرهم، كان (الباجاريرو)، وهو ابن متعهد أبنية، اختصاصياً في ذبح النساء بسكين المطبخ.

كان باستطاعة فالدز، إيقاف هذه الزمرة عند حدها في غضون ساعات.. كان يكفيه أن يستدعينا نحن، القوات النظامية، لهذه المهمة ولكنه كان شديد الحرص على ألا يفعل ذلك: الإرتكابات التي مارستها الزمرة السوداء وضعت غرناطة في جو من الرعب لا يمكن وصفه، والمستفيد الوحيد من ذلك كان فالدز نفسه..

كيف؟- بين عشية وضحاها أصبح فالدز في نظر أكثر الغرناطيين الملاذ الأوحد الذي تتمثل فيه - نسبيا - العدالة الحقيقية!

أقص عليك هذا كله كي تفهم في أي مناخ عنيف ومتفجر كنا نعمل يوم زارنا في دار الحاكم المدني، ولأول مرة، شخص يدعى (رامون لويز آلونسو). أن لم تخني الذاكرة فإن تلك المقابلة الأولى حصلت في مكتب الحاكم، في الخامس عشر من آب الساعة الحادية عشرة صباحاً.. طلب رويز آلنسو مقابلة فالدز، مقدما نفسه كنائب غرناطة في المجلس التشريعي المركزي بمدريد، وحدد السبب الرسمي لزيارته بأنه: - (الإبلاغ الفوري عن أحداث خطيرة تتعلق بالأمن القومي).

حين استقبله فالدز كنت واقفاً بجانب مكتبه، فلم يعجبني ذلك الرجل منذ النظرة الأولى: كان من ذلك النوع من الرجال الذين إذا ارتدوا بزة رسمية يظل شكلهم يفتقر للكثير مما يقره ويقتضيه العرف.

.. لقد كان يرتدي بذلة زرقاء بحرية ضيقة جداً عند الكتفين، وحذاء أصفر وربطة عنق خضراء منثورة بالأبيض.. أنمش الجلد، رخو الحنك، زائغ النظرات وكأنه خوري معزول.. قدم نفسه للحاكم مجدداً ومؤكداً بكثير من التباهي صفته كمندوب ورأساً - دون أن يعير أحداً

منا انتباهاً أو نظرة - طرح مسألة جعلتنا جميعاً نقف مبهوتين:

-أو تصدق، يا سيدي الحاكم، سأل بصوت أخن - أن الكتائب تبقى دائماً موالية للحركة القومية التي تمثلونها في غرناطة؟

-كان فالدز عضواً في حزب (الاتحاد الإسباني لليمين المستقل) الذي ينتمي إليه هذا (المندوب)، وانتماء فالدز إلى هذا الحزب كان عن قناعة، بدليل أنه رفض شاكراً عروض (آنارسيسو بيرال) للانضمام إلى صفوف الاتحاد القومي النقابي، الأمر الذي يؤكد فتور العلاقات بينه وبين الكتائبيين، وإن كانت تلك الشكوك لا تبلغ درجة التشكيك بالقمصان الزرقاء واتهامهم بالخيانة:

-أوضح! قالها فالدز بلهجة الأمر الجافة..

وأعلن رويز آلونسو وهو ينظر إلى الأرض بين قدميه: من بين أهم القادة الكتائبيين في غرناطة من يخفون في بيوتهم منذ عدة أيام شخصية (حمراء) مرموقة.

وامتقع لون فالدز: من وجهة النظر الرسمية لم يبق حمر مرموقون في غرناطة. لقد صفوا جميعاً... أن إثبات العكس يعني الطعن بفعالية السلطة وإنجازاتها..

-أنا لا أصدقك يا حضرة المندوب..

ابتسم لويز آلونسو، ابتسامة الفأر: عندي البرهان على ذلك يا سيادة الحاكم.

-هات برهانك.

-كي أقدم البرهان أحتاج إلى مذكرة توقيف باسم فيديريكو غارسيا لوركا اللاجئ حالياً في الطابق الأول من (كال آنجيلو) لدى الأخوة (روزال).

انتفض فالدز وأنا كذلك: جوزي روزال كان قائد منظمة الكتائب

في غرناطة، وأخوه أنطونيو كان مسؤول المنظمة المالي، في حين كان أخوهما الثالث، ميكيل، منفذ المهام الدنيئة التي يأمر بها أخواه.. ومنذ ٢٠ تموز كنا نعمل وإياهم يدا بيد، ولذلك لم تكن في الحسبان تلك التهمة التي وجهها إليهم رويز آلونسو..

إلا أن فالدز تظاهر بالاحتفاظ ببرودة دمه وسأل:

-فيديريكو غارسيا لوركا، هذا، من يكون؟

-شاعر..

نظر فالدز إلي نظرة مطمئنة.. مسألة شاعر؟ - إنها ليست من الخطورة بمكان.. فضلاً عن أننا، سواء الحاكم أم أنا، لم نسمع قط، قبل ذلك، بحديث ذلك الشاعر..

-ما هي التهم المنسوبة إليه؟

-مؤلفاته!

-جاء الجواب سريعاً وحاسماً، حتى شككت بأن رويز آلونسو بالذات هو الذي يكتب أشعاراً في الخفاء وينسبها للآخرين!

-هذا الغارسيا لوركا- سأل أيضاً فالدز- هل هو شاعر معروف؟

ظلت عينا رويز آلونسو عالقتين بالأرض بين قدميه، وأجاب بوقاحة: - ليست هذه هي المسألة يا سيادة الحاكم..

عقب فالدز وهو يتميز غيظاً:

-ما هي المسألة حسب رأيك يا حضرة المندوب..

قال رويز آلونسو وهو يضرب بقبضته على راحتي كفه:

-غارسيا لوركا سبّب لنا، عن طريق مؤلفاته، شرورا يعجز عن مثلها الآخرون الذين يحملون السلاح ضدنا.

رفع فالدز حاجبه مندهشاً وهو الذي يصعب إقناعه أن للشعر مثل تلك الخطورة.. ودون أن يشعر المندوب بأي تعاطف أو تجاوب

معه، طلب إلي بكل هدوء تحضير أمر التوقيف المطلوب، وفي الوقت نفسه حذّر المندوب قائلاً: -حذار يا حضرة المندوب.. إذا ما اتضح أن ما أعلنته في هذا المكتب ليس صحيحاً سأطلع الأخوة روزال على سعايتك بكل تفاصيلها دون أن أولي كبير اهتمام لمسألة إنقاذ جلدك!

طلبت إلى رويز آلونسو أن يعود بعد ساعة ليجد مذكرة التوقيف تحت تصرفه فاستدار المندوب وخرج من المكتب وهو يواصل، متعمداً، تحويل أنظاره عنا، أما الحاكم فقد كان بادي الاضطراب، فطلب إلي مباشرة تحريات سريعة حول غارسيا لوركا وكذلك حول المخبر عنه.. فاستحصلت على المعلومات المطلوبة بعد نصف ساعة فقط: اتصلت بقسم العلاقات الصداقية في المطرانية وأجريت محادثة هاتفية مع سكرتير المطران مباشرة، البادر أنطونيو لافوانت، فأعطاني جميع التفاصيل اللازمة حول عائلة غارسيا لوركا: والد الشاعر، دون فيدريكو غارسيا رودريكز كان ملاّك أراضي واسع الثراء، ويملك في فوانت فاليروز، على بعد عدة كيلومترات من غرناطة، بيتا هو مسقط رأس ولده الشاعر (لاهويرتا دي سان فيسانت).. وفي غرناطة بالذات تمضي العائلة الشتاء في منزل كبير خاص مؤلف من ثلاثة طوابق على (آسيراديل كازينو).. وفيدريكو غارسيا رود ريكيز كان جمهورياً عريقاً لا يتردد في إدانة نظام الركود والانتفاع، سواء كان فردياً أم ملكياً.. تسود في ظله المحسوبيات وحالات قانون الطوارئ.. ومنذ إعلان الجمهورية في إسبانية أصبح الصديق الحميم لدون فرناندو جيزدي لوس ريوس الأستاذ في الجامعة وأحد أبرز زعماء الحزب الاشتراكي.. امرأته لوك لوركا، المدرّسة السابقة قد اقترنت به في زواجها الثاني وهي سيدة رصينة، بعيدة عن الأضواء وليس للبادر لافوانت عليها ملاحظات تذكر.. رزق الزوجان أربعة أولاد: فيدريكو.. كونشا (زوجة

رئيس البلدية، مونيسيووس..) باكو وإيزابيل.. وحتى الشاعر صاحبنا، فقد بدا أن البادر لافوانت لا يضمر له شيئاً في قلبه.. وقد وصفه رجل الدين المذكور بأنه (معروف لشذوذه الجنسي.. كتب الكثير من القصائد التي تقيّمها تقييماً عالياً حلقة من أصدقائه الحميمين.. وإحدى تلك القصائد نظمت بمناسبة موت الإرهابي (رافاييل سانسيز ميجياس) مع ثلاث مسرحيات لاقت نجاحاً مرموقاً في مدريد في أوساط المثقفين من رواد بعض المقاهي المعروفة.. إحدى تلك المسرحيات كانت بطلة التمثيل فيها (مارغريتا كسيرغو)، الحاذقة في تحريك المشاعر وإلهابها، والتي تحتل مكان الصدارة في الصحافة الجمهورية.. وغارسيا لوركا كان مؤلف مجموعة إشعار بعنوان (روما نسيرو جيثانو) هاجم فيها الحرس المدني بحقد وضغينة مثيرين حسب تقدير البادر لافوانت.. أنا شخصياً لم يسبق لي أن طالعت شيئاً من كل ما ذكر، إلا أنني اكتفيت بأقوال سكرتير المطران لتكوين فكرة عن (قيمة) غارسيا لوركا.. وفي ختام محادثتي مع السكرتير سألته عن رأيه الخاص في (أهمية) مؤلفات لوركا فأجاب ضاحكاً:

-أهميتها؟.. إنها ليست شيئاً لدى مقارنتها بمؤلفات((جوزي ماريا ليمان) مثلاً.. إنها ضرب من الفولكلور الشعبي الثوري فلا تعيروا اكتراثاً لهذا الشاب وهذا خير لكم وأجدى!).

وأجبته: - (هذا ما فعلناه أيها الأب!).

أما المعلومات المطلوبة عن رويز آلونسو فقد حصلت عليها من دوائر البوليس المحلية.. جلب لي مفوض البوليس إضبارة المندوب وكانت موجزة: عامل طوبوغرافيا قديم، انضم إلى حزبه منذ تأسيسه، وأصبح مستشاراً لدى مجلس غرناطة البلدي، وممثلاً لحزبه في هذا المنصب، قبيل انتفاضة إفريقية.

جوزيه أنطونيو بريمو دي ريفيرا مؤسس منظمة الكتائب، كان يكنّ احتقاراً كبيراً لحزب الاتحاد الإسباني لليمين المستقل، وكان يخص باحتقاره ذلك رويز آلونسو شخصياً، حيث شتمه في اجتماع جماهيري واصفاً إياه (بالخادم المستزلم)، فحفظها آلونسو حيث تحولت إلى حقد عميق على كل ما يمت للكتائب بصلة. لقد تكشفت لي مراميه الحقيقية من وراء عملية توقيف غارسيا لوركا في منزل الأخوة روزال: الشاعر حجة، مجرد حجة، والمقصود هو الإساءة لقادة الكتائب، لأن اعتقال (رجل أحمر) في بيتهم يعني تشويه سمعة القمصان الزرقاء، وزوال نفوذهم لدى بورجوازية غرناطة التي أوشكت أن تقرر الالتفاف حول حزب آلونسو في سباقها لإدراك أحداث فاجأتها وكادت تفوتها..

احتفظت بتلك الشكوك لنفسي مادام في إضبارة فيدريكو غارسيا لوركا مايكفي لتبرير توقيفه.. وسواء تم ذلك على يد نستار.. الباجاريرو أو رويز آلونسو فلا بد له أن يقف، في نهاية المطاف، في المكان الوحيد الذي ينتظره: جدار مقبرة سيروديل سول (أو إحدى المدافن الأخرى فوق تلال (فيزنار).

آخر ما جاء في إضبارة المندوب لدى البوليس أنه كان يقود، منذ ٢٥ تموز، إحدى فصائل الزمرة السوداء، تلك الفصيلة التي تميزت بقسوتها الوحشية ضد العديد من المفكرين والمثقفين الليبراليين والمحامين والمهندسين والصحفيين.. وهذه الفصيلة مسؤولة مباشرة عن عملية الإعدام السريع الخاطئ للدكتور (رافائيل غارسيا دوارت) صاحب الشعبية الواسعة في الأحياء العمالية، حيث كان يقدم الاستشارات المجانية لنساء وأولاد العاطلين عن العمل.

من كل ما تقدم أدركت أن رويز آلونسو كان يتقصد خلق مناخات الضجيج والعنف والمفاجآت، سعياً وراء أهداف ومقاصد شخصية،

ورأيت أن من الأفضل لفت نظر الحاكم إلى ذلك، فوافقني فالدز على وجهة نظري تلك... وقال:

-أرصد جيداً تحركاته يا فونسيكا.. أن هذه القصة مع الأخوة روزال مزهرية جميلة المظهر، ولكنها مشحونة بالديناميت.. تابع القضية عن قرب وأعلمني فوراً بكل خطوة تلحظ بأنها مشبوهة...

عاد رويز آلونسو إلى دار الحاكم المدني في الساعة التي حددتها له، ودون أن يكلف نفسه عناء السلام عليّ، دفع إلي بورقة مطبوعة على الآلة الكاتبة.

-ما هذه؟

-أوصل هذه إلى الحاكم، إنما تتضمن التهم الرئيسية الموجهة ضد فيدريكو غارسيا لوركا.. حقاً إن الرجل لم يدخل هذه القضية فارغ اليدين.

-من حرر هذه؟

-أنا.. وأضاف وهو ينظر في عيني لأول مرة: -.. وعلى مسؤوليتي الخاصة..

وبينما كنت أتهيأ لزجره على اللهجة التي استعملها قاطعني قائلاً: -اقرأ قبل أن تحتج.. قرأت.. بدافع الفضول أولاً، كما تعللت بأن أجد في النص موضوعاً يبرر المواجهة.. كانت الوثيقة مكتوبة على عجل بدليل خلو عباراتها من أية ديباجة.. ثلاثة مقاطع فقط.. لا غيرا:

١- فيدريكو غارسيا لوركا أكد مراراً، وأمام شهود، تبريره، بل تأييده، لقتل (كالفوسويتلو).

٢- فيدريكو غارسيا لوركا كان عضواً مؤسساً لجمعية أصدقاء الاتحاد السوفييتي.

٣- فيدريكو غارسيا لوركا كان، منذ عام ١٩٤٣، عامل إثارة لمشاعر الجماهير لحساب الكريملن لم تكن ثمة كلمة عن مؤلفاته.. ولكن، إذا كان كل ما ورد في الوثيقة صحيحاً وهو صحيح فعلاً، فإن مصير الشاعر قد بدا لي مقرراً بشكل نهائي.. وسأل رويز متبرماً:

-معك مذكرة التوقيف؟

-هذه هي، إنها موقعة من الحاكم ولننطلق فوراً يا حضرة المندوب.

بكثير من الارتباك والذهول سأل رويز آلونسو: -ماذا أنت؟.. أنت تأتي معي؟

-بوصفي مراقباً يا حضرة المندوب، حسب أمر الحاكم، ولكن اطمئن لأنني سأدعك طليق اليدين وأترك لك مكاسب الانتصار إذا كانت هناك ثمة مكاسب تجنى...

غادرنا دار الحاكم المدني معاً، في سيارة سوداء - سيارة (ديلاهاي) قديمة كما أذكر - وجدنا في انتظارنا، على الرصيف، رجالاً مسلحين عرفت من بينهم ملاّك أراضي من الضاحية، ومحامياً من أصدقائي، فأخذت مكاني في المؤخرة إلى جانب رويز آلونسو الذي أوعز إلى السائق: - (.. ديونيزيو.. إلى الطابق الأول لكال آنجيلو، بسرعة.).. كانت غرناطة مقفرة.. الكلاب الشاردة وحدها كانت تجوب بعض الشوارع.. ففي الساعة الخامسة من بعد الظهر ينام الناس اتقاء للحر الشديد.

أشعلت سيجارة، وبلهجة طبيعية بقدر الإمكان، طرحت على المندوب سؤالاً كان يلهب شفتي منذ وقت: - كيف تعرف أن فيدريكو غارسيا لوركا يختبئ عند الأخوة روزال؟

أجاب المندوب متبسطاً هذه المرة في شرح الموضوع:

-منذ عدة أيام كنت في المقهى مع شلة من الأصدقاء وإذا بالراديو

يعلن نبأ قتل (دون جاسينتو بينافانت) وهو الحادث الذي ارتكبه التشيكيون في مدريد.. بينافانت! أكبر مؤلفي الدراما المسرحية الإسبان.. ذلك الشيخ الجليل الذي لم يؤذ ذبابة طيلة حياته.. لقد أقسمت آنئذ أن أنتقم لتلك الجريمة.. آنئذ فكرت بلوركا، وحسبت لذلك كل الحسابات.

-هل تعلم أنه، أمس البارحة أعلن رسمياً أن بينافانت طلب اللجوء إلى إحدى السفارات وأنه موجود هناك سالماً معافى؟!

-نعم، أعرف..

وأفلت رويز آلونسو قهقهة لم يستطع كتمها وهو يضع يده الدبقة على مرفقي وتابع:

-ولكن.. لا أهمية لذلك، بالحقيقة..؟! لقد ذهبت مع ديونيزيو وثلاثة من رجالي إلى هويرتادي سان فيسانت حيث كان لوركا يقضي معظم وقته من أيام الصيف، يكتب أشعاراً في مقصورته الشبيهة بمقصورة الصبية أو يعزف قطعاً موسيقية على بيانو خاص له ذنب.. وبالطبع، لم نجده هناك بل وجدت والده الذي دفعته دفعة عنيفة لا تحتملها شيخوخته وصرخت في وجهه:

- (.. قل لي أين يختبئ ولدك وإلا قطعت شاربيك هذين!) فاستولى الرعب على ذلك القذر واعترف دون مواربة أن ولده ليس متخفياً بل ذهب يطالع بعض الأشعار عند صديق له، شاعر مثله.. - وأي صديق تعني؟ - فادعى الشيخ أنه لا يعرف اسمه.. ولكن حصاري بدأ يكون محكماً: - يا هوريس لوركا أنني لا أعرف في غرناطة شاعراً آخر - إذا صح أن نسمي شاعراً ذلك الناظم لأشعار خاصة بعازفي المزمار - سوى لويس رابع الأخوة روزال، ذلك المغمور الذي لم يتحدث عنه أحد قط.. فاعترف لأننا قد وجدنا المخبأ ما دام لويس روزال،

مبدئياً، فوق الشبهات ولا شغل لرويز آلونسو عنده.. هكذا، وبتلك السهولة، كنت أحذق من ذبابة فعرفت أن شاعراً ما، في خطر، يلتفت دوما جهة شاعر آخر.. ويريد الحظ أن يكون من آل روزال وشقيقاً لقادة المنظمة الكتائبية التي تعمل جاهدة كي تحكم قبضتها على غرناطة.

وصلنا (كال دي لاتابلاس) فخفضت السيارة من سرعتها، نحن قرب (كال آنجيلو) بيت آل روزال الذي يبدو موسرا، بورجوازيا، جميل السياج والشرفات.. أبصرت في مدخل الشارع مفرزة رجال مسلحين بالبارابيللوم، وعلى السطوح كانت تلمع عاكسة لهب الشمس القرون المثلثة للحرس المدني.. فتح رويز آلونسو باب السيارة وأشار إلي بالخروج فرفضت:

- بعدك.. يا حضرة المندوب.. فأنا في معيتك، وأنت الآن قائد اللعبة.

قفز رويز آلونسو إلى الرصيف ولمعت عيناه ببريق تحد مفاجئ، وصار نفسه أكثر سرعة، كالصياد الذي أدرك بالحدس مكان طريدته.

كانت بوابة الطابق الأول نصف مغلقة فصعدنا إليه: آلونسو في المقدمة، أنا وراءه، ومعاوناه الملازمان ورائي، بينما بقي السائق ديونيزيو على مقود السيارة.. قرع آلونسو باب منزل آل روزال أربع أو خمس مرات بعقب مسدسه مثيراً بذلك دهشتي لأنه لم يستعمل الجرس.. وقد قلت له ذلك فابتسم بخبث وقال:

-إنني أقوم بتمثيل مسرحي يعطي دائماً أروع النتائج!

ولكنه أخفق في هذه المرة: سيدة، ضخمة قوية، وملامح التحدي بادية عليها، وقفت في المدخل بعد فتحه فسدته وراحت تسرح نظرها فينا وتتفحصنا بمنتهى الهدوء:

-ماذا تريدون؟ ماذا تعني هذه الأسلحة؟

انحنى رويز آلونسو أمامها مرتبكاً: - نهارك سعيد يا سيدتي، لقد جئنا نطلب فيدريكو غارسيا لوركا.

استشاطت السيدة غضباً وصاحت به: -هل تعلم باب من أنت تقرع؟ أم ستحوجني أن أفهمك أنك هنا عند جوزي روزال قائد منظمة كتائب غرناطة؟

فوجئت عند ذاك أن رويز آلونسو راح يلف ويدور:

-نحن نجهل ذلك تماماً يا سيدتي وتفضلي بقبول اعتذارنا.

ثم بإشارة مفاجئة، أومأ لمعاونيه بالانسحاب فنزلا ينهبان الدرج نهباً وكان طبيعياً أن نتبعهما إلا أن رويز آلونسو ظل مسمراً مكانه يحدق بالسيدة وهي تشد على الباب بقبضتها.. وكان البادئ بقطع حبل الصمت الذي ساد برهة:

-مع من أتشرف بالكلام يا سيدتي؟

-مع (دونا اسبرانزا كاماشودي روزال) وأنا هنا في بيتي.

انحنى رفيقي انحناءة خفيفة وقدمنا بدوره: -رامون رويز آلونسو المندوب وهذا السيد الذي يرافقني هو الكابتن فونسيكا الملحق بمكتب حاكم غرناطة المدني. وبنفس اللهجة المعسولة عقب قائلاً: -فيدريكو غارسيا لوركا موجود عندكم يا سيدتي؟؟

رمقت السيدة روزال المندوب بنظرة زوراء وقالت:

- فيدريكو غارسيا لوركا موجود في هذا البيت وهو ضيف أولادي.

دون أن يرفع صوته شرح لها رويز الأمر قائلاً:

-معي مذكرة توقيف بحق فيدريكو غارسيا لوركا موقعة من الحاكم فالدز بشخصه. قد يكون هناك التباس، وعليه فإن أبسط الحلول هو أن يرافقنا لوركا للمثول أمام الحاكم المدني وإزالة ما في المسألة من التباس

أو سوء فهم، وبعد ذلك يكون من دواعي سرور الكابتن فونسيكا أن يعيده إلى هنا بسيارته. عند ذلك فقط فهمت لماذا ينتخب الرجال مندوبين ولماذا يرفض آخرون إحراز ذلك الشرف الرفيع...!

لقد تقلصت قسائم وجه السيدة روزال وأجابت: -لن يخرج فيدريكو غارسيا لوركا من هذا البيت إلا مصحوباً بأولادي.

انحنى رويز آلونسو من جديد: -كما تشائين يا سيدتي ولكن ألا نستطيع أن نقرر ذلك ونحن داخل صالتكم؟

ترددت السيدة روزال برهة ثم انزاحت تاركة لنا مجال الدخول: كانت الشقة غارقة في العتمة المحببة إلى الغرناطيين أثناء الصيف.. وأبصرت في إحدى الزوايا خزانة جميلة مؤطرة بالفضة من طراز القرن السابع عشر، وشمعدانا ينير بضوئه الخافت وجه تمثال للعذراء، تخترق القلب منه خناجر وهاجة وعلى بيانو نصفه مغطى بشال مانيلي، كانت توجد صورة (جوزي أنطونيو بريمو دي ريفيرا) تطفح بذلك الظرف الذي اعتاد توزيع فيض منه على أصدقائه، وتحتها كتبت العبارة التالية:

(إلى الرفيق الحميم الصديق الدائم، الباقي أبداً..)

أخذت دونا اسبيرانزا كاماشودي روزال مكانها وجلست منتصبة القامة عل مقعد بجوار البيانو:

إن كبر سنها لم يفقدها مسحة جمالها وشبابها المتكاملين مع وقار الشيخوخة الواثق المطمئن.. قالت لنا:

-إنني لا أصدق كلمة واحدة من رواياتكم حول الالتباس وسوء التفاهم، لقد جئتم هنا قاصدين قتل غارسيا لوركا.

فغر رويز آلونسو فاه مدهوشاً وقال: -سيدتي!

لم تكن ممن تغرهم وتخدعهم المظاهر فتابعت: - ما هي مآخذكم

على لوركا؟

وقع رويز في الفخ حيث قال: -مؤلفاته!

اعتاد هذا الغبي الدوران في محوره فقط ولكنه، هذه المرة، لم يملك زمام نفسه.. كانت السيدة روزال تنظر إليه بمنتهى الدقة والتنبه وتركز نظرها خصوصاً على إسوار ساعته:

-هل قرأتها.. مؤلفاته؟

-أجاب بشراسة: -كلها..

-عظيم! أكثر مما فعلت أنا نفسي، ومع ذلك فإعجابي به يفوق كل تصور. إنه شاعر كبير جداً..

هنا اتخذني رويز آلونسو شاهداً: - ليست هذه هي المسألة..

قالت السيدة روزال بصوت خفيض، وكأنها تخاطب نفسها:

-إسبانيا بلد ينبت وينمو فيها الحسد كما تنبت وتنمو الحشائش الطفيلية الضارة: بكثرة لا حد لها..

أصبح لون رويز قرمزياً: - يا سيدتي، أنا لا أسمح لك..

-يا أمي.. من هم هؤلاء الرجال؟ قال ذلك رجل دخل الصالة وهو يرتدي بزة الكتائب النظامية: قميص أزرق، كيلوت خياطة من الجوخ الأسود، جزمة لينة لماعة، وعلى القميص، عند القلب، تطريزه بخيوط فضية تمثل المقرن والسهام..

قالت السيدة روزال بارتياح ظاهر: ابني ميكيل.

ذئب قلق، هائج، ذلك باختصار كان حال الرجل.. كان نحيفاً، صلب العود، قوي العضلات، عيناه سوداوان نافذتان، شفتاه رقيقتان، يعلو العليا منهما شاربان معقوفان.. حيّانا على الطريقة الرومانية.. ولأن السيدة روزال أهملت تقديمنا، فقد قمنا، كل بدوره، بتقديم أنفسنا، وقد تقلصت قسائم وجه ميكيل روزال حالما سمع اسم رويز

آلونسو..:

ها.. نعم! أنت أحد قادة مفارز الزمرة السوداء.. ثم التفت نحوي سائلاً بفظاظة:

-وأنت، هل تثق بهذا السيد وتضمنه؟ وشدد على لفظة ((سيد)) شاحناً لفظها بكل الاحتقار الذي يكنه له.. ولم يبق لي وقت للإجابة لأن الذئب النحيف بدأ هجومه على رويز آلونسو:

-ماذا تفعل في بيتي؟

كان رويز آلونسو يتحلى بقدرة غريبة على امتلاك نفسه، فالشتائم تنزلق عنه انزلاق قطرات المطر عن الزجاج المصقول دون أن تترك أي أثر ظاهر.. وبهدوء.. شرح موقفه على طريقة رجل الصالات:

-جئت بطلب فيدريكو غارسيا لوركا الشاعر الموجود ضيفاً لدى أسرتكم منذ عدة أيام، ومعي في جيبي مذكرة توقيف باسمه، موقعة من الحاكم المدني. ولما كان هذا السيد صديقاً لكم فقد يكون في الأمر التباس وسوء فهم، وكما سبق آنفاً للسيدة والدتكم فإن أبسط مقتضيات الأمور أن يصحبنا غارسيا لوركا إلى...

-خدعة تجوز على غيري وليس عليّ...

-معي أوامر..

أكد رويز بنفس الهدوء.. وتدخلت بدوري:

-أنا هنا بصفة...

وقاطعني الذئب بمنتهى العنف: - أما أنت فلا أعرفك!

-بزتي..

-مادمت ترافق هذا المخلوق فلا يستبعد أنك سرقت هذه البزة!

-عملت كل ما بوسعي للاحتفاظ ببرودة أعصابي وعرضت:

-هل تريد أن ترى أوراقي؟

ندت عن الذئب ضحكة كلها شتائم:

-أوراقك منذ سنين وأنا أزوّر العديد منها كل يوم لرفاقي!

استلم رويز آلونسو زمام المبادهة: - معي رجال في الشارع وأخشى أن ينفذ صبرهم؟!

كان التهديد جليا.. كتمت السيدة روزال صرخة.. بعد أن انحنى عليها ميكيل روزال مهدئاً:

-لا تفعلي ذلك يا أمي.. اطلبي إعلام جوزي فوراً.. قولوا له أن ينضم إلي حالاً هو وأنطونيو في دار الحاكم المدني التي لن أبرحها حتى وصولهما.. والآن، أنا ذاهب في طلب فيدريكو.

تقدمت خطوة: - سأصحبك إذا كنت لا ترى ضيراً في ذلك..

-ماذا؟ هل تخافون أن يفلت منكم.. من أين؟ من الأسطحة؟ ثقوا أن هذه ليست عادة نوعية الرجال الذين يستضيفهم هذا البيت.. ومع ذلك تعال...

صعدت معه إلى الطابق الثاني.. اجتزنا عدة صالات يسودها السكون، غارقة في العتمة.. الأثاث (نائم) تحت أغطيته البيضاء.. صور للأجداد معلقة على جدران مجللة بالمخمل الغرناطي... هنا وهناك شمعدانات فضية.. أسلحة قديمة..قطرميزات من (البورسلان).. الخزف الصيني.. كل شيء يدل على النعمة والترف البورجوازي.. سيد هذا البيت، دون ميكيل روزال الأب كان مالك (الماسن دي لا اسبيرانزا)، على ساحة (بيبارامبلا) المكان الذي حصلت فيه في أقدم الأزمنة المواجهة الأولى بين الإنسان والثيران في غرناطة.

قرع ميكيل روزال أحد الأبواب ففتحته امرأة متوسطة العمر بحذر.. وكان التشابه بينها وبين السيدة روزال كبيراً ومثيراً، إنها أختها، (دونا لويزا كاماشو) وبدا لنا أنها كانت بانتظارنا.

-ماهذا الذي يحدث يا ميكل؟

-خالتي، إذا شئت ناد لي حالاً فيدريكو..

تظاهرت أنها لم تسمع وهي تحدق بي بنظرات حانقة:

-من يكون هذا السيد؟

-من جديد، قدمت نفسي.. إن صفتي كملحق في مكتب الحاكم المدني بدت مطمئنة لها، ففتحت الباب وسمحت لنا بالمرور.

-انتظر هنا لحظة، وأنا أجلب لكما فيدريكو.. لكن صوتاً ارتفع وراءها قبل أن تستدير في وقفتها:

-أنا هنا..

فعلاً لقد كان موجوداً قريباً منا، قرب نافذة مفتوحة يغمرها النور..



أبصرت رجلاً مازال شاباً، قامته فوق الوسط بقليل، أميل إلى النحافة، له وركان بارزان.. وأنت تعلم ماذا أعني بذلك كما أظن؟: ذلك ما يسمى لدى المرأة بالحوض.. كان يرتدي بنطالاً ضيقاً عند الأطراف، أسود اللون، وفوقه قميص من القماش الأبيض مفكوك الأزرار حتى الزنار.. لم يكن هندامه مبتذلاً.. بل بالعكس كانت هيئته مرحة، مرتبة ترتيباً مدروساً جيداً باعتباره رجلاً فناناً لا جدال في ذلك.. وقد لاحظت دقة ونعومة يديه وبياضهما ومرونتهما في الحركة وهو يفرك إحداهما بالأخرى بعصبية ظاهرة.. وما أن أبصرني حتى صرخ:

-آه! عسكري؟!

ثم عاد له بعض الاطمئنان، بعد أن تأكد من نوع بزتي النظامية..

تقدم نحونا بخطوات قصيرة سريعة وبصوت خفيض - كأنه في كنيسة
- أعلمنا:

-أسطحة المنازل المحيطة بنا ملأى بعناصر الحرس المدني وجميع بنادقهم مصوبة نحو نوافذنا.. وتحت، في الشارع يعج المكان بعناصر من السفلة الرعاع مسلحة بالرشاشات.. هل تستطيعون أن تقولوا لي لم كل هذا؟

كان صوته أصغر من سنه وهو ماهر في اللعب بنبراته، فوضع ميكل روزال يده على كتفه وقال له:

-اصغ إليّ يا فيدريكو وخصوصاً لا يرهبنك ذلك.. يجب أن تذهب معي إلى دار الحاكم المدني.. الحاكم يريد أن يراك..

-أنا!

امتقع لون وجه غارسيا لوركا.. كانت جبهته عريضة، محدبة، تعكس النور وكأنها كرة من الزجاج الصافي (الكريستال).. عيناه حلوتان، وديعتان، تظللهما رموش طويلة بشكل خارق للعادة.. وقد تغضنت شفتاه وكأنهما شفتا طفل أوشك على البكاء..

-إذن.. كل هذه الجموع في الشارع.. وكل هؤلاء الحراس على الأسطحة.. من أجلي أنا؟

اجتنب ميكل روزال نظراتي وبذل جهداً كي تكون لهجته مرحة، مازحة:

-أنت تعلم كيف تجري الأمور في أيامنا.. إنها إجراءات أمنية بسيطة!

لم يوفق ميكيل في إخراج كذبته، فأحدثت في أعماق الشاعر عوامل ظهرت على قسمات وجهه:

-إنهم سيقتلونني!

-أقول لك لأن المسألة لا تتعدى تثبيت الهوية.. اسأل الكابتن..

-لم أنتظر سؤال الشاعر، وكذبت بدوري وبكثير من الاتزان:

-بعد ساعة، على الأكثر، ستعود إلى بيت آل روزال.. اعتبر كلامي هذا وعداً مسؤولا أقطعه لك..

-الوعد المسؤول.. قطع الوعود.. كم أصبح آنذاك سهلا عليّ بصق تلك العبارات التي لا رصيد لها، حتى صرت أكذب وأصدق نفسي! على كل حال لقد سمع الشاعر كلامي ووثق به:

-حسن.. لنذهب.

-إن زوجتي متأكدة، وحتى الآن لازالت تؤكد أن غارسيا لوركا منحني ثقته في تلك اللحظة، لأن عيني زرقاوان، ولأنه

-حسب رأي زوجتي _ يقل حذر الناس بل ينعدم إطلاقاً أحياناً عندما يتعاملون مع أصحاب العيون الزرقاء..

قبل غارسيا لوركا وجنتي دونا لويزا كاماشو: قبلتان طنانتان كتلك التي نسميها (قبلات المربية).

-إلى وقت قريب جداً يا فيدريكو..

قالتها وهي تتشج وعيناها تفيضان بالدموع.. وبدا لي أن جميع أفراد تلك الأسرة لا يحسنون ممارسة التمويه والكذب..

أخذ غارسيا لوركا ميكيل روزال بذراعه وسارا معاً باتجاه باب الخروج.. وتوقفا في منتصف الطريق: أدار الشاعر رأسه نصف استدارة، تفحص محتويات الغرفة للمرة الأخيرة: السرير الأندلسي الكبير المصنوع من الحديد من طراز القرن الثامن عشر.. ومقاعد الخيزران وباقة الزهر الكبيرة _ ورد وياسمين تتخللها الأوراق الخضراء _ الموضوعة على الأرض قدام الشباك.. ثم البيانو المفتوح مع مقطوعة لكلود ديبسي:

-لقد كنت سعيداً جداً، هنا..

قال الشاعر ذلك وابتسم لدونا لويزا وتمتم هامساً: شكراً.. وقد ترامى إلينا - في وقت متأخر جداً _ أن الشاعر اغتنم عزلته في بيت آل روزال كي ينهي مسرحيته الحوارية (بين برناردا) وينقح قصائده التي ألفها في مجموعة سماها (حديقة القصائد).

على بعد خطوة واحدة قطعناها نحن الثلاثة بعد اجتياز باب الخروج تذكر غارسيا لوركا أمراً وتوقف من أجله:

-قد يكون من اللازم أن ألبس سترة وربطة عنق لمقابلة الحاكم أليس كذلك؟

-نحن في حالة حرب يا فيدريكو - قال ميكيل متبرماً - ونحن في عز الصيف.. ارم المراسيم للشيطان..

-معك حق أنا لا أطيق ربطة العنق: ما لبستها مرة إلا وشعرت أن الحبل يشد عنقي!

-ساد صمت قاطع وفجأة اصفر وجه غارسيا لوركا وقال متنهداً:

-هذه حماقة، قلتها.. في إسبانيا لا يشنقون الناس.

وبعد فترة صمت أخرى، تنهد ثم تابع قائلاً:

-إنهم يسقطون الناس جثثاً هامدة..

في عودتنا إلى الطابق الأول وجدنا رويز آلونسو بانتظارنا في الصالة فنهض للقائنا وعيناه مثبتتان على الشاعر، وقام ميكيل روزال بمهام التعارف، فمد غارسيا لوركا يده للمصافحة إلا أن المندوب تجاهل تلك المبادرة وتعامى عنها.. وكانت السيدة روزال تعالج منديل دانتيلا بين أصابعها وتكاد تمزقه، وقد احمرت عيناها وكأنها قد بكت طويلاً.. فأخذت الشاعر بين ذراعيها وضمّته طويلاً وهو يحاول أن يعزيها في حدود استطاعته:

-خففي عنك يا دونا لويزا.. لست ذاهباً إلى الصين..

-جوزي سيكون هنا بعد لحظات.. اتصلت به الآن هاتفياً، لا تخف شيئاً يا فيدريكو.

-ولكني لست بخائف شيئاً يا دونا لويزا.. وعلى أي حال لماذا الخوف مادمت لم أفعل شيئاً؟!

نظر رويز آلونسو إلى ساعته وقال بصوت مبحوح:

-كلما أسرعنا بالذهاب كانت عودته أسرع...

ونظرت إلي مدام روزال آملة أن تسمع مني بالذات تأكيداً لهذا الكلام ولكني لم أفعل..

في الشارع، ما أن ظهر فيدريكو غارسيا لوركا على الرصيف حتى تحول الرجال الذين للمتهم يد المندوب إلى تماثيل جامدة:

العديد منهم يعرفون الشاعر منذ الصغر.. وكأعضاء في الزمرة السوداء فإنهم يعرفون جميعاً ماذا سيكون مصير سجينهم.

فتح ديونيزيو، السائق، الباب الخلفي لسيارته وحالما مر الشاعر أمامه دفعه من خلف بوحشية فسقط على ركبتيه قبل أن أتمكن من الإمساك به وتلافي سقوطه.. وما أن جلس بين رويز آلونسو وبيني حتى رأينا رجلين يتسلقان رفراف السيارة ويصوبان سلاحهما إلى داخل السيارة.. إلى بطن الشاعر تماماً.

فعلق على تلك الإجراءات بقوله:

-إجراءاتكم الأمنية متقنة جداً كما يبدو..

بدأ صوت الشاعر يرتجف قليلاً دون أن يتضمن تعليقه الساخر ذاك أثراً للضغينة.. ومع ذلك، شعرت أنه بدأ يفقد كل أمل..

سأل ديونيزيو:

-إلى أين؟

-توقف أمام مفوضية البوليس في (كان ديكيزا).

كان ميكيل روزال جالساً على يمين السائق، فالتفت فجأة نحو محاصريه وقال: -أظن أنني سمعتكم تقولون إن الحاكم بانتظارنا..

أجاب رويز آلونسو مصطنعاً الدهشة: -ماذا؟ ربما كنتم أخطأتم فهم ما قلت.. الحاكم المدني لم يتعود قط أن ينتظر أيا كان من الناس بل العكس هو الصحيح...

تململ ميكيل روزال فكاد المقعد يتحطم..: -أنت حقير قذر...

هنا تغير اتجاه سلاح الرجلين، نحو ميكيل روزال طبعاً.. وتنازل رويز آلونسو يشرح كلامه:

-الحاكم موجود في (موتريل) بمهمة تفتيش وسيستقبل غارسيا غداً صباحاً، وفي مفوضية بوليس كاد ديكيزا سيقضي صديقك ليلته..

كرر ميكيل روزال شتيمته لي وسألني: -وأنت، المراقب، ماذا تقول؟

-لقد ذكرني، من حيث لا يدري، بحقيقة مهمتي وحدودها.. إنها لا تتعدى المراقبة، فأجبت:

-يبدو لي أن مفوضية البوليس خير مكان يقدم كل الضمانات الضرورية لقضاء ليلة آمنة فماذا تخشى؟

وتحرك سلاح الرجلين السافلين حتى لامس مباشرة بطن ميكيل روزال فضبط هذا أعصابه واستعاد بعض هدوئه:

-طيب.. فهمت.. ولكن، في المفوضية أو سواها لن أتخلى عن غارسيا لوركا واتركه بين أيديكم.

كان كلام ميكيل مجلبة سرور لنفس المندوب الذي ابتسم ابتسامة رخوة وعقّب بلؤم:

-إنها مشيئتك.. وأنا آخر من يفكر بأن يمنعك أن تقضي ليلة

داخل السجن!

كان الشاعر منطوياً على نفسه يسمع الحوار الدائر وهو صامت، مغمض العينين، وشفتاه تختلجان، لكأنه يؤدي في داخله صلاة خاصة...

أدخلنا أحد الحرس إلى مكتب مفوض البوليس العام (دون جيليوبونس) وهو رجل ضخم جداً، سمين جداً شعره أشعث أحمر وله أنف مدمني الكحول.. ما أن أبصر غارسيا لوركا حتى هب واقفاً:

-دون فيدريكو؟.. ماذا تفعل هنا؟

كان الآخر أيضاً قديم المعرفة بالشاعر كما أنه - في سره - معجب بلا حدود بمؤلفاته كلها...

تدخل رويز آلونسو، وبلهجة متعالية، جافة قال:

هذا الرجل في حالة توقيف وأريد أن يقضي الليلة هنا.

تحول لون المفوض إلى قرمزي: _ أريد.. أريد.. ليس هناك ما يوجب أن يقضي فيدريكو غارسيا لوركا ليلة في مفوضيتي.

أجاب رويز آلونسو بنفاد صبر: -آمرك بذلك..

-أبداً! (صرخ الآخر وهو على حافة الخروج عن طوره) وقبل كل شيء من أنت؟

قدم المندوب اسمه وصفته دون أن يضيف انتماءه إلى أركان قيادة الزمرة السوداء..

-وحتى إذا كنت حقاً من تقول - صرخ المفوض وهو يضرب بقبضة يده على مكتبه - ليس لك أن تملي عليّ أوامرك.. هنا، أنا الآمر ومن الوجهة القانونية...

قاطعه المندوب مقهقهاً: -.. وجهة النظر القانونية؟!

-نعم، يا سيد! من وجهة النظر القانونية لا يحق لك توقيف ذبابة

دون الرجوع بذلك إلى السلطة المختصة.. وهذه السلطة، هنا، هي أنا.. أما بخصوص هذا الرجل - وأشار بيده إلى الشاعر - فإنه يتمتع بكامل حريته وأنت تتحمل، بشخصك - مسؤولية كل ما يمكن أن يحدث له بعد أن يخرج من هنا.

-أنا على وفاق مع السيد المفوض - قال ميكيل روزال وهو يأخذ غارسيا لوركا بذراعه - ولنذهب فوراً إلى مقر الحاكم المدني.

ثارت ثائرة رويز آلونسو فدفع غارسيا لوركا وميكيل روزال نحو باب الخروج وقبل أن يجتاز عتبة ذلك الباب لم يتمالك من أن يلتفت نحو المفوض ويقول متوعداً: -سنلتقي!

-أن نلتقي ثانية أمر يثير دهشتي يا حضرة المندوب لأن لكل منا عالما خاصاً يسلك طريقه فيه!

ما قاله المفوض كان صحيحاً: بعد سبعة أيام بالضبط، الباجاجيرو ذبح ليلاً المفوض العام في مكان مهجور قرب الحمراء، ولم يكشف عن مسؤوليته عن تلك الفعلة إلا بعد عدة شهور من ارتكابها، أي بعد أن أصبح واثقاً أن قادة الزمرة السوداء أصبحوا قادرين على الإثبات أن المفوض العام جيليوبونس ينتمي إلى أهم مجمع ماسوني في غرناطة؟!

أخذت المندوب جانباً على الرصيف قبل خروجنا لركوب السيارة، وسألته: - يا رويز آلونسو، لماذا تكذب بهذا الشكل المفضوح؟.. الحاكم القومندان فالدز ليس في مورتيل كما زعمت، بل هو في مكتبه الرسمي، والذي أعرفه هو أنه مستعد لمقابلة غارسيا لوركا حالما تحضره إليه..

-هذا صحيح ولكن لتصري في هذا سبباً أساسياً، هو أن إضبارتي ضد غارسيا لوركا غير كاملة ولن تكتمل قبل صباح الغد، حيث يقوم بعض الأصدقاء بإعدادها لي ويهمني أن تكون على مكتب فالدز قبل تسليمه هذا الشاعر.

-كانت حجته وجيهة.. ومع ذلك سألته أيضاً: -إنني لا أفهم معنى إصرارك على أن يقضي الرجل ليلته في مفوضية بوليس، لماذا مثلاً لم نرجئ أمر توقيفه في بيت آل روزال إلى صباح الغد؟!

-لأنني علمت أن (نستار) من جهته، يطلبه لتكون له اليد العليا في تقرير مصيره، ولا أقبل أن ينتزعوه من قبضتي في الدقيقة الأخيرة.

-ولكن، ما من أحد يمسه دونك إذا ما قضى ليلته في دار الحاكم المدني.

-هل تعطيني بذلك وعداً موثوقاً؟

-سيكون هناك تحت إشرافي شخصياً؟

-وفالدز؟ - قال المندوب مكتئباً - إذا علم غارسيا لوركا موجود تحت سقفه فقد لا ينتظر ويطلب رؤيته حالاً..

-فالدز ينصرف إلى اهتمامات أخرى أكثر أهمية من قضية الشاعر.

فجأة أبدى رويز آلونسو حذره إذ سأل: -يافونسيكا لماذا أصبحت متعاوناً معي إلى هذا الحد؟

-لأنني أحب أن يتم كل شيء وفق القواعد.

-تعليقاً على تخريجي هذا انفجر رويز ضاحكاً وهو يقول:

-آه! أنت حقاً عسكري.. لا يمثل الواحد أمامك بدون قفازات بيضاء!

قال هذا وسار عدة خطوات نحو السيارة ولكني استوقفته مرة أخرى وقلت:

-يارويز آلونسو.. ما هي، بالضبط دوافعك الخاصة ضد غارسيا لوركا؟

استدار نحوي بكليته.. حقاً إنه قبيح، دنيء بدون حدود.. القشرة السميكة تغطي جلدة رأسه وتتناثر بين شعره، والأوساخ تملأ أذنيه! لقد أجابني:

-لاشيء! ولكنه استدرك فوراً فقال: -بل، بالأحرى، كل شيء!

بعد زمن طويل من ذلك، كنت أراجع إضبارة الشاعر فعثرت فيها على بعض التصريحات التي سبق له أن أعطاها للصحف ومن بينها: - (.. أنا مرح دائماً، مرح الطفولة يرافق مراحل عمري حتى لكأنها امتداد لتلك الطفولة.. أنا حريص على أن أبقى كذلك وأن لا ينضب ينبوع تفاؤلي..) ومن بينها: - (أريد أن ألهو، أخرج، أتحدث ساعات طويلة مع الأصدقاء، ومع الفتيات الشابات، أن أمارس كل مايمكن أن يسمى متع الحياة، الحياة العريضة، المليئة، الشبابية، الواعية). ومنها: -(.. أعمل بصفتي ابن عائلة تحررت من اهتمامات ربح المال عن طريق الأدب: إنني أكتب ما أشاء حين أشاء). ومنها: - (الذين يريدون الإساءة إلي يضيعون وقتهم لأني أنسى الأذى والإساءات فور حصولها وأواجهها دوماً بالضحك، ضحك العافية، وضحك يومي لا يختلف عن ضحك أمسي الغابر، ضحك الطفولة والريف.. ضحكي الفلاحي.. ضحك الفلاح الذي سأدافع عنه دائماً، حتى الموت). - كان لوركا يفخر أنه دائم السعادة، يصفح مسبقاً عن الذين يريدون له الشر... ورويز آلونسو لا يستطيع إلا أن يكره كائناً بهذه الشفافية وهذا الصفاء.. هذه حقيقة لم أفهمها إلا في وقت متأخر جداً.

التحقنا بالآخرين في السيارة.. كان ميكيل روزال يقضم أظافره غارقاً في صمته بينما بدا غارسيا لوركا وكأنه يتابع صلاته.. كان أمام السيارة مسافة مئة متر فقط لتصل بنا إلى دار الحاكم القريبة في نفس الشارع.

داخل الحاكمية، استلمت زمام المبادرة، حلت بين غارسيا لوركا وبين المندوب وأنا أسأله:

-في أية ساعة تكون إضبارتك جاهزة؟

-فكر رويز آلونسو قليلاً قبل أن يجيب: -غداً صباحاً في الحادية عشرة.

-طيب، في الحادية عشرة تماماً يستقبلك السيد الحاكم..
والآن أيها السادة، إلى الغد..
ولم أترك لأحد مجال المقاومة.. وجهت لأحد الحرس المغاوير الأمر التالي:
-خذ هذا الرجل إلى الطابق الثاني.. سيقضي هناك الليلة المقبلة وإياك أن يقترب منه أحد سواي، فهمت؟!
-حيا الحارس المغوار وأمسك ذراع الشاعر بقبضته وقاده نحو المصعد.. وتحرك ميكيل روزال ليتبعهما فزجرته بحزم وأمرته بالبقاء بقربي وقلت: -لاشيء يدعوك إلى الخوف يا روزال.. لا يذبحون الناس في دار الحاكم المدني بغرناطة.
كان صعباً على الشاب امتلاك أعصابه الهائجة فصرخ بصوت عاصف: -أريد مقابلة القومندان فالدز.
لا يستطيع أحد مقابلة فالدز قبل أن أقدم له تقريري الخاص:
لقد كذبت أنا بدوري وبنفس الأسلوب الذي يتبعه رويز آلونسو:
-القومندان فالدز في سفرة تفتيشية في جبهة موتريل..
سيكون في مكتبه في صباح غد وفي تمام الساعة التاسعة.
أشعل ميكيل روزال سيجارة وأصابعه ترتجف. وقال:
-اصغ إليّ جيداً يا فونسيكا - قالها وهو يصر بأسنانه - أي شيء يحدث، من الآن وحتى الغد، لغارسيا لوركا سيكون جلدك ثمنا له وأقسم على ذلك.
-لقد كان جاداً في موقفه وفي قسمه فعقبت: -أنا ذاهب للاهتمام شخصياً بترتيبات إقامة سجيننا..
قلتها بكل هدوء وأنا أدير ظهري وأنصرف باتجاه المصعد.
-رويز آلونسو وميكيل روزال جمدا مكانهما حتى تحرك بي

المصعد، ثم دون أن يتبادلا أية كلمة، أية تحية، غادرا دار الحاكم المدني، وسار كل في طريقه.



- بعد دقائق معدودات، كنت أدخل مكتب الحاكم فوجدت فالدز مكباً على رزمة من التقارير، يطالعها وهو يدخن سيجاراً، ونظارتاه مرفوعتان فوق جبهته. قال دون أن يرفع رأسه:

- لحظة وأتفرغ لك يا فونسيكا..

وقع إحدى الأوراق.. ومهر أخرى بخاتمه ووضع الورقتين في مغلف ضخم داكن اللون، أقفل عليه أحد أدراج مكتبه، ثم وضع يديه المبسوطتين على طاولة العمل وقال وهو ينظر إليّ:

- والآن، يا فونسيكا ماذا لديك من جديد؟

- لم أستطع قط التآلف مع نظرات القومندان فالدز، إنها مضطربة، كثيفة.. عيناه كعيني سمكة ميتة! إنهما مكورتان لونهما مزيج من الأخضر والأصفر الشاحب، فوقهما حاجبان ثقيلان بنفسجيان متحركان كحاجبي الأفعى.. إنه رجل صغير، جاف، شديد النحافة، وجهه طويل كثيف الشعر وذراعاه تجاوز طولهما كل المقاييس الطبيعية المعروفة.. وجلد وجهه الرمادي، الرصاصي اللون، يبدو وكأن أشعة الشمس لم تلامسه قط.. وفمه ذو الشفتين الحمراوين يتحرك عند الكلام بشكل يثير الاشمئزاز مع عرة وجرجرة تثيران الضحك.. إن منظره العام يوحي، بشكل مؤكد، إنه مصاب بداء الزهري من الدرجة القصوى.. وليس أسهل عليه من التمادي في نوبات غضب خطيرة تثيرها كلمة نعم.. أو لا.. وبعدها يحتاج إلى جهد فائق ووقت طويل كي يستعيد امتلاكه لزمام حركاته وتصرفاته.. وهو لا يستسيغ

قط مرافقة النساء لأنه يخافهن بالغريزة كما تخاف القطط من الماء! أما مع الرجال – وبخاصة مع العسكريين – فقد يسترسل في دعابة كتيمة لا تضحك أحداً سواه. وضحكته دائماً عالية طنانة يصعب التصور أنها يمكن أن تخرج من صدره الضيق المحصور بين كتفيه الهابطين.. لم أره قط في غير بزته النظامية، إنه يفضل دائماً (كيلوت) الخيالة من الجوخ البيج الإنكليزي الفاتح والجزمة الصهباء المجزفة.. مع مهمازين يسجل إيقاع رنينهما كل خطوة من خطواته.. وتحت ذراعه الأيسر يحمل طوال يومه خيزرانة رفيعة مدببة بالفضة المرصعة.. وهو، كما أعلم غير موفق في زواجه من سيدة من (جيريزدي لافرونتيرا) لم ألتق بها قط، ويقال إنها دميمة الوجه جداً، ومبتلاة بطبع حاد مثل طبع زوجها.. في شبابه أراد فالدز أن يدخل سلاح البحرية، لكن قصر نظره الشديد حال دون دخوله البحرية في (الفيرول)، فأرغم أن يتدبر أمره خارجاً، وكان حكيماً بأن تجنب سلاح الفرسان لأنه دون هذا المطمح بسبب أصوله المتواضعة، وهكذا لم يبق أمامه سوى سلاح المشاة.. السلاح الوحيد (الديمقراطي) في الجيش في آخر أيام النظام الملكي.. وما أظنه إلا ملقياً على الأرض وما عليها مسؤوليات هذا الفشل المتلاحق الذي جعل حياته تتردى في الهاوية..

-أخيراً يا فونسيكا.. هل أصبحت أبكم أم ماذا؟

وقفت باستعداد وقلت: -غارسيا لوركا موجود منذ عدة دقائق في زنزانة بالطابق الثاني، سيدي الحاكم.

-استرح.. ورويز آلونسو؟

-يحضر غداً صباحاً الساعة الحادية عشرة.. أنا بنفسي حددت له هذا الموعد.

-لماذا غداً صباحاً.. وليس اليوم؟

-يدعى رويز آلونسو أن إضبارته الخاصة بغارسيا لوركا لم تكتمل بعد.

وستكون كاملة من الآن وحتى الساعة الحادية عشرة من صباح الغد؟!

هذا مايؤكده هو، سيدي الحاكم.

-سنرى...

وضع سيجارة الهافانا على منفضة ضخمة من الرخام الأسود وراح يفتش بين الرزم المتناثرة أمامه حتى عثر على الورقة المحررة من قبل رويز آلونسو، والتي جلبتها له في وقت سابق:

-أما أنا فسأعدم غارسيا لوركا رميا بالرصاص من أجل هذا وحده: -عضو مؤسس لجمعية أصدقاء الاتحاد السوفييتي.. ولا حاجة لنا بأية إضبارة أخرى..

-ألا يحتمل أن تكون هذه التهمة مجرد تقولات لا أساس لها؟

-لا يا فونسيكا.. هل تحسبني طفلاً غريراً؟ حين كنت تجوب غرناطة مع رويز آلونسو قمت أنا أيضاً بتحرياتي الخاصة.. إتصالان هاتفيان أو ثلاثة لا أكثر وتأكد عندي أن شاعرك يا فونسيكا شخص قذر جداً.

-إنه ليس شاعري ياسيدي الحاكم وإلا فيجب أن أعدم معه رميا بالرصاص..

تنازل وابتسم ابتسامة أشبه بتكشيرة مبتسرة.

-إجلس يا فونسيكا وقبل ذلك تكلف وأسدل الستارات أكثر..

إنه يخاف النور، وإضافة إلى العتمة التي خيمت، ركز فوق أنفه نظارتيه السوداوين (السرمديتين): -كيف رأيت صاحبنا يا فونسيكا؟

-تسيطر عليه الرهبة.

-نعم أتصور ذلك ولكن.. هيئته، مظهره؟

-ليس كبيراً جداً. بدين، يدان صغيرتان، قدمان صغيرتان، عينا بنت.

-ومس من الجنون طبعاً؟!

-لا بل أقول أنه وقور إلى حد الكفاية..

-ولكنه شاذ جنسيا..

-لاشك في ذلك.. يجب أن يكون...

عاد فالدز فتناول سيجارة الهافانا: - هذه الصداقة مع آل روزال تدهشني.. إني أعرفهم جيداً: متصلبون، عتاة، مقدامون، رجال حقيقيون، ولا أرى مبرراً يفسر لهو الطفل غارسيا لوركا في وسط كهذا..

-قد يكون التفسير المطلوب كامنا فقط في كون لوركا صديق رابع الأخوة روزال.

-أخ رابع؟ لا أعرف لهم أخاً رابعاً.. من يكون هذا؟

-لويس روزال، يسكن في مدريد ويأتي إلى غرناطة في فترات نادرة.

-ماهي مشاغله في حياته.. لويس هذا؟

-إنه صحفي.. شاعر في ساعات لهوه وفراغه، هذا ما علمته..

أشرق وجه فالدز: _آه! معلومات ثمينة عن هذا إنه في تقديري شاذ جنسياً لاشك في ذلك؟!

-لاأعرف شيئاً عنه من هذه الناحية.

-يجب أن يكون، قطعاً، الاثنان يشكلان (الطنجرة وغطاها)..

-تفسير آخر لهذه الصداقة مع أسرة روزال قد نجدها في شطر النساء.

-أية نساء؟

-السيدة روزال وأختها، دونا لويزا كاماشو.. كانتا تتحببان كالمجدلية ونحن نقتاد الشاعر إلى هنا.

أعاد فالدز إشعال سيجارة بمزقة ورق ملتهبة: -هذا جائز، يافونسيكا، للنساء ميول خاصة بالنسبة لهذا النوع من الأشخاص، وهذا هو مركب نقصهن الذي قد يكون أكثر جوانب شخصيتهنّ صدقاً.

(رفض) السيجار أن يأخذ النار فسحقه فالدز في قعر المنفضة: -إن له كثيراً من الأصدقاء في غرناطة، هذا الكويتب.. ومن بينهم الشيخ (مانويل دي فالا).. وله أيضاً عدد مماثل من الأعداء.. سبق له أن نشر ثلاثة أعداد من نشرة فوضوية عنوانها (الكاللو) وفي إحداها كتب بتوقيعه الصريح عن البورجوازية في غرناطة.. هل تعلم بماذا نعتها؟

لقد قال إنها (عفنة).. هذا النعت يعنينا جميعاً يا فونسيكا، يعنينا نحن حماة النظام والتقاليد، ويشمل أيضاً آل روزال، بما في ذلك نساؤهم البسيطات، ومن أجل هذا يصعب عليّ أن أفهم كيف يتورط هؤلاء في إيواء غارسيا لوركا والمجاهرة تحت سمعي وبصري بصداقة مثل هذا الأحمر العقائدي..

-أحقاً هو كذلك ياسيدي الحاكم؟

-بدون أدنى شك سيكون لدي كل البراهين منذ صباح الغد.

-تعني إضبارة رويز آلونسو؟

-ليس تلك الإضبارة فقط.. بل براهين أخرى.. وثائق مكتوبة، أشياء صرح بها هذا القذر للصحفيين في مدريد.

ورفع فالدز نظارتيه فوق جبهته ورتّب بأطراف أصابعه شعر حاجبيه النافر من قلة النوم:

-الشّيء الوحيد الذي يبدو لي واضحاً في هذه القضية هو اللعبة

التي لعبها رويز آلونسو لإحاطة آل روزال بالشبهات ليس إلا.. وآل روزال يعني الكتائب جملة. وهو يأمل من وراء ذلك إحراز كسب لصالح الاتحاد الإسباني لليمين.. لاشك أن (البورجوازية) في غرناطة ستبالغ في تضخيم ماسيسمى التواطؤ التآمري بين أحمر مرموق وبين حواشي قائد منظمة الكتائب.. إلا أنني لاأنوي أن أضع في ظهري آل روزال، لأن أصدق الاحتمالات وأقربها إلى التحقيق هو أن منظمة الكتائب هي التي ستستلم السلطة، غداً، في إسبانيا ونحن محسوبون عليها يافونسيكا، مادمنا لانقع في الفخ المنصوب لنا من قبل هذا القذر الحقير رويز.

بدت على قسمات وجه فالدز علامات الارتياح والرضى عن نفسه.. عن بلاغته في العرض.. ثم انحنى على مكتبه مستنداً إلى مرفقيه..!

-فونسيكا..

-سيدي الحاكم.

-أنت رجل ماهر وناضج.. لاتعترض.. أعرف هذا.

-شكراً سيدي الحاكم.

-فونسيكا، عليك أن تصغي لي هذه القضية بكل هدوء.

-أنا طوع أوامرك سيدي الحاكم.

-عليك أن تنفذ عملية إعدام بهذا الـ (...) دون حاجة لأي شكل من أشكال المحاكمة.

-دون محاكمة؟

-المحكمة هي أنا وقد قضيت وأصدرت حكمي.

-حسناً، سيدي الحاكم ومتى تريد أن...

-غداً مساء في الساعة المعتادة...

-في أي مكان سيدي الحاكم؟

-أترك لك أن تختار المكان.

-في منحدرات (فيزنار) المحاذية لأملاك (دوق ويلانغتن) إنه مكان موافق عملياً كما يبدو لي.

-حسن جداً اذهب إلى منحدرات فيزنار.

-حتى يأتي الموعد المحدد، ماذا أنا فاعل بالسجين؟

-دعه حيث هو وبمنتهى السرية.

-محتمل جداً أنه، منذ صباح الغد، سيتدخل أصدقاء لوركا بكل ما يملكون من قوة.

-لن أستقبل أحداً منهم. اترك لك تخليصي من مضايقاتهم..

كأن تقول لهم مثلاً أن غارسيا لوركا قد أعدم فعلاً في فجر نفس اليوم الذي اعتقل فيه..

سيدي الحاكم، إذا أعدمنا لوركا لن يقف آل روزال مكتوفي الأيدي. أنا مقتنع أنهم سيردون بمنتهى العنف.

-لا يهمني.. الأمر المفروغ منه إنني أرفض أن أكون ألعوبة بيد رويز آلونسو، وفي نفس الوقت لن أدع لآل روزال مجالاً للاعتقاد أن بإمكانهم إملاء إرادتهم المطلقة على حاكم غرناطة المدني:

إن موت هذا الحقير التافه سيكون درساً لهم..

صح ماتوقعته وكنت أخشاه: منذ الصباح الباكر بدأت تتتابع التداخلات لصالح لوركا دونما انقطاع.. في الساعة التاسعة تماماً، حضر دون مانويل دي فالا _ مصحوباً بضابطين من الجيش _ إلى دار الحاكم المدني وطلب مقابلة الحاكم فوراً.. وكان الرد - بناء على أمر مني - إن الحاكم غائب عن غرناطة وسيدوم غيابه طوال اليوم.. عندها طلب دون مانويل (مقابلة أي مسؤول ينوب عنه) فاستقبلته

واقفاً في مكتبي - وكانت أول مرة في حياتي أراه فيها - كان صغيراً جداً شديد النحول، وجهه طويل، تحرث عرضه تجاعيد دقيقة طويل الأهداب بحيث عسر عليّ تمييز عينيه.. من كلماته الأولى كشف لي عن هدف زيارته وعن حالته النفسية:

- بحق الشيطان لماذا أوقفتم غارسيا لوركا؟

فهمت أن من العبث ملاطفة هذا السيد الشيخ فأجبت:

-يا سيد دي فالا، أستقبلك في هذا المكتب بناء على إلحاحك ولكني لا أملك صلاحية الإجابة على استفهاماتك في غياب الحاكم فالدز.

رفض أن يفهم: -أريد أن أعرف أين يوجد غارسيا لوركا..

-آسف يا دون مانويل، ليس لدي ماأقوله بهذا الصدد.

كان الضابطان المؤازران للسيد الشيخ يزوغان عن نظراتي كلما انصبّت عليهما.. أحدهما - ملازم في سلاح الهندسة - شرح لي، وهو يبتلع نصف كلماته، أن دون مانويل دي فالا ذهب باكراً إلى معسكر الاعتقال في (لاس آريناس) على أمل أن يعثر على الشاعر بين المعتقلين المنتشرين في الباحات وعلى الأرصفة.

-ولكننا لم نجده - قال الضابط الملازم - لو كان هناك لعرفته حالاً. لقد كنا نرتاد نفس المقهى على الآفانديا.

سأل دون مانويل بصبر نافد: - في أية ساعة يعود القومندان فالدز؟

-لا أعلم، يا دون مانويل، الحاكم رجل كثير المشاغل. على كل حال لا أعتقد أنه يستطيع مقابلتكم قبل يومين أو ثلاثة..

ضرب الشيخ الأرض بطرف عكازه (عصا أسل ملاقيه مدببة بالعاج) وكان يرتجف غيظاً..:

-اسمعني جيداً يا كابتن.. سأقلب السماء على الأرض حتى أعثر على غارسيا لوركا.. سأذهب إلى كل مكان.. المفوضيات..

معسكرات الاعتقال.. السجون.. سوف..

هنا رأيت أن أحسم الموضوع معه فقلت بكل هدوء: - يا دون مانويل لاتضيع وقتك سدى.. فيدريكو غارسيا لوركا أعدم رميا بالرصاص صباح هذا اليوم عند الفجر..

لقد حوّله كلامي إلى مايشبه خفاش الليل الذي فاجأه النور وبهر عينيه فقال متلعثماً: -إذن.. لقد قتلتموه..

وانهارت الدموع على خديه الأجوفين، وأطرق وهو يردد:

-ومع ذلك، لقد كان مفخرة إسبانيا..

ثم ترك مكتبي يرافقه الضابطان دون إشارة منه، دون أن ينبس بكلمة.. إن ماحل بمفخرة إسبانيا قد أضاع رشد الشيخ.

قبل أن أنهي تدخين سيجارة علت الأصوات في الغرفة المجاورة لمكتبي.. فخرجت مسرعاً لأجد في غرفة انتظار الحاكم بالذات عنصرين من الحرس المغاوير يسدان المدخل بوجه جماعة من الكتائبيين بألبستهم النظامية تجمعوا أمام باب مكتب القومندان فالدز. عرفت من بينهم (آدولفو كلارافانا.. سيسيليوسير.. فيليكس بورتا.. وليوبولدو مارتينيز) وكانوا يحيطون بشاب رغم نظارتيه المؤطرتين بالصدف، يشبه ميكيل روزال بشكل مثير..

إنه شقيقه لويس الصحفي الشاعر، صديق غارسيا لوركا فزجرتهم بلهجة آمرة:

-يا سادة، رجاء، بعض الهدوء! - وما أن أبصرني لويس حتى انقض عليّ، هائجاً: -حرسك منعوني أن أقابل فالدز.. أريد..

-حرسي هنا لأداء هذا الواجب.. والسيد الحاكم لا يستقبل أحداً

اليوم..

-أنا لويس روزال شقيق جوزي!

-أنا الكابتن فونسيكا ولست أطرشاً! إذا كان لديك ما تعرضه على الحاكم قدمه بموجب عريضة خطية..

-ذهب لويس روزال وراح يبلع ريقه وكان الضجيج قد سكن تماماً..

-طيب.. مادام الأمر كذلك..: - أشار ليسيسيليوسير -

-وكان يحمل دفتراً بيده - وأمام الثلاثين رجلاً أملى لويس روزال بصوت يرتجف غيظاً ما يأتي: -(.. الشاعر فيدريكو غارسيا لوركا، المقيم في بيتي الخاص، الذي هو أيضاً بيت أخي جوزي روزال قائد منظمة الكتائب بغرناطة، في الطابق الأول من (كال دي آنجيلو) قد أوقف بعد ظهر أمس من قبل من يدعى رويز آلونسو المصحوب بعدد من العناصر...

عند هذه النقطة بالضبط - وكما تتم الأمور على خشبة المسرح - فتح باب مكتب الحاكم ليظهر رويز آلونسو وبيده حقيبة جلد سوداء وما أن سمع اسمه يردد حتى قاطع إملاء شقيق قائد الكتائب:

رويز آلونسو.. أنا هو...

انقض لويس روزال عليه وأمسك به من سترته وهزه هزة اقتلعه بها من الأرض كأنه فأر وصاح به: - بأي حق اعتقلت صديقي غارسيا لوركا داخل بيتي؟

المثير في الأمر حقاً أن رويز وهو في تلك الحال كان يبتسم، وظل يبتسم! - أوقفت غارسيا لوركا على مسؤوليتي الخاصة!

كان من حق رويز آلونسو أن يتهلل ويبتهج. لقد انتصرت استراتيجيته، فالأخوة روزال ومعهم قادة كتائبيون آخرون (منهم

كلارافانا.. سير.. مارتينيز) اعترفوا ضمناً بمجرد حمايتهم لغارسيا لوركا، إنهم شركاء في التواطؤ مع شخصية (حمراء) بدأت تتأكد أهميتها أكثر فأكثر.. وأن أي تراخ من قبل فالدز نفسه يضعه مع هؤلاء في حماة التواطؤ، ومن هنا كان منطقياً أن يتخلص فالدز من سجينه في أسرع وقت ممكن.

كان رويز آلونسو يأمل ألا يقدم فالدز على إعدام الشاعر قبل الحصول مسبقاً على موافقة (المقر العام القومي) ويقتضي ذلك الانتظار بعض الوقت، أي حتى تتضم قوات الجنرال فاريلا إلى القوات المتواجدة في غرناطة وحولها، الأمر الذي لايخدم فالدز بل يجعل الحكم المدني في غرناطة يقع كالثمرة الناضجة بين يدي المندوب بالذات..

قبض سيسيليوسير بدوره على المندوب وجعله يدور على نفسه كالغضروف ثم صفعه مرتين بقبضة يده اليمنى فتمزقت شفتا المندوب وسال الدم منها.

كان قادة الكتائبيين جميعاً مسلحين، كذلك أنا والحارسان المغواران المدافعان عن باب مكتب الحاكم.. إن مجرد إشارة غير مسؤولة وغير مقصودة أيضاً يمكن أن تحول الموقف المتفجر إلى مذبحة حقيقية عامة.. كان عليّ أن أقف بين الكتائبيين وضحيتهما:

-يا روزال، ماذا تريد بالضبط من السيد الحاكم؟

أجاب بحدة: -أريد أن أفهمه أن هؤلاء الناس قد أضلوه وأريد بالتالي أن أطلب منه إطلاق سراح غارسيا لوركا فوراً..

-وصلتم متأخرين جداً..

حبس روزال أنفاسه وصرخ: - ما تريد أن تقول؟

-اشرأبت أعناق الجميع صوبي: -عنقود من الوجوه العابسة

المريدة وراء روزال وسير.. كثيرون منهم وضعوا أيديهم على مقابض مسدساتهم في حين كان رويز آلونسو ينتظر جوابي وشعاع القلق والاضطراب يتطاير من عينيه..

-فيدريكو غارسيا لوركا أعدم رميا بالرصاص هذا الصباح عند الفجر.

تحول الرجال إلى كتلة متلاحمة، متراصة، سوداء تحركت باتجاهي: كانت يداي في جيبي وسيجارتي في زاوية شفتي ووراء ظهري سمعت قرقعة السلاح حيث عبأ الحارسان المغواران رشيشيهما ووضع كل منهما إصبعه على الزناد.. وساد سكون مفاجئ قطعه بعد ثوان، من مكان بعيد، صرير دواليب ترامواي انعطفت نحو شارع (كريستوري)..

- هذا مستحيل..

دون أن أميز مصدر الصوت أجبت بلهجة محايدة، إدارية:

- غارسيا لوركا حوكم عقب توقيفه من قبل المحكمة الاستثنائية المنعقدة دائماً في دار الحكومة المدنية هذه واقتنعت المحكمة في صحة جميع التهم الموجهة إليه ورفض الحاكم أن يشمله برحمته، والآن، أيها السادة، أنصحكم أن تنسحبوا بنظام لأنكم هنا في دائرة رسمية.

-المفاجأة الكبرى، بالنسبة لي، كانت أن رأيتهم يطيعونني، حتى لويس روزال اكتفى، قبل أن يغادر المكان ملتحقاً برجاله أن التفت نحوي متوعداً:

-لن تمر الأمور هكذا.. أقسم لكم!

لم أجب.. كنت في غاية السرور أن الأمور قد انتهت عند ذلك الحد..

كان رويز آلونسو مكوماً أمامي كالخرقة.. وما أن اطمأن أننا أصبحنا وحدنا حتى سألني: -لقد كذبت عليهم يا فونسيكا، لماذا؟

ضحكت هازئاً: -كي أنقذ حياتك!

-لم يكن يدور في خلدي أن لي مثل هذا التقدير عندك. والآن، لنكن جادين: غارسيا لوركا لا يزال حياً أليس كذلك؟

-ماذا يخسر مادام ينتظر...

-إذن لماذا قلت لهم أن..

ضقت ذرعاً بالمندوب فقاطعته بحزم: -إن دواعي كذبتي لا تعنيك في شيء.. إن دورك في هذه القضية قد انتهى والمشيئة هي، الآن، مشيئة الحاكم وحده..

وثارت ثائرة رويز: -ولكن فالدز لم يقرأ بعد إضبارتي.

لقد وضعتها الساعة أمامه على مكتبه.

كان وزير آلونسو قوياً فعلاً.. بينما كنت أستقبل الشيخ مانويل دي فالا نجح – رغم الأوامر النافذة في أن أعرف ماذا دار بينهما..

أن أعرف خصوصاً كيف عرض روايته..:

-وماذا قال لك الحاكم؟

-لاشيء.. (شكراً!) وليس هذا شيئاً..

-يكفيك هذا، فالحاكم ليس ثرثاراً..

لمس رويز آلونسو بسبابته شفته السفلى التي انتفخت ورما.. شعر فجأة أنه منهك وهمس متذمراً:

-لا أفهم شيئاً مما يجري هنا..

-الأمور مفهومة هنا: أردت أن توقع الحاكم في شرك نصبته له ولكن الحاكم هو الذي صادك..

لأول مرة، منذ بدء حوارنا، نظر رويز في عيني: فأر مرغم على إخفاء هلعه..

-الحاكم صادني.. كيف؟

-اسمع يا عزيزي.. حتى الآن أنا لا أعرف بالضبط من هو غارسيا لوركا الذي لوحت لنا به، ولكن إذا كانت له الأهمية التي نلحظها من خلال ما تبدبه شخصيات عديدة مرموقة في المدينة.

فالحاكم يرى لزاماً عليه أن يلقي على عاتقك أنت وحدك مسؤولية موت الرجل..

امتقع وجه رويز وقال متلعثماً: -تريد أن تقول أن في نية فالدز قتل الرجل.. فوراً..

ربتّ على ظهره بصداقة أشبه بالحماية: -أولم تكن نيتك المبيتة، يا سيادة المندوب، أن يصبح الحاكم شريك الكتائب بالتواطؤ في حماية رجل أحمر، أنت نفسك قدّرت بموجب توقيعك على درجة كبرى من الخطورة؟.. لكن الفشل الذريع حالفك هذه المرة أليس كذلك؟

ثم حييته بإشارة لامبالية من رأسي وأضفت:

-عندي يوم محمّل بالأشغال أحييك يا سيادة المندوب..

ظل وحده جامداً كالتمثال في وسط قاعة الانتظار، وكأنه يتمثل مصير لعبته المفضوحة.. يداه تهتزان وعيناه غارقتان بالدمع الحبيس.



وجدت فالدز قد أقفل عليه، باب مكتبه من الداخل. ولأول مرة رأيته قد أهمل حلاقة ذقنه ولبس كنزته النظامية شعاراً..

كان شديد الانفعال بسبب الطرقة التي تم بها إدخال رويز آلونسو إلى مكتبه.

-إعط الأوامر لمضاعفة الحرس أمام بابي.

-لقد فعلت هذا، سيدي الحاكم.

-وخلصني فوراً من العنصرين اللذين سمحا لهذا السرعوب

بالدخول إليّ.

-فعلت هذا أيضاً يا سيدي الحاكم.

-أشعل سيجاره الأول لذلك اليوم. لقد بدت سحنته دكناء رصاصية:

-ماذا كانت تلك الجلبة التي سمعتها الساعة.

-بذلت جهداً لإعطاء ما حدث مكانه من الأهمية، وسردت له كل ما جرى لنا مع القادة الكتائبيين فظهرت على وجهه علامات الارتياح:

-حسناً.. كل هذا يبسّط الأشياء يا فونسيكا فلا تردد بعد الآن، ولن أتكلف تغطية كل هذه الرعونات إرضاء لرويز آلونسو الذي أصبحت لعبته مفضوحة كما يبدو لي أليس كذلك؟.

-خرق..

-أرادوا إغراقي في القذارة حتى العنق، تواطؤ مع الأخوة روزال، حماية رسمية لشخصية حمراء مرموقة، ضعف، مواقف عاطفية، إلخ... وما أن يصل الجنرال فاريلا إلى هنا حتى يدسوا في أذنه أن فالدز عسكري شجاع ولكنه كحاكم مدني ليس سوى خبيث أحمق.. ويرسخ رويز آلونسو قدميه في هذا المكتب يبحث كالنمس في أدراجي وفي إضباراتي..

قذف فالدز القدح الفارغ الموضوع أمامه:

-قل لي يافونسيكا كيف يكون لويس روزال هذا؟

-إنه شاب حاد الطبع جداً.

-أنت لا تعرف الآخرين...

-بل أعرف ميكيل.

رفع فالدز عينيه نحو السماء: -أكلة لحوم البشر، خصوصاً جوزي، سيثبتون وجودهم- كل في دوره- هنا، سترى..

-وسيردون على أعقابهم يا سيدي الحاكم.

أعاد هدوئي الطمأنينة إلى نفسه:

-أنا أثق به يا فونسيكا.. لا أريد أن أرى أحداً، أتسمعني؟

وانشغل بتنظيف نظارتيه بواسطة محرمة كبيرة تزينها مربعات صغيرة.. ثم استأنف حديثه:

-الهاتف لم يهدأ طوال الليل بسبب هذا الشاعر. لقد جن جنون عمال الأقسام الهاتفية: أناس من كل نوع كما تعلم.. الشيخ فالا الذي كان ينتحب على آلة الهاتف وخانه لسانه فلم يستطيعوا فهم كلمة مما يقول.. نساء يردن معرفة أين يوجد لوركا حتى يرسلن له طروداً.. محام وصف نفسه أنه الصديق المقرب من الجنرال فرانكو، ويصر أن يكون وكيلاً عن لوركا في دعواه.

خوري برتغالي يقول إنه ترجم إلى لغته جميع مؤلفات الشاعر. طبيبان عالجاه وهو طفل وأكدا أنه كان وديعاً كالحمل.. وحتى المطران! إلا أن هذا - بخلاف الجميع - اتصل بي ليهنئني: - (طريدة من النخب الأول يا سيادة الحاكم.. من النخب الأول!).

كشر فالدز عن ابتسامة مواربة وهو في أقصى حالات التوتر العصبي: منذ قيام الحركة، لم ينم أكثر من خمس ساعات في اليوم وغذاؤه الرئيسي (السندويش) والبيرة الفاترة. وهو يقضي الجانب الأكبر من أيامه في المحكمة الاستثنائية الدائمة الانعقاد في الطابق الثاني.. لقد أصبحت (ملهاته) المفضلة و (هوسه) المنشود!، فالدز يفخر أنه طهر غرناطة بنسبة ٨٠ بالمئة خلال الأسبوع الأول من استلامه مسؤوليات الحاكم.. والعشرون بالمئة الباقية (المختفون والفارون) مسألتهم، بنظره، مسألة وقت وطول نفس.. إنه يردد دائماً ((..نهاية الغرقى إنهم ينتفخون ويعومون على السطح..)) ليس فالدز

قديماً في غرناطة، ولم يحاول قط ارتياد الأوساط البورجوازية فيها، فهو لايعرف أحداً - وتلك كانت قوته - فلا يستطيع أحد من متنفذي المدينة التظاهر أنه يعرف الحاكم.. أو استغلال ذلك.. - الطبقات الاجتماعية (التحتية) التي أساء معاملتها بمنتهى القسوة كانت تسميه:

-(قصاب غرناطة الصغير) وهو يتحمل مسؤولية ذلك اللقب بزهو في حالات الشك يأخذ البريء بجريرة الجاني.. وفي كل وشاية يشم رائحة الثأر الشخصي والأحقاد الدفينة وسوء النية والحسد.. وهذا فساد لاعلاج له في نظره.. وطريقته في تحاشي الخطأ والخديعة هي إدانة الجميع دون أي استثناء! والحكم الوحيد الذي يعتبره عادلاً ويرتاح إلى إصداره هو الحكم بالموت.

-فونسيكا، اجلب لي هذا الشخص.

-غورسيكا لوركا؟

-نعم، أتوق لرؤيته، للمرة الأولى والأخيرة..

داعب بأطراف أصابعه ذقنه الخشنة وقال هامساً: - (نحن لانعرف جيداً من يكون هذا الذي سنقتله عما قريب.. أليس كذلك؟).

ذهبت لجلب الشاعر من زنزانته.. وجدته منبطحاً على بطنه وضعت يدي على كتفه وأيقظته ففتح عينيه دون أن يتحرك:

-انهض..

عرفني وأطاعني بسرعة، كالطفل المتشوق للاشتراك في استعراض.. كان أحد أطراف قميصه خارج البنطال، فسوّاه وهو يعتذر ويحمر خجلاً..:

-ينقصني الكثير من أناقة الاستقبالات!

-لاضير في ذلك.. تعال.

تبعني في الدهليز المؤدي إلى غرفة الانتظار، فتقاطعنا مع اثنين

من الحرس المدني يحضران رجلاً آخر مكبل اليدين، فعرفه غارسيا لوركا وتوقف: -أنطونيو؟

توقف الرجل بدوره، مأخوذاً بالمفاجأة: - دون فيدريكو!

ماذا تفعل هنا؟

ولكن أحد الحارسين عاجله بدفعة وحشية من قفاه وزجره قائلاً:

-امش أيها القذر!

ابتعد الرجل ثلاث خطوات ثم توقف، التفت فجأة.. وضع يديه المكبلتين فوق رأسه وصرخ على مسمع منا:

(..عاشت الجمهورية).. تلقى الرجل رفسة على خصيتيه تداعى لها وسقط كالثمل وانهال عليه الحارسان رفسا وركلاً، فتابعنا السير حتى لم تعد آذاننا تسمع وقع الضرب والصوت الحاد للعظام المسحوقة..

خانت غارسيا لوركا القدرة على متابعة المشي وهو يخفي وجهه بين راحتيه.. دفعته بلطف إلى أمام:

-أسرع.. هناك من ينتظرنا.

-سيقتلونه!

-لا، لاتخف، إنها مجرد دعوة للمحافظة على النظام..

نظر إليّ مشدوها وكأنه صبية مفجوعة.. فأخذته في ذراعه لمساعدته على المشي. لم تكن له عضلات.. بل لحم طري يرتعد.. سألته:

-من يكون هذا الفتى؟

ظهرت على الشاعر علامات القيء: -أنطونيو كاسترووانا أعرفه جيداً.. لم يكن جمهورياً في يوم من أيامه.

-ماذا كان إذن؟

-كان فقيراً..

وعقب غارسيا لوركا وهو يرتجف فزعاً:

-نتكلم عنه كما لو كان قد مات حقاً..

-لقد مات.. فعلاً..

في هذه المرة لم يرفع لوركا نظره إلي.. بل قال كأنه يحدث نفسه، كأنه ينظر في أعماقه: - بل الأصح أن حياته الحقيقية بدأت الآن..

لم أسايره فيما ذهب إليه: الموت هو الموت.. ومن يموت إعداماً بالرصاص ينتهي.. هذه آراء لاتصلح للمناقشة هنا..

الأفضل أن نترك له أوهام الشاعر وأحلامه..

توقفت أمام باب مكتب الحاكم: -وصلنا.

قرأ غارسيا لوركا اسم الحاكم المكتوب بأحرف سوداء على لوحة معدنية فتراجع خطوة وتمتم: - فالدز؟

-إنه بانتظارك.

رسم الشاعر إشارة الصليب، فقلت له:

-لماذا تفعل ذلك؟

قبل الشاعر الصليب الذي مثله تقاطع إصبعيه وأجاب:

لأنني، الآن، عرفت نهايتي المحتومة.. فتحت باب المكتب وأدخلته أمامي.. كانت الغرفة معتمة عابقة بدخان السيجار.. هواؤها رطب، دبق، كان فالدز يأخذ رأسه بين قبضتيه بعد تركيز مرفقيه على المكتب- وقد انعكس لون زجاج النوافذ المصبوغ على وجهه فحوّله إلى ما يشبه اللطخة الرمادية الغامضة الملامح - تركنا نقترب نحوه دون أن يتكلم..

-سيدي الحاكم، هذا هو فيدريكو غارسيا لوركا.

لم يرف لفالدز جفن: وقف الشاعر أمام المكتب وهو يحاول، يائساً أن يجد مخبأ يخفي فيه يديه.. وبحركات عفوية حاول وضعهما

في جيبه ثم اكتفى أخيراً بوضعهما وراء ظهره متشابكي الأصابع. شعرت أن الجو الذي ساد كان غير محتمل.. كان فالدز يتفحص الشاعر.. يترصده وهو ساكن، جامد مثل حيوان.. ثم، ودون أن يغير شيئاً من وضعه ذاك سأل:

-هل تعرف أنه كان لي الشرف أن خدمت سابقاً في الحرس المدني؟

-لا لم أكن أعرف ذلك..

-سيدي الحاكم.. قل، سيدي الحاكم!

بهدوء، ردد غارسيا لوركا: -لم أكن أعرف ذلك سيدي الحاكم.

-حسناً، أصبحت تعلم ذلك الآن؟! وبحركة متشنجة من سبابة يده اليمنى، رفع فالدز نظارتيه الغائمتين فوق جبهته، فوضح نظره الشاحب وحاجباه بشعرهما الأشعث النافر ونظراته الحادة كعيني الأفعى:

-أي أثر تحسه في نفسك، ياغارسيا لوركا، عندما تجد نفسك اليوم وجهاً لوجه، أمام واحد من قدامى رجال الحرس المدني؟

لأول مرة في حياته يقصر غارسيا لوركا لسانه عن الكلام، يفضل الصمت..

-أنت، كما أعتقد، مؤلف قصة (الحرس المدني الإسباني).

-نعم سيدي الحاكم، أنا هو.

-وأتصور أنك فخور بذلك؟

ببساطة وعفوية قال الشاعر مؤكداً: - يقولون لي غالباً إنها كانت من أفضل مؤلفاتي الشعرية..

-ما رأيك فيها أنت بالذات؟

فكر غارسيا لوركا قليلاً: -كتبت أشياء أفضل منها.

-مثلاً..؟

أشرق وجه الشاعر وكأن شبابه قد عاد إليه - أوه.. أناشيد يغنيها الصغار في منعطفات الشوارع مثل (لونا.. لونيرا.. كاسكا بيليرا).

فوجئت ساعتها.. أهي، إذن للوركا، تلك الأغنيات التي كانت بناتي يرددنها فيملأن جو البيت مرحاً؟ وحتى فالدز كان يجهل حتماً، هو أيضاً، أن الشاعر هو مؤلف هذه الأغنيات الشائعة.

-لنعد إذا أردت إلى (قصة الحرس المدني الإسباني) هل لك أن تختصر لي في بضع كلمات فقط موضوع هذه الرواية الشعرية؟

كان العرق يتصبب من جسم الشاعر حتى ابتل قميصه وخانته الكلمات من جديد..

-هل تريد أن أساعدك؟

عرض الحاكم وهو يرمق الشاعر بنظرات زوراء.

التفت غارسيا لوركا نحوي.. ولم أجب على حركة الاستنجاد تلك..

- طيب - تنهد الحاكم.. إن لم تخني ذاكرتي فإن الموضوع هو قيام الحرس المدني بنهب مدينة يقطنها الغجر بعد ذبح أكثر سكانها دون الإفصاح عن دواعي وأسباب ذلك العمل.. غارسيا لوركا، ما هو، في الحقيقة، اسم تلك المدينة؟

تظاهر الشاعر أنه لم يفهم السؤال وأجاب:

-ولكنها مدينة من تصورات الخيال، سيدي الحاكم..

-آه.. هذا ما كنت أقوله.. لأنني لا أعرف مدينة في إسبانية كبيرة أو صغيرة سكانها كلهم غجر.

-أنا أيضاً لا أعرف سيدي الحاكم..

كنت مقتنعاً بذلك، شكراً..

التفت من جديد نحو الشاعر: - إذن، هي مدينة من نسج

خيالك.. إذن لم تشهد إطلاقاً المناظر التي صوّرتها ووصفتها؟

وقبل أن يعطي للشاعر وقتاً للإجابة أخذ فالدز وريقة كانت أمامه على المكتب وقدمها للشاعر:

-خذ واقرأ هذه، إذا أردت، بصوت عال.

سقطت الورقة من بين أصابع الشاعر ولما انحنى لالتقاطها نزلت خصلة شعر على جبينه واستقرت هناك..

قال فالدز بنفاذ صبر: اقرأ.

دون أن ينظر الشاعر في الورقة، استظهر بصوت متهدج يوشك أن يكون نحيباً.. وفالدز يسمع مغمض العينين تلك المقطوعة الشعرية المأخوذة من القصة والتي جاء فيها ما معناه:

(وأنت غجرية.. جالسة أمام بيتها.. وفي يدها ثدياها المقطوعان.. الموضوعان على طبق..)

فتح فالدز عينيه ليقول: -الصورة منفرة، تثير الاشمئزاز.. والحرس المدني هو الذي اقترف ذلك العمل في جملة ما اقترف من أعمال مماثلة ولكن.. هذا المشهد بالذات.. أولم تره قط، بعينيك أنت بالذات، غارسيا لوركا؟

كانت عينا الشاعر تحملقان بالحاكم وهو صامت لا يجيب..

-نعم.. أم لا؟!

-لا.. سيدي الحاكم.

-إنها إذن فرضية مجردة تماماً؟

-شعرية، سيدي الحاكم.

تجرأ الشاعر وصحح العبارة هكذا..

-هذا ماكنت أريد قوله..: الحقيقة لا أثر لها في أشعارك؟

هنا، لم يستطع الشاعر أن يتمالك نفسه: -الأمر غير ما تقول

سيدي الحاكم.

-نوّرني، كيف يكون إذن.. أنا لست خبيراً في هذه المادة وأحاول أن أفهم.. هذا كل شيء..

خدعت اللهجة التي استعملها الشاعر فقال بحماس: في الشعر ليس المهم أن تسجل الحقيقة تسجيلاً بكل دقائقها الموضوعية ياسيدي الحاكم بل..

ضرب فالدز بقبضته على مكتبه: -سوء النية؟ إرادة الافتراء؟ حاجة الانحراف في سبل الضلال؟ الكذب؟

كان صوت فالدز يتصاعد تدريجياً مع كل من هذه العبارات ثم هذا.. وتابع بصوت منخفض:

-وأين يبقى الفكر.. ويكون العقل؟

-الشعر تجسيد لهما.. نعم تجسيد لهما..

ارتمى فالدز إلى خلف وقد علت شفتيه المتصلبتين ابتسامة اكتفاء وقال: - هذه خطوة عملية كبيرة.. إذن، في فكرك وذهنك - وكذلك فكر وذهن قارئيك- الحرس المدني تعود أن ينهب المدن ويذبح سكانها ممارساً جرائم قطع نهود العذارى هكذا.. دون سبب.. وكأنه يمارس ضرباً من اللهو؟!

-أنا.. لم أقل هذا إطلاقاً..

-بل فعلت ما هو أفضل.. لقد كتبته!

خفض الشاعر رأسه ويداه تهتزان: -جرب أن تفهمني، سيدي الحاكم، لما كتبت.. رواية (الحرس المدني) أردت، ببساطة، التعبير عن..

-عن ماذا؟

-عن الخوف، سيدي الحاكم، الخوف الذي يسحق الناس الفقراء، الغجر، نساءهم وأولادهم.. بل يجعل كل هؤلاء خامدين كلما ظهرت

لهم القبعات السوداء المثلثة القرون وبنادق لابسيها.. هذا الخوف الذي...

تعالى هنا صوت فالدز ليصبح صراخاً أشبه بالعواء:

-هذا الخوف.. إنه أنتم.. أنت وأمثالك.. تثيرونها وتتشبثون بها بواسطة أكاذيبكم تزرعونها في أعماق النفوس بمبالغاتكم، بتلك النشوة التي تحسونها عندما تتجحون في قلب الوقائع وتلويثها..

وبحركة مسعورة، أخذ فالدز ورقة أخرى ولوّح بها أمام أنف غارسيا لوركا - إن ماأكرهه فيكم فوق كل شيء آراءكم، بل طريقتكم المتقنة الأداء في تحليل سمومكم تحت غطاء الفن:

إنني أفضل ألف مرة العامل الجاهل الذي يرفع قبضته من وراء متراس على المثقف الذي يحضن كتبه متحصناً وراء جدران مكتب عمله إنني أعدم الأول رمياً بالرصاص مع شيء من الاحترام له أما الآخر فإني أقتله بمنتهى السرور وشهوة القتل!

من جديد، نصبني فالدز شاهداً: -اسمع هذا يافونيسكا.. وراح يقرأ بصوت موحد النبرات:

-(.. أنا أخ لجميع الناس وألعن الرجل الذي يضحي بنفسه من أجل فكرة قومية مغلقة، تعصبية.. ألعنه خصيصاً عندما يحب وطنه وعلى عينيه أكثر من غشاوة.. عليهما عصابة محكمة الربط.. إنني أتغنى بوطني إسبانيا وشعور حب الوطن عميق، متأصل في حتى العظام، ومع ذلك أبقى أولاً وقبل كل شيء مواطناً عالمياً وأخاً لجميع الناس). التوقيع: غارسيا لوركا.

وعقب فالدز على ذلك بما يلي: -أما أنا، القومندان في سلاح المشاة، فالدز، الرجل المستقيم ولكن المحدود.. الشريف ولكنه الضيق الأفق، وطبعاً غير المنفتح على جميع التيارات - أو ليست هذه نظرتكم

إلينا جميعاً نحن العسكريين؟! -.. أنا بهذه الصفات كلها، لست متفقاً معك: أنا سأحب دائماً وطني وعلى عيني عصابة كثيفة فلا أبصر بقية العالم.. ولي الشرف يا سيدي، أن أكون هذا الذي تسميه قومياً متعصباً مغلقاً.. ولن أكون إطلاقاً لامواطناً عالمياً ولاأخاً لأي إنسان: أن أكون إسبانياً،وإسبانياً فقط شاغل يملأ كل وقتي!

انحنى فالدز على مكتبه وظهرت وريقة ثالثة بين يديه:

-فونسيكا، هذه خاتمة المطاف، اسمع:

-(.. رجلان يسيران على حافة نهر، أحدهما غني، والآخر فقير، أحدهما متخم المعدة والآخر يسمع بأذني رأسه قرقرة الريح في فراغ أمعائه.. وقال الغني.. (أوه! يا لجمال ذاك الزورق المنساب على صفحة الماء! انظر.. بل انظر ما أجمل تلك السوسنة المزهرة على الحافة..) وتمتم الفقير قائلاً: - (أنا جائع، إنني لاأرى شيئاً، أنا جائع، جائع!) - إن اليوم الذي يزول فيه الجوع هو اليوم الذي فيه بالذات يحدث في هذا العالم أعظم تفجير عرفته الإنسانية أو حلمت به.. تفجير القوى الفكرية والعقلية والروحية.. وليس بمستطاع الكائنات البشرية أن تتصور مسبقاً ذلك الفرح الذي سيتفجر أيضاً مع إشراقة صبح الثورة الكبرى..)

رمى فالدز الوريقة على مكتبه: -يا غارسيا لوركا، كم كان كبيراً عدد الناس الذين خدعتهم وضللتهم بواسطة هذا النص؟ كم يبلغ عدد الناس الفقراء الذين يعتقدون الآن بفضلك وبفضل فنك، أن الجوع سيزول من العالم يوماً في حين أنت تعلم علم اليقين حتمية استمرار تفاقم الجوع إلى الأبد. كم من الفقراء اقتنعوا معك، أنت ابن البورجوازي، إنهم عمي لا يبصرون الجمال المحيط بهم، لأن الأغنياء وحدهم يحتكرون ذلك دونهم.. كم كان كبيراً عدد الأشقياء الذين

خلقتهم أنت بأفكارك المكتوبة هذه.. وقبل كل ذلك كان عدد الذين ماتوا أو سيموتون من أجل تلك (الثورة الكبرى) التي وعدتهم بها وعلى مرأى منكم هم يفقدونها كل يوم.

لم يجب الشاعر.. نهض فالدز وكأنه وضع كل حمله فهدأ واستراح.. وبالغريزة فعلت مثله..:

-غارسيا لوركا - قال بصوت شديد البطء - أقرر إدانتك بالخيانة لبلدك ومسقط رأسك إضافة إلى كونك مداناً تجاه طبقتك.. مدان تجاه كل الذين خدعتهم وضللتهم بكتاباتك..

-توقف قليلاً كي يأخذ نفساً وهو يتكئ بأطراف أصابعه على مكتبه وقال أخيراً، وهو يشدد على كل كلمة يلفظها: -أحكم عليك أن لاتكتب إطلاقاً بعد اليوم.

-تراءى لي أن غارسيا لوركا أصبح، فجأة، أصغر حجماً مما كان، ونفث العبارة التالية:

-إطلاقاً..؟!

-نعم.. إطلاقاً!

مرة جديدة، حاول الشاعر أن يقرأ في نظراتي شيئاً.

وصمدت، ما استطعت، لهجوم عينيه السوداوين واستجوابهما الصامت حتى سمعته يقول:

-الموت أحب إليّ..

فانحنى فالدز فاقداً كل إحساس بتأثير الموقف وسأل: - هل هذه رحمة تسألني إياها؟

رد الشاعر مؤكداً: -الموت أحب إليّ...

فكر الحاكم لحظات ثم، وبتحبب مصطنع قال: -اتفقنا.. حتى لايقال إنني رجل بدون قلب!

وعاد إلى الجلوس، أخذ الريشة، خطّ بسرعة بضع كلمات على ورقة بيضاء ثم ناولني إياها:

-فونسيكا، هذه أوامري الخطية أعمل اللازم...

وبإشارة من يده ختم المقابلة...



رافقت السجين حتى زنزانته دون أن ينطق أي منا بكلمة طوال الطريق.. حارس مغوار فتح القفل الثقيل الجديد وما أن وجد غارسيا لوركا نفسه داخل المكان حتى ارتمى على الحاجز الذي استعمله مرقداً ولفت نظره بقائي لحظة جامداً في العتبة، لاأعلم ماذا أفعل، فسألني متهيباً:

-هل لديك سيجارة؟

رميت على ركبتيه علبة سيجارات نصف ملأى: -احفظها لك.. وأعطيته ناراً.. راح يدخن كسيدة غير متعودة فشرق وكاد يختنق: مسح بقفا يده دموع عينيه وشرح لي:

-إنها المرة الأولى في حياتي التي فيها تحجز حريتي..

رمى السيجارة أرضاً وسحقها بعقبه: -لو كان الناس يعلمون لما أقدموا إطلاقاً على وضع الطيور في الأقفاص..

تشاغلت بالسعال لإخفاء اضطرابي فطرح عليّ السؤال الذي كنت أخشاه دائماً..: أين سيتم ذلك؟

أنا نفسي لم أكن متأكداً من ذلك.. فغمغمت:

-سترى..

-أحب أن لايحدث ذلك في المقبرة.. لم تكن المقابر كي يموت الناس فيها.. إنها فقط للصمت والأزهار والغيوم..

وفجأة تابع: -كيف حال القمر في هذه اللحظة؟

لم أكن أعلم شيئاً عن القمر، فأكد بإصرار واضح:

-لاأحب الموت على مشهد من القمر! -ثم تابع ولهجته تفيض بالحنان: -في قصائدي قلت الكثير في القمر، وأن أموت على مشهد منه فسيبعث في انطباعاً أن أفضل أصدقائي قد خانني..

-سأتركك الآن.

نهض: -في أية ساعة تأتي في طلبي؟

-لم يكن هناك أي موجب لإخفاء الحقيقة: -منتصف الليل.

-نظر إلى ساعته وحسب الساعات الباقية من حياته، فاعترضتني فكرة:

-هل تريد أن أرسل لك كاهناً؟

نظر إليّ طويلاً بعينيه.. عيني الطفل وقال:

-ليس لديّ شيء هام أقوله له.. سوى أنني خائف..

قلت مشجعاً: كل الناس يخافون..

هز رأسه وكأنه أدرك أنني لم أفهمه:

-أعلم ذلك، أما أنا، فقد عشت حياتي كلها وأنا أرتاد العالم الآخر.. والموت يرهبني ليس خوفاً مما وراء الموت، لا، أنا أؤمن بالله.. ولكن يرعبني ويخيفني مجرد التفكير أو الإحساس أنني ذاهب.. زائل؟!

بسط الشاعر يده، وضعها على ذراعي وقال بصوت خفيض:

-منذ كنت طفلاً كنت أكره الوداع، كلمة الوداع، بالنسبة لي، تعني شكلاً مصغراً من أشكال الموت! وتابع وكأنه يعتذر:

-إنني أحب نفسي كثيراً..

غادرت المكان دون الالتفات إلى وراء، وورائي أعاد الحارس المغوار

قفل الباب محدثاً قرقعة عالية..

غادرنا دار الحاكم المدني في منتصف ليلة التاسع من آب، وقد ذهبت بنفسي في طلب غارسيا لوركا.. وجدته غارقاً في نوم هادئ، طفولي.. ولم أستطع الامتناع عن إيقاظه.. فتح عينيه ونظر إليّ مدهوشاً..

-انهض، هذا هو الموعد..

تمطى طويلاً وهو يتثاءب، شأن القطط والعشاق.. أما إن يصدر ذلك عن محكوم عليه بالإعدام فهذا مابدا لي غريباً، وقد أثار اضطرابي.

دخل حارس مغوار الزنزانة، حاملاً قدحاً كبيراً من القهوة الغالية وقدحاً آخر من الكونياك.. وضعهما على الأرض إلى جانب الدكة.. وما أن انصرف الحارس حتى نهض غارسيا لوركا وكان جاهزاً لأنه لم يصطحب معه شيئاً إلى السجن، لا مشط.. لا فرشاة أسنان.. لا بدل ثياب، ولايوجد أصلاً في الزنزانة لا (طشت) ولا إبريق ماء.. وكأنه قرأ أفكاري فابتسم وهو يمشط شعره بأصابعه وقال:

-متى شئت.. أنا جاهز!

-إشرب قهوتك..

أطاع مسرعاً فحرق شفتيه..

نظرت إلى ساعتي: -على مهلك، معنا وقت.

أخذ قدح الكونياك وصبه في فنجان القهوة وهويقول: - لا أعلم في أي مكان من إسبانيا يسمون هذه الطريقة من المزيج: (كاراجيلو).

أنا كذلك لم أكن أعرف أين.. ليس في الكاستيل حتماً.. ربما كان ذلك في مكان ما من الأندلس.

أفرغ لوركا قدحه وردد من جديد: -أنا جاهز..

كان في مواجهتي، لطيفاً، مستسلماً، في بنطاله الأسود المشدود على ردفيه وفي قميصه المدعوك.. كنت على علم أن ندى الليل جعل الطقس جليدياً. فأشرت بإصبعي إلى غطاء الدكة وقلت: - تدثر بهذا.. وكان غطاء عسكرياً خشناً ومزخرفاً..

رمى به فوق كتفيه فصار شكله مثيراً للشفقة: أصبح كفزاعة الطيور.. نزلنا الدرج المقفر إلى الطابق الأرضي.. فصادفنا (جافييه خونتانا) ضابط الربع، يقوم بمهام الدورية متبوعاً بأربعة جنود حرابهم مشهرة.. فحياني بيده وصرخ ضاحكاً:

-هذا أيضاً.. إلى الدحداح؟!

كانت سيارة كبيرة مغطاة مقفلة الأنوار بانتظارنا أمام مدخل دار الحاكم المدني.. إنها سيارة مارسيدس كانت ملكاً (ل.ف.ج.) دي (س..) - ولا أعطي الاسم كاملاً وإن كان من السهل اكتشافه.. ذلك لأنني بمقدار ما أحتقر ذلك الشخص.. أظل صديقاً حميماً لأسرته. لقد طلبته هاتفياً مساء أمس، وشرحت له محاذير استعمالنا للسيارة الرسمية في هذه المهمة طالباً إليه وضع سيارته الخاصة تحت تصرفنا، فسألني:

-في أي وقت؟

-في منتصف الليل.

-من أجل (بوزيو؟) (نزهة يقومون بها من أجل المحكوم بالإعدام قبل تنفيذ الحكم).

-نعم..

-اتفقنا.. بشرط..

-ماهو...

-أن أجيء معكم..

وقد قبلت، لأننا سنستفيد منه في دفن الجثة!

ما إن تحركت المارسيدس حتى فوجئت برؤية ديوزينيو، السائق الذي قاد بنا سيارة مهمة أنجيلو، أنا ورويز آلونسو..

لقد عرفت متأخراً أن السائق إياه، يخدم عائلة (ف ؟ ج) دي (س..) منذ أكثر من عشر سنوات. أخذت مكاني في مؤخرة السيارة مع لوركا على يميني ومالك السيارة على شمالي. وهو شاب مليء معجب بنفسه وابن واحد من أكبر مالكي الثروات العقارية في المنطقة.. أنيق في هندامه وكأنه ذاهب إلى رحلة صيد.. يرتدي قبعة صغيرة، إطارها أخضر مع ريشة من ذيل ذكر التترا مثبتة تحت الشريط الحريري.. على المقعد الأمامي، بجانب ديونيزيو تمركز حارس مغوار مكلف عادة بحراسة السجين في مثل هذه الحالة.. وانطلقنا.. كان خلف المارسيدس (سيتروين) أسود تكدس في داخله عناصر الفصيل المكلف بالإعدام.

أصابت (ف.ج. دي لا س..) الدهشة وهو يرى الشاعر، والذي اعتقده أن غارسيا لوركا باداه بتحية متهيبة تجاهلها وهو يتشاغل بالجلوس داخل السيارة..

اجتزنا بسرعة جنونية المدينة النائمة.. لدى مرورنا أمام (لابويرتادي ألفيرا) تلفت الشاعر وأبصرت الدموع تتلألأ في عينيه.. وسارت السيارة في محاذاة جدران (كارتيجا) ودخلت الطريق الصاعدة نحو (فيزنار).. إنه طريق متشابك ووعر يتلوى دون نهاية بين حقول الزيتون.. أصبح أمامنا (لاسييرادي هويتور) ثم (كوغوللوس). وعلى قمة عالية، حادة، محرمة، ظهر الصليب المنتصب ساهراً على الأودية الساكنة تحت جناح الليل البارد.

كان الظلام سائداً بعد لما أطل موكبنا على وادي فيزنا، لأننا لم نقطع في كل مسيرنا أكثر من عشرة كيلومترات وكان يجول في خاطري

أن نتابع التجوال عدة ساعات.. وأمرت ديوزينيو بالتوقف أمام قصر الأسقفية لأن (نستار) أعلمني أن لديه مجموعة من السجناء سيتم إعدامهم قبيل فجر يومنا ذاك.. وطلب مني ألا نمر في (البارانكو) قبل الساعة الثانية صباحاً.. حتى لا يتصادف وصولنا أثناء عملية التصفية المذكورة.

أخرجت من جيبي علبة سجائر وقدمت منها للعناصر المحيطة بي، غارسيا لوركا و (ف.ج. دي لا س.) رفضاً.. بينما سارع ديونيزيو والحارس المغوار بالقبول.

كان على مقربة منا، في ظل الكنيسة، ينبوع وتمثال ديك غارق في السهاد يتروى من الماء بحركات آلية مهزوزة..

(ف.ج. دي لا س.) اعترته رجفة فقال: - يا إلهي ماأشد هذا البرد..

بادر غارسيا لوركا فقدم له غطاءه فتحول لون وجهه إلى الاحمرار الأرجواني.. وندت من بين أسنانه كلمة (شكراً) وهو يتظاهر بالنوم ورأسه على خلفية المقعد.

جذبت السيارة نحونا كلباً اجتاز المكان، وقد كسرت إحدى قوائمه، وهو يجر خلفه علبة محفوظات عتيقة ربطت إلى ذنبه بخيط طويل!. أثّر المشهد في نفس لوركا وقام بحركة مفاجئة إلى أمام عبرت عن نيته أن يغادر السيارة ويلحق بالكلب الجريح فأمرته بلهجة جافة أن يحافظ على هدوئه..

-لابد أن النوم أخذني عدة دقائق قبل أن دقت ساعة الكنيسة الثانية صباحاً.

-إلى أين سيدي الكابتن..

-سر باتجاه (الفقار).

اجتزنا (لاكوتونيا) البناء الضخم القائم فوق خرائب مطحنة عربية أصبحت (البارانكو) قريبة منا، وعلينا أن نقطع الطريق إليها مشياً على الأقدام..

-توقف يا ديزنيزيو.

اصطفت المارسيدس على حافة الطريق.. نزلت منها أولا وانحنيت على الباب المفتوح: -إنزل..

ترك غارسيا لوركا غطاءه داخل السيارة رغم أنه يرتجف من البرد.. ورفع رأسه فوراً مسرحاً نظره في السماء. ساده فرح غامر كنت الوحيد الذي فهم معناه:

-لايوجد قمر!

توقفت السيتروين السوداء بدورها خلف المرسيدس، ونزل منها رجال الفصيل وكانوا سبعة.. ستة منهم أعضاء في الزمرة السوداء. إنهم الوحيدون الذين عثرت عليهم جاهزين لأداء هذه المهمة.. كما ترجل أيضاً قس طرّز على ثوبه الكهنوتي القلب المقدس ليسوع.

وضعت إصبعاً على كتف الشاعر وقلت له: -تقدم.. وأنا أدله على الطريق.. سار راكضاً في الطريق المحاذية لمجرى ساقية جاف يدعى (الكامينودي لافوانت).. يتصل بالساقية الأم التي كان عرب (البوعبدل) يسمونها (نبع عين الدمار). وبعد عدة دقائق من المشي توقف غارسيا لوركا.. ظهرت أمامه، في الأفق، (لاسييرا) وقد غطاها ضباب الليل الأزرق.. وقربها، وراء غابة الحور السوداء، توجد (لافوانت فاكروس) قرية الشاعر ومسقط رأسه.. لقد سمعته يتمتم مرتين:

-لماذا ياربي.. لماذا؟!

كان ديونيزيو يمشي إلى جانبي ومسدسه في يده فأدخل فوهته في صلب الشاعر وانتهره بجلافة: -امش أيها (النانتور) وإلا بقرت

بطنك.. كان في نيته أن يفعل أكثر من هذا إلا أن نظراتي زجرته وأوقفته عند هذا الحد..

استأنف الشاعر سيره متعثراً بالحجارة وسقط ثلاث مرات على ركبتيه، وفي المرات الثلاث ساعدته على الوقوف فتابع، حاثا الخطى، مستعجلاً الوصول إلى حيث قدره.. وفجأة توقف وواجهني قائلاً: -

-قل لي الحقيقة.. هل هذا مؤلم جداً..؟

سمعه ديونيزيو فتولى الإجابة عني:

-أقل إيلاماً من أن تضع إصبعك في شرجك يا (ماريكون) وأسرع من ذلك بكثير..

صفعت ديونيزيو بكل قواي فتدفق الدم من فمه.. رفع السائق نظره نحوي دون أن يفهم لماذا أضربه بينما كنت أتهيأ لأن أكيل له ضربة جديدة.. فصوّب مسدسه إلي قبل أن أتمكن من أخذ مسدسي وعاجله الحارس المغوار الموجود خلفي بتسديد سلاحه صوبه ووقف بيننا مسيطراً على الموقف وانسحب ديونيزيو بعيداً وهو يتمتم متذمراً، وتابعنا جميعاً السير..

فجأة.. ندت صرخة.. صرخة لا يبدو أنها خرجت من حنجرة إنسان. توقف غارسيا لوركا عند حافة الجرف (بارانكو): أخدود عريض، مديد حفر في بطن الأرض.. كاشفاً عن جذور الأشجار العميقة.. عشرات اللّحود أخذت نفس شكل الأجسام المواراة تحت التراب الناعم الرمادي.. ثم، هناك على مرمى أبصارنا منظر فاحش، فظيع: ساق امرأة عارية ظلت خارج اللّحد فوق التراب المحرك منذ قريب.. أجهش غارسيا لوركا في البكاء وهو ينتفض كالملدوغ..

على إشارة مني تقدم الكاهن منه وفي يده صليب: كان له شدق وسخ يغطيه شعر لحيته الكث الذي لم يغسل أو يمشط منذ عدة أيام..

وأمر الشاعر بلهجة المستجز:

-اعترف!

-بماذا؟

-بماذا تريد..

مد لوركا يده وأبعد الكاهن عنه.. فرفع رأسه يائساً.. عبأ رجال الفصيل سلاحهم.. لقد جاء دوري في حسم الموقف ولأول مرة، منذ عرفت الشاعر كلمته رافعاً الكلفة بيننا:

-اركض..

نظر إليّ وهو لا يفهم قصدي فدفعته وأنا أؤكد:

-أقول لك اركض..

أصبح لونه أبيض كالحكك وسألني: - بأي اتجاه؟

-على خط مستقيم، إلى أمام..

لقد أطاع.. دائماً كان مطيعاً.. وركض عشرين متراً تقريباً بشكل بعيد عن البراعة، يثير الشفقة.. وتوقف.

-اركض أيضاً..

استأنف الركض ويداه تهتزان ورأسه يتداعى كأنه تمثال لا حياة فيه.. وأصدرت أمري:

-نار!

-أطلق الرجال.. في الظهر.. فسقط هامداً مثل أرنب.

ولما اقتربت منه رأيت وجهه معفراً بالدم والتراب الأحمر، وعيناه كانتا جاحظتين مفتوحتين لكأنه كان يبذل جهداً كي يبتسم، وقال بصوت خافت يكاد لا يسمع:

-أنا ما زلت حياً..

حشوت مسدسي وصوبته إلى الصدغ، استدار جسده على نفسه

في انتفاضة رهيبة كأنها وثبة شبّوط.. وانطلقت الرصاصة رغماً عني فاجتازت الشرج ونفذت من البطن. قريباً مني كان ديونيزيو الذي انطلق مقهقهاً وهو يقول:

-من فمها تموت السمكة!

ودفنّاه عند جذع شجرة زيتون..



دقت ساعة (سنتا أغنيز آن آغون) الواحدة. لا مادر ماريا ولا الأخت لوز ديل آمور أعارتاها انتباههما.

-ماذا حدث لأبيك؟

-لاشيء!

-لاشيء.

-(نادا) باللغة الاسبانية - لاتؤدي، بالضرورة، معنى النفي المطلق أي العدم.. لذلك أرادت مادر ماريا أن تعرف ماذا يمكن لهذه (اللاشيء) التي لفظت وشوشة أن تحمل من المعاني..

- وجد الحاكم فالدز أنها وجيهة، تلك الأسباب التي - حسب رأي زالاميرو- تخرج الإنسان عن طوره فيرتكب القتل وهو في نوبة جنون.. فأرسله كي (ينسى واقعه) في الجبهة، في مكان من الشمال الإسباني..

-هذا كل شيء؟

-نعم يا أمي، ذلك كان كل شيء.

تنهدت مادر ماريا وقد أسقط في يدها..: قصة عادية مبتذلة تحدث بين رجال كشف بعضهم خفايا البعض الآخر.. ولم يدر في خلد السيدة العجوز أن الحاكم، وهو يطلق سراح فونسيكا، إنما قام بواجب الصفح اللازم المتبادل بين رفاق السلاح، الذين يثمن بعضهم بعضاً

ويتبادلون التقدير ويتفاهمون بالإشارة..

لم تعلم مادر ماريا أيضاً أن فالدز أمر الكابتن زالاميرو - حالما اكتشفت فونسيكا عتمة غرفة الانتظار - بما يلي:

-تدبر الأمور بحيث أن هذا (الـ..) يلقي في طريقه رصاصة طائشة أو انفجار لغم أو طعنة حربة أو أي شيء آخر يقضي عليه فلا أعود أسمع بذكره إطلاقاً!

ولم يفعل زالاميرو شيئاً من ذلك، لأنه كان يأبى أن يدخل ضمن صلاحياته التسبب بقتل زملائه المنكوبين، حتى إذا كان ذلك يجلب مرضاة الحاكم فالدز..

-عاد إذن من الحرب سالماً معافى؟

-سالماً معافى.. بل وأكثر سمنة مما كان قبل ذهابه.. وعلى صدره بعض الميداليات الإضافية مع النجوم الثلاث الموشاة بخيوط الذهب لرتبة كولونيل..

ورغم لجوئها فجأة إلى الاختصار أضافت الأخت لوز:

-أقام في لوز فيلز واستأنف الشرب.. الشرب منفرداً هذه المرة: طفل شيخ، صامت وحزين يتحاشى الناس قربه مخافة أن يسمعوه يبكي..

-وأمك؟

-كانت تستمتع بالثأر وهي ترى أبي يقترب من الموت في رهبة متصاعدة..

-وأنتم الأولاد؟

-القليل من الحب الذي كنا نكنه له وإشفاقنا عليه كان يقتله.. تلك فترة أصبح فونسيكا، خلالها، شديد الاهتمام ببناته.. بالأخت لوز بصورة خاصة..

..لوس فيلز كانت تنتج قليلاً من الدراهم ولا يملك أبي مورداً آخر يغطي مصاريف عيشنا سوى راتبه التقاعدي.. عندها دخلت في رأسه فكرة زواجي من ملاّك كبير في المنطقة من أصدقائه وعملائه القدامى..

-أي نوع من الرجال؟

-تافه! كان كذاباً، شنيعاً، مكروهاً.. يضاف إلى ذلك دناءته التي زينتها الثروة حتى تحولت إلى فضيلة وصفة حسنة! كان في سن الخمسين رخو العضلات، عديم الذوق، أشبه ما يكون بالجياد المخصية والخادمات المطيعات.. وكاثوليكي ورع كان يخلط بين العدالة والثأر ومن مزيجهما يتكون شعوره الثأري الحاقد.. لا يتحسس عناء الغير، متعطش للأمجاد والتسلط على الرقاب ومن النوع الذي لايملك الآباء من نوع فونسيكا شجاعة إهمالهم وإسقاطهم من الحساب.. حالما تمت الخطبة حاول أن (يفترس) خطيبته في زاوية آمنة من زوايا حاصل للحبوب.. ولكن أحد رعاة البقر أنجد الضحية في الوقت المناسب، وحال دون ارتكاب ذلك الفعل العدواني.. وبالغريزة انطلقت لوز تنشد الحماية بين ذراعي والدها، ولكن، يا لخيبتها: برر فونسيكا تصرف الخطيب وهو يضحك ملء فمه.. تلك كانت رصاصة الرحمة!

وعندئذ - عقبت مادر ماريا بصوت ساخر- شعرت بالأعراض الأولى لاختيار طريق الدين؟

-لا يا أمي، عندئذ هربت من البيت!

ابتسمت مادر ماريا وقالت: هذا بالضبط ما قصدت قوله..

طلبت مادر ماريا، السيدة المسنة، مزيداً من التفاصيل حول هرب الخطيبة الخائبة الأمل رغم الإحساس بالألم نتيجة الاهتمام حتى بالتفاهات:

استقبلت ابنة الخال مونتيتسينوس الصبية المنكودة الحظ وآوتها.. ولم يتورع فونسيكا عن الهجوم ليلاً على ذلك البيت، فأوصدت في وجهه الأبواب والنوافذ ورد خائباً.. وهكذا فسخت الخطبة في جو مشحون بالبكاء والشجار.. لم يكن فونسيكا يتصور أن الخطر يأتيه من مأمنه.. وان ابنته المفضلة عنده هي التي ستسد في وجهه باب الخلاص من الفقر.. ولذلك كان يلعنها جهاراً في جميع حانات (البائسين) التي يرتادها..

كما كان يشرح، لمن يريد سماعه، كيف عملوا على حرمانه إرثه وتبديد هذا الإرث.. ابنه البكر مات في الحرب.. رهبانية ابنه لويس كانت في نظره مهزلة المهازل.. الأخت لوز تركت غرناطة قريبة للأم استضافتها في بيتها بمدريد فاستقرت هناك نهائياً..

كانت ابنة الخال تلك إحدى البنات العوانس الورعات الوجلات الطاعنات في السن.. كانت تتردد دوماً على دير (هيرمانس لويزاس) كما اعتادت أن تفعل منذ زمن طويل.. وراحت تصطحب (محميتها) إلى الدير المذكور حازمة أمرها على انتزاعها إلى الأبد من دنيا الرجال.. كانت تقول للصبية إبان شرحها (بروتوكولات حكما صهيون) إن - (.. جواز السفر إلى هذا العالم ليس سوى الانزلاق في حمأة النفاق والكذب واستغلال المطامح والتردي في الدعارة).. وكانت تضيف وهي ترسم إشارة الصليب على جبين قريبتها: - (اتركي هذا العالم وستجدين سلامك).

دخلت رئيسة رهبانية (لويزاس مادريلان) أيضاً في تلك اللعبة، ولم تتردد الأخت لوز طويلاً حتى سلكت مسلك من سبقها من اليائسين المتلمسين راحة نفوسهم: أشغال يدوية، صمت، صلوات، أولويات الطبابة، الكثير من التأمل.. واكتشاف الميل العميق إلى العزلة بكل

أشكالها وصورها: عشر سنوات طويلة قضتها على هذا المنوال..

وجاء يوم قالت فيه أمنيتها الأخيرة المحددة - لقد أصبحت مصقولة كسيف أصيل المعدن- إنها مهيأة تماماً للخدمة، واختارت طريق إفريقيا.. قالت مادر ماريا:

-في دنكلي كنت متميزة وموضع الإعجاب والتقدير العظيمين كما تشهد عدة رسائل موجودة لدي من رئيستك التي..

لم يعد مسمع الأخت لوز يتقبل مثل هذا الكلام: في دنكلي وضعت على محك التجربة تلك السعادة الهشة.. سعادة الذين يعلمون أن الالم منبعهما مظالم، وتلك المظالم هي التي يجب أن تعالج.. ومع ذلك، ففي دنكلي، كانت الأوضاع تدعو إلى الرثاء: أكواخ (براكات) خشبية مسقوفة بصفائح التوتياء من أجل المرضى ومن هم في النزع الأخير... مساكن خص بدائية للأخوات والأطباء.. سوء التغذية.. الغبار صيفاً والوحول في فصل الأمطار.. والأرياف المحيطة بالمشفى هي من النوع المعزول تماماً عن مجرى الحياة في هذا العالم.

لقد وصلت مساء ولم تستطع النوم فوق فراشها المصنوع من الحشائش الجافة.. فتركت خصها وانطلقت تتمشى خارجاً.. وقادتها المصادفة في درب ضيق يوصل إلى قمة ربوة مجاورة.. كان الهواء رطباً دبقاً ثقيلاً، بين الساكن والمتحرك.. حيوانات سارت في أثرها ولم تخف منها: منذ زمن بعيد أصبحت على يقين من أن الإنسان وحده هو الذي يعتدي على الإنسان بدافع شهوة العدوان فقط!

بلغت قمة الرابية، وجمدت في مكانها سابحة في تأمل هذا (الديكور) الفائق الوصف للطبيعة..: صخور مخروطة، مخرمة كأنها سقطت من القمر.. صفراء.. خضراء.. معرّقة بخطوط سوداء طويلة.. أشجار مفتولة الجذوع، جذورها ضخمة، مكشوفة.. أزهار كبيرة

عجيبة الألوان.. وفوق.. في الأعالي، خارج كل المقاييس والحلول الرياضية، سماء بلون الخباز تتزاحم فيها النجوم، ملايين ومليارات النجوم القريبة الدانية حيناً، والبعيدة القصية أحياناً، قبل أن تغيب وتختفي..

كانت الأخت لوز تصبو إلى هواء الليل الذي يملأ أنفها بعبق مجهول لا تعادله أزكى روائح الطيب..

-هذا جميل أليس كذلك؟

انتفضت الأخت لوز وأدارت رأسها: ثمة رجل وحيد، ضخم الجثة، بشع، له لحية شقراء قصيرة تزيد وجهه الأجعد طولاً.. إنه الأب بروكر، راهب دنكلي. فأجابت الأخت لوز وقد خرجت عن طورها:

-مع انعدام تام في المقاييس والانسجام!

سعل الأب بروكر في راحتي يديه وقال:

-الله هو الفوضى ألم تكوني تعرفين ذلك من قبل؟

ودون أية مقدمات سأل الراهب:

-يا أخت، ماذا جئت تطلبين في افريقيا؟..

كانت لهجته ألمانية قوية ولفظ (ك) افريقيا مضخمة جداً..

فأجابت الأخت لوز بسرعة فائقة:

-الكمال..

تنهد الأب بروكر وعقب:

-الكمال.. يا للتعاسة.

وبحركة من ذراعيه احتضن الريف المحيط:

-انظري.. هل ترين كمالاً في كل هذا؟

وابتسم في ذلك الليل ثم أضاف:

-ذلك لأنه لاشيء مما يحيط بنا هو من صنع الإنسان.

وتقدم من روز وهو مسترسل:

-ومع ذلك، يا أخت، هذه الفوضى، هذا الجنون الهائج، إنهما النظام المطلق.. النظام الرباني..

عقبت الأخت لوز بصوت تخللته الرجفة:

-إن مطامحي لا تتعدى كمالي الخاص أيها الأب ولا يعنيها كمال هذا الريف المحيط!

أسقط في يد الأب بروكر فصمت، واستلمت الأخت لوز زمام المبادرة فراحت تشرح قولها:

-الحياة التي أصبحت الآن ورائي.. والعالم الذي تركته كي أجيء إلى إفريقيا، كل هذا لم يكن له أي معنى في نظري..

وابتسمت بدورها، متحاشية نظرات الأب بروكر، ثم أضافت:

-عشت طويلاً في عالم كان يبدو أنه من فعل المصادفة.

سعل الأب روكر مرة جديدة كانت أعلى من الأولى.. وعوت ضبعة في غابة كثيفة قريبة.. واعترض الأب بروكر قائلاً:

-المصادفة؟.. ماذا تعني هذه الكلمة: مصادفة؟؟ لا أعتقد أن الله كان يلهو أو يمارس لعبة الكشتبان عندما خلق العالم..

لم تكن الأخت لوز قد طالعت قط مؤلفات أينشتاين.. ولذلك لم تفهم شيئاً..؟!

دنكلي.. الضياع.. الصفاء والهدوء.. عطاء الذات.. المثابرة والجلَد.. الصدق والجدية.. كل ذلك كان المحصلة الباقية للتجربة.. إنها دائمة أبداً ديمومة الحب الهادئ..

وبنظرة منها، طلبت الأخت لوز إذنا بإشعال سيجارة، فقدمت لها مادر ماريا علبتها وبيدها أشعلت لها السيجارة، وأمرتها بلطف:

-تابعي قصتك..

فبلعت الأخت لوز ريقها:

-صباح أحد الأيام جاؤوا من الغابة.. جاؤوا على حين غرة.. إنهم السود أتباع (الجنرال) (كانكا آليها) وهو ضابط صف سابق متخرج من مدرسة عسكرية بريطانية.. كان المهاجمون عدة مئات.. وعلى رأسهم (هائيديري) عملاق يرتدي عمرة ضابط إنكليزي إطارها أحمر..

كنت أمام الكوخ المستعمل قاعة للطعام.. وفي يدي جرة حليب.. كان الدكتور غاليليه إلى جانبي يعد لنفسه قدحاً من الحليب.. رأى الأسود قبلي فنبهني إلى ذلك بعبارة إنكليزية غامضة ولكن الأسود كان يرصد حركاته فعاجله برشة من بندقيته الآلية أحدثت عدة ثقوب في طيات تنورة التمريض التي أرتديها..

وتتابعت الأحداث بسرعة فائقة.. في عدة دقائق كان المحاربون الغزاة الذين قذفتهم الغابة قد احتلوا المشفى الذي لم يكن يدور في خلد أحد أن يدافع عنه...

وفي جو من الصخب المثير للذعر ذبح جميع المرضى: البيض والسود.. الرجال والنساء والأطفال ذبحوا في أسرتهم ضرباً بالساطور.. وشنقوا الأب بروكر بطريقة التعليق من الرجلين أمام مدخل المشفى.. وعند الغسق كان قلبه لا يزال يدق بنبضات الحياة الأخيرة، فجاء واحد من أكلة لحوم البشر واقتطع ما شاء من جسمه، فماتت صرخاته مع غروب الشمس تماماً..

بين الإحدى عشرة أختاً الأسيرات أكبرهن سناً، الأخت اوغوستا، الألمانية البالغة سبعين عاماً من عمرها، تم تقطيعها بالساطور على مشهد من زميلاتها المرعوبات.. الأخت آنجيلينا والأخت لوتيسيا قاومتا بالأسنان والأظافر ورفضتا السير مع الرجال الذين أرادوا سوقهما إلى الأكواخ المجاورة فتم قتلهما مكانهما برصاصة في الصدغ لكل منهما..

ثماني أخوات بقين على قيد الحياة وبينهن الاخت لوز دبل آمور هرموزو، وقد وقفن في صف متراص أمام الخص الكبير الذي كان مخصصاً لهن ككنيسة خاصة كن قد شهدن مذبحة الأطباء الأربعة الذين تراكضوا للدفاع عنهن.. وكن عاجزات عن القيام بأي شيء..

-ياأمي.. لاتستطيعين أن تتصوري..

بلى، للاسف، استطاعت يوما أن تشهد مثل هذا..

فقد خدمت مادر ماريا في إسبانيا عام ١٩٣٦ ثم بعد ذلك، في الهند الصينية.. وبعد ذلك أيضاً في غينيا، فالرجل يخلق شريراً تحت كل سماء..

ما أن انتهى رجال (الهاييديري) من خصي الرجال الأربعة المبقورة بطونهم.. حتى تقدم الأسود الذي يعتمر عمرة قائدهم الضابط، واختار حصته من بين الراهبات الممرضات فاستولى على الأخت لوز، نازعاً غطاء رأسها، وسحبها بشعرها إلى أقرب كوخ من هناك.. وكان يقهقه من فرط السعادة..

-يا أمي.. رجاء.. اسمحي لي أن أتوقف هنا..

وافقت السيدة المسنة، لأنها قرأت جميع التقارير الخاصة بحوادث دنكلي فكانت تعرف بقية القصة:

الأخوات اللواتي أبقاهن سابي الأخت لوز إلى رجاله، ودفعن برؤوس الحراب إلى المهجع المخصص لمرضى البرص في المشفى.. وحتى بزوغ الفجر كان الهاييديري يتناوبون البقاء معهن وقد أخذ منهم الشراب ومنظر الدم كل مأخذ.. الأخت لوز، كانت عارية، مشدودة إلى عامود وسط الخص، تملأ أذنيها ولولة زميلاتها، حتى أشرقت شمس النهار وملأ نورها الغابة..

حزرت الأخت لوز ما دار في رأس مادر ماريا من أفكار فاكتفت

بالقول: -أنا.. نجوت من ذلك الهول.. وبصوت منخفض شرحت كلامها: -اعتبرت فوراً بمثابة ملك شخصي لـ.. (مويل).

-مويل؟

-الأسود، ذو عمرة الضابط الإنكليزي، (الجنرال) مويل الحليف الهاييديري (لكانكا آليها) قائد حركة التمرد ورمزها..

-قلت: ملك؟

-نعم.. لقد أكد حقوقه على السبية التي اختارها بأن أردى برشة من مسدسه الرشاش الرجل الأول الذي أراد أن يتطاول ويمس الأخت لوز بيده..

رفعت مادر ماريا رأسها حائرة: - بأية لغة كان يتكلم معك؟

-ولا بلغة من اللغات..: اللهجة الهاييديرية كانت مجهولة في المنطقة، ومويل يجهل أبسط أصول تلك الإنكليزية المحرفة التي يتباهى كثيرون من الأفارقة بأنهم يتفاهمون بها..

وأضافت الأخت لوز مدققة:

-لم نتبادل الحديث إطلاقاً! ثم أضافت:

-كان يُفهمني ما يريد بالإشارات.. واستعملت كلمة (إشارات) معتقدة أنها الكلمة الأخف وقعاً على السيدة المسنة، وفعلاً مرت العبارات دون أن تحدث أثراً في نفس السيدة بل سألت فوراً:

-ما العمر؟

-عفواً؟

-ما هو عمر هذا (الجنرال).

-ثلاثون عاماً أو أكثر قليلاً.. وقد يكون أقل من ذلك..

كبير.. كبير جداً.. وجميل في أحسن ما يكون جمال الحيوانات والتماثيل.. وجهه مدور، مشرق، مادة أصيلة مصقولة كالخشب

الثمين.. يضحك غالباً.. اللاشيء يضحكه أحياناً..

وعندها تتقلص وتضمر عضلات بطنه ويصبح جسده صلباً، خطراً، رائعاً.

عقبت مادر ماريا وهي غارقة في أفكارها: - قلت إن ما من أحد مسك أو اقترب منك غير مويل هذا؟

-لا أحد.. إطلاقاً.. أرى..

كتبت مادر ماريا بعصبية ظاهرة، بضعة أسطر من أعلى صفحة بيضاء ثم تابعت:

-الهاييديري هم جميعاً، دون استثناء، من أكلة لحوم البشر؟

-نعم يا أمي..

-هل صحيح أن..

وسكتت هنا عاجزة عن المتابعة، فأحبت الأخت لوز أن توفر عليها ذلك وقالت:

-نعم، صحيح، كان ذلك مساء الاستيلاء على دنكلي..

ثلاث من بيننا، الأخت ماريا ماتيلد والأخت فيرونيكا والأخت...

رفعت ماريا يدها التي أصبحت شفافة تقريباً وكانت ترتجف:

-أعلم ذلك.. إنه مكتوب في أحد التقارير لكنني لم أكن أريد أن أصدق ذلك.. وخفضت السيدة رأسها: كانت تبكي، ودام ذلك لحظات، ثم نظرت، من جديد، إلى الأخت لوز وهي تبتسم من خلال دموعها:

-ماذا فعلت لاحتمال كل هذا؟

- قد يبدو مستغرباً القول إن الحياة في دنكلي استعادت مجراها بسرعة فائقة، فقد استطاع مويل خلال بضعة أيام، بحيوية فائقة تحويل المشفى القديم.. دنكلي كلها أصبحت حصناً آخر من حصون الأدغال والأرياف الثائرة.. في كل صباح - تماماً مع إشراقة الشمس -

كان (الجنرال) يغيب في الأحراج مع قسم من رجاله.. وكثيراً ما كان يطرق أسماعنا تبادل النيران في معارك تدور بعيداً منا.. وكنا دائماً تحت حراسة مسلحة نؤدي أشغالاً شاقة تعجز عنها حيوانات حمل الأثقال.. ومن فرط التعب كثيراً ما كنا ننسى ما آلت إليه حالنا ونكاد نألفها..

كانت أشغالنا تنتهي مع نهاية النهار تماماً: عند الغسق يعود مويل وأصحابه من الغابة ضاحكين (مضحكين أحياناً) جائعين.. متلهفين.. وتتجدد المحنة..

كان عجز مويل عن التخاطب مع الأخت لوز وعن إفهامها بعض رغباته يضطره لأن يعاملها بخشونة، بل بوحشية، كي تفهم...، لم يكن يكيل لها ضربات قوية.. يستعمل كفه فقط وضرياته مصحوبة دوماً بقهقهات ضحك عالية.. أحياناً كان سلوك هذه المرأة الكئيب وهي تطيع كالآلة يثير غضب مويل ويوقعه في حيرة:

كان يجد لديها كل ما يلزمه: الغذاء، الشراب وخصوصاً هو بالذات، مويل عندما كانت تصرخ بين ذراعيه فلا ينال رغابه إلا ببذل آخر ما يملك من جهد فيسقط متعباً وينهال عليها بضرب مبرّح قصاصاً لها على أنانيتها وعدم تجاوبها ونزواتها الشبيهة بنزوات المعزى الوحشية في الغابة!

تمتمت مادر ماريا: علاقات مثيرة.

-لقد كنت ملكه ليس أكثر..

-ليس أكثر؟..

كيف فسرت العبارة حتى نظرت بهذا الشكل الجديد إلى الأخت لوز؟

-لنقل.. ليس أقل!

لقد كانت تكذب.. قالت شيئاً وكتمت أشياء.. لم تكن الوحشية كل شيء لدى الهاييديري:

كان شديد الاهتمام بسعادة ورفاه ضحيته.. كان يجبرها أن تأكل.. وتشرب.. وتغتسل.. ويعاشرها حتى تنام بين ذراعيه منهوكة القوى، سعيدة ونهداها الأبيضان الجميلان مسحوقان تحت العملاق الجبار الأصهب الطيّب الريح كالمسك.. وكثيراً ما كانت تستيقظ في الليل وتفاجأ بأنها تنظر إلى المحارب الأسود نظرات عطف وحنان.. كان مويل فظاً قاسياً. غامضاً، ترهبه أبدا هذه الطبيعة التي هو جزء لا يتجزأ منها.. كان يعبد القمر والشمس وبعض الأشجار ويتطير من العاصفة والبرق..

يستسلم بكليته للنوم فيصبح بمعزل عن همومه ويبدو جميلاً، وجماله من ذلك النوع العجيب، الساحر، الأخاذ.. والرهيب أيضاً.. وحين كان يضحك، كانت الأخت لوز تشعر بحاجة ملحة، بل مستبدة، كي تضحك بدورها وتداعبه وتحميه - بكل ما لديها من خبرة وتجربة - ضد كل ما يحيط به ويفزعه من أخطار..

وحين قام المرتزقة الألمان بقيادة (أودو و سترلنغ) بهجومهم المفاجئ، عند الفجر، ضد الحصن.. كان مويل بين الجرحى الأوائل، كان جرحه مفتوحاً في البطن ومنه كانت تتدلق قليلاً.. قليلاً.. أمعاؤه جاء زاحفاً يطلب الحماية بقربي، لكن الرجال الشقر رفضوا تلك الحماية، وأجهزوا على المحارب الأسود الجريح بضربات من أخمصة المسدسات وأعقاب الأحذية..

- حتى آخر نفس من حياته لم يكف عن النظر إليّ وهو يبتسم..



أعلنت ساعة (سانتا آغنيز أن آغون) من جديد أن الوقت قد فات..

-أخت لوز..

-نعم يا أمي..

-هذا الجنين..

جمدت الأخت لوز ديل آمور هرموزو في مكانها وقالت:

-أريد الاحتفاظ به!

احتقرت مادر ماريا نفسها وهي تستوعب المعاني البعيدة لتلك العبارة. وصرخت مصدومة:

-أنا آخر من يمكن أن يعرض عليك العكس..

-لم أشك بذلك إطلاقاً..

أكدت مادر ماريا من جديد ما كانت تقصد قوله:

-هذا الجنين يجب أن يولد في أفضل الشروط وأكثرها وفرة.. وبعد ذلك..

- ماذا بعد ذلك؟

تراخى صوت مادر ماريا قليلاً: بعد ذلك نعتني به حتى يبلغ رشده.

-نحن؟

-الكنيسة.

وضعت الأخت لوز راحتيها على بطنها: حركة حماية عفوية وقالت:

-لكن..

-هكذا...

كانت نظرات السيدة المسنة جليدية ولكن الأخت لوز، رغم ذلك رفعت صوتها قليلاً:

- وإذا رفضت..

قالت السيدة المسنة:

-هذا سؤال لا يطرح أصلاً.. أنت دائماً راهبة، تعهدت بالطاعة، إذن أطيعي..

وأدارت وجهها الذي ظهرت الحدة في تقاطيعه باتجاه الحائط الأبيض، وأضافت بنبرة تكاد تميل إلى الازدراء:

-كثيرات قبلك أطعن..

ضغطت يدا الأخت لوز بلطف على بطنها: كان فاتراً.. حيا.. وسألت:

-كم واحدة من بينهن التزمت أن تبقى أماً لولدها؟

لم تجب مادر ماريا..

سألت الأخت لوز بإصرار: كم؟

أجابت مادر ماريا بشدة متصنعة: -أنا لا أريد إلا خيرك وخير الجنين الذي في أحشائك.

-خيري: هو هذا الجنين.. وخيره هو: هو أنا..

نهضت مادر ماريا متوكئة على عصاها: لقد كانت كبيرة، كبيرة جداً وربما أكبر من أن تعرف الشفقة بكل دقائقها..:

-هذا الولد هو ثمرة المصادفة.. وأنت تنتمين إلى الله والمصادفة والواجب لا يعملان إطلاقاً أسرة صالحة..

لقد كانت تنسى - ربما كانت تجهل أيضاً - أن المصادفة -دائماً- هي الله..

وبدورها نهضت الأخت لوز..

كانت الكاديلاك القديمة تشق طريقها ببطء في الزحمة اليومية المعتادة لشارع (فيانازيونال).. قال ريموندو السائق وهو يلتفت نصف التفاتة:

- بعض الصبر يا أختي، الطبيب (كليمنتي) يقيم قريباً جداً من هنا.

- مينيبوس مسجل في لندرة توقف على يمين الكاديلاك المحاصر من قبل إحدى الشاحنات..

بنات شقراوات ضحكن للأخت لوز، وطفل عيناه شديدتا الزرقة كشف لها، وهو يكشر، عن أسنانه البيضاء الحادة.. وكانت الحرارة عالية جداً.

وقبيل أن تغيب الشارة الحمراء مفسحة المجال للنور الأخضر، كانت الأخت لوز قد فتحت باب الكاديلاك وتركت السيارة.. والإسفلت يتحرك تحت قدميها وكأنه يغلي بفعل شدة الحر.. وسمعت ريموندو يصرخ في إثرها: - يا أختي.. يا أختي.. عودي!

ودون أن تلتفت أدت له بيدها إشارة وداع كبيرة..

لقد غابت الأخت لوز ديل آمور هرموزو في قلب الجمهور المزدحم...

من منشورات دار علاء الدين في القصص والروايات

- الأقصوصة السوفيتية المعاصرة .... مجموعة مؤلفين
- ذكراه في القلب .... أنا غاغارين
- النطع .... جينكيز إيتماتوف
- طائر الكريم .... وهيب سراي الدين
- أسرار المدافن المصرية .... أجاثا كريستي
- الركض عبر أزقة الغربة .... طلال شاهين
- المهندسون .... وهيب سراي الدين
- حياة واحدة لا تكفي .... سعيد أبو الحسن
- محاكمة سقراط .... يوري فانكين
- رفيقة سفر .... صالح القباني
- مذكرات امرأة .... روشن بدر خان
- يسلم الوطن .... عزيز نيسين
- من مذكرات معلمة .... سعاد مكارم
- خصيصاً للحمير .... عزيز نيسين
- موت يومي حقيقة ما .... جهاد عقيل
- الشمس في كفي .... ابتسام شاكوش
- المحطة الأخيرة .... ممدوح حمادة
- بؤس الشيطان .... بريم ستوكر
- حكاية البغل العاشق .... عزيز نيسين
- التجربة الأخيرة .... بوليا إفانوفا
- القيد .... فوزات رزق
- ربما غداً .... صلاح دهني
- عواء الرجل الميت .... طلال شاهين
- لأجلك يا خروف .... إياد ناصر
- هالوليا .... عادل ابو شنب
- جلنار .... ممدوح حمادة
- حكايات زمن يتصاعب .... الحبيب الحمدوني
- خيمة تخفق تحت الشمس .... وهيب سراي الدين
- دف الصخر .... مطاع القاق
- شوام ظرفاء .... عادل أبو شنب
- مذكرات حبة قمح .... ريما فليحان
- أحلام إيفان المأساوية .... د. ماجد علاء الدين
- فالس الوداع .... ميلان كونديرا
- لا بديل .... عبد الناصر متعب المغوش
- قاعة الأرزاق .... منصور ناصر الدين
- يساري انت ام يميني .... عزيز نيسين

هذه الرواية

حين تأكد نيرودا من أن الفاشست قد قتلوا لوركا صرخ: من كان يصدق *أنه توجد في الدنيا غيلان قادرة على اقتراف تلك الجريمة؟*

لقد ظلّ قتلة لوركا يستميتون عدة عقود كي يخفوا حقيقة ما جَنوا. لكن الكُتّاب والصحفيين والمناضلين الذين أحبوا لوركا شاعراً وإنساناً، لم يتركوا دمه يضيع. إن ما اكتنف نهاية لوركا من لُبس وغموض، لم يكتنف مثيلاً لها، وهذا وحده، يجعل من تنطح الرواية لمصرع لوركا تحدياً فنياً صعباً.

ولقد استطاع الكاتب الإسباني (فيلالنغا) أن يخرج من هذا التحدي برائعته (هيجان) فيقول ما لم تقله عشرات الأسماء من الكتاب العالميين الذين غمسوا أقلامهم بنجيع الحرب الأهلية الإسبانية وفي مقدمتهم مالرو، همنغواي، سارتر، اهربنورغ، نيرودا، باسوس. إن فيلالنغا يقصّ علينا حقيقة ما جرى للوركا، وعبر ذلك يبدع في تصوير مجموعة فذة من الشخصيات والأحداث: قاتل لوركا، ابنته الراهبة، الفجر، الكتائبيون، صراع أطراف الفاشية، غرناطة الفقراء والجمهوريين.

وباختصار، فإنّ رواية (هيجان) ببساطتها، ووثائقيتها، وانحيازها إلى شعلة الإنسان الخالدة، التي ومضت في سماء إسبانيا، فأطفأها اليمين الفاشي - ولو إلى حين - تضافُ إلى قائمة الأعمال الأدبية الخالدة التي أفرزتها الحرب الأهلية الإسبانية. ولا ريب أن ظهور الترجمة العربية لهذه الرواية قد جاء في أوانه. ألسنا في زمن الحروب الأهلية؟ ألسنا في زمن لوركا؟ فلنقرأ هذه الرواية إذن.

يطلب الكتاب على العنوان التالي: دار علاء الدين للنشر والطباعة والتوزيع
سوريا ـ دمشق ص.ب. ٣٠٥٩٨ ـ هاتف ٥٦١٧٠٧١ ـ فاكس ٥٦١٣٢٤١